خرائط العراقيين الغريبة

قصص

ملهم الملائكة

مكتبة ملهم

خرائط العراقيين الغريبة

قصص

ملهم الملائكة

إلى سراب وقد كانت معي وما زالت رغم افتراقنا

التوأم

ولد سمير قبل شقه التوأم نمير بعشر دقائق وبذلك استحق أبوه أن يتسمى بكنيته، وصار الجميع ينادونه أبو سمير، ولم يفكر أحد قط أن سمير ونمير هما بيضة واحدة انفلقت نصفين بقدرة التكوين.

وبقي تفاوت الموقعين يلازم التوأم، ففي الطفولة، تعلم نمير المشي قبل سمير، وتخلف سمير عنه لنحو 5 أشهر، ومع ذلك ظل الجميع ينادون الأب والأم بكنية الأبن الأكبر. وحين بدءا ينطقان، تعلم سمير أن ينطق بسلاسة مع لثغة الطفولة المعتادة، إلا أن نمير تخلّف عنه، وتعلم النطق متأخراً عاماً كاملاً عن شقه التوأم، كما لازمت نطقه حروف متمردة من بينها السين والصاد والضاد والظاء كانت تعاند لسانه فتخرج من حنجرته ثاءات مشينة.

ومع هذا التفاوت بينهما، فقد بقيا يقتسمان كل شيء، وغابت عنهما روح الإثرة والتملك الأناني، فعيدية سمير التي تتجمع في جيبه صباح العيد كانت تفوق دائماً عيدية نمير، وهذا طبيعي، لأنّ الأهل والأقارب يعدّون سمير كبير العائلة التي ما برحت تكبر بمعدل طفل لكل ثلاثة أعوام، ولم يكن الوالدان يتعمدان ذلك، لكن يبدو أن التكوين كان يتناوب بينهما مرة كل ثلاثة أعوام، فيهبا الحياة لكائن جديد يضاف إلى ثنائية سمير ونمير، حتى بلغ العدد ستة وبعد عامين توفي الأب فتوقف نمو الأسرة. ومع كل عيد كان سمير يصرّ على أن يقاسم نمير عيديته.

وفي الغارات الصبيانية التي كان فتيان المحلة ينفذونها على حقول الخيار وأشجار السدر في مزارع شواطئ دجلة، كان نمير يجمع الحصيلة الأكبر من الغنائم، نظراً لشجاعته وسرعته في العدو مصطحباً الغنيمة، أما سمير فكان الخوف يقعده دائماً عن الخوض في الغارات، علاوة على أنه لم يتعلم السباحة، كما تعلمها لوحده شقيقه نمير. وبهذا تفوق نمير على سمير في جانب آخر، لكنه كان يتقاسم الغنائم دائماً مع نصفه التكويني سمير، ومع ذلك لم يتحسن موقعه بين أفراد الأسرة وحتى الغرباء، فما برحوا يعدونه الشقيق الأصغر الذي تشوب عربيته مشكلات.

اتسعت الهوة بينهما حين بلغا سن المدرسة، فقد دخلا بداية سوية في الصف الأول، وكانا يجلسان على رحلة دراسة واحدة، إلا أنّ نمير بقي لا يفهم كيف يتعلم. وانتهى عامهما المدرسي الأول بتعلم سمير الكتابة والقراءة والحساب بخلدونيته الصفراء الملونة، أما نمير فغضب من عجزه وعيه، فأهمل الخلدونية حتى تمزقت، ويوم عرف بنجاح شقيقه وعبوره إلى الصف الثاني، ورسوبه هو وبقائه في الصف الأول، ألقى بالخلدونية والدفاتر الصغيرة التي تزين أغلفتها صور عبد الكريم قاسم والأقلام السوداء والملونة في القمامة، وعاد إلى البيت ويداه في جيبه ليعلن أنه لن يذهب إلى المدرسة بعد هذا العام.

وما كان والداه ليعترضا قراره وهما يعرفان قدراته التي تصاغرت أمام قدرات شقيقه بمرور الزمن، وهكذا بقي نمير جليس المنزل يقضي أيامه بالغارات على مزارع شواطئ

دجلة، وعصريات أيامه بالغارات على أشجار الجيران ليقطف منها التوت والبرتقال والليمون والنبق.

وحين بلغ سمير الصف الرابع، أرشد أحد الأصدقاء أباه إلى معهد الأمل، وأوصاه أن يسجل نميراً فيه، ليتعلم صنعة تمكّنه من الاعتماد على نفسه في المستقبل، وهكذا صارت حافلة معهد الأمل الصغيرة الزرقاء تقدم كل يوم لتلتقطه من باب البيت، وتذهب به إلى المدرسة فيبقى فيها حتى العصر وتعود به وبأقرانه إلى البيت الساعة الخامسة عصراً، ولم يكن مطلوباً من أهله أي نفقات لقاء ساعات التعلم الطويلة والرعاية والعناية والتغذية والنقل.

ومع اختلاف طريقيهما، بقيَ الشقيقان يقتسمان أسرار مدرستيهما، وخبرات أيامهما، وما يحصلان عليه من اليوميات والإكراميات والهدايا في المدرسة والبيت. أما حصيلة غارات نمير على مزارع الشواطئ خلال العطلة الصيفية فقد تنامت لتشمل اللوبياء والبطيخ والرقي وحتى السمك، وبات يذهب بكل الحصيلة ليبيعها في سوق البوليسخانة الشعبي، حيث يجلس في زاوية أحد الأزقة، ويعرض الغنائم على كيس من القنب المرشوش بالماء كما يفعل الباعة، فتفوح رائحة القنب الرطب مختلطة بعبق اللوبياء والرقي والخيار، وكل هذا يجلب المشترين. عرف نمير ذلك لوحده دون أن يرشده أحد، عرفه من خلال مراقبة البائعات القادمات من خلف السدة والشاكرية ليبعن الفجل والكرفس والرشاد والمعدنوس وخبز الحنطة السميك اللذيذ والبيض والقيمر كل صباح. وكانت الرائحة المتصاعدة من أكياس القنب التي يفترشنها تملأ أنفه وتهبه شعوراً بالغبطة لا يعرف له تفسيراً، فقرر أن يفعل مثلهن، وكان القرار مصيدة الزبائن غير المرئية.

وحين يعود نمير وقت الغروب إلى البيت يسارع ليقاسم شقيقه التلميذ اللعوب سمير حصيلة البيع.

وكرت السنون، فتعلم نمير من مدرسته صنعة غزل الليف وصناعة الطاقيات "العرقجينات"، فيما بقي سمير تلميذاً غير لامع في المدرسة، حتى وصل الصف الثالث متوسط، فكانت تلك العقبة الكافرة التي قضت على مستقبله المدرسي، ولم يتمكن قط أن يعبر امتحان البكالوريا اللعين، وهكذا كرر الصف سنتين، ثم انتهت حياته مع المدرسة، وصار يذهب مع أبيه إلى محله لبيع الحديد، فيعمل معه هناك ويحصل على بضعة دراهم لقاء خدماته غير المطلوبة، لأنّ العمل يقتضي قوة وعضلات لم يكن سمير يمتلكها، فتحول إلى فرّاش صغير، ينظف المحل ويرتبه ويخدر ويقدم الشاي والماء للزبائن ولأبيه، كما يذهب في مأموريات صغيرة هنا وهناك تتعلق بنقل بعض قطع الحديد الصغيرة بعربة المحل الثقيلة.

ومع افتراق طرقهما ومستويات دخلهما فقد بقي شقا التوأم يقتسمان كل الدراهم وحتى الدنانير بينهما، ثم قررا أن يشتريا دراجة هوائية مستعملة، تمكّنا من جمع قيمتها، وهكذا ابتاع سمير دراجة "كومريد" إنكليزية زرقاء بحجم 28، وتعلّم خلال أسبوع كيفية قيادتها، أما نمير فلم يفلح قط بتعلم قيادة هذا الاختراع الحديدي الجميل السريع، وانتهى به الحال أن

يركب على السيبايه خلف أخيه، أو على البوري أمامه ويذهبان في جولات طويلة يرافقهما عيسى ابن الجيران على دراجته الألمانية الحمراء من نوع هيركليس.

جولاتهما كانت تأخذهما بعيداً حتى أنهما باتا يذهبان في أيام الأعياد والجمع والعطل مع بعض من صبية المحلة في سفرات إلى المدائن التي تبعد أكثر من ثلاثين كيلومتراً عن بيتهما. وكانت رحلة الذهاب والعودة تستغرق اليوم كله وبعضاً من الليل، فيعودان مع حلول الظلام في ليالي الصيف نحو العاشرة ليلاً.

وتعرّف الشقيقان خلال تلكم الرحلات على الجنس الآخر، فالمدائن وطاق كسرى كانت تحفّ بالسائحين والسائحات والزائرين والزائرات، والنسوة والبنات العراقيات والأجنبيات كن يتجولن في قصر طاق كسرى وفي التلول والبساتين المحيطة به بسراويلهن الضيقة التي تلتصق بتكورات أجسادهن فتزيدها جمالاً، أو بتنوراتهن متناهية القصر وهي تكشف عن أفخاذهن الشهية. وبات سمير يحلم بأجساد السائحات وشقرتهن وعيونهن بالغة الزرقة، فيما تعلّق نمير بالعراقيات وخاصة المكتنزات منهن، لكنّ كل ذلك بقي سياحة اشتهاء في عالم الأحلام والرؤى ولم يتحول إلى فعلٍ يحقق أي لقاء.

افترق الشقيقان في الثامنة عشرة من عمرها، حين باتا في سن الخدمة العسكرية الإلزامية التي سنتها الدولة بعد 17 تموز 1968، حيث وجب على سمير الالتحاق بالجندية، فسيق إلى مركز تدريب الحصوة، وصُنف سائقاً بعد دورة في مدرسة التموين والنقل، ومنها التحق بأحد ألوية الفرقة الثانية المنفتحة في جبال كردستان الصعبة وهي تواجه بارزاني ومقاتلي البيشمركة المرعبين.

أما نمير فأعفي من الخدمة الإلزامية، وعُدّ متخلفاً عقلياً بسبب سنوات دراسته في معهد الأمل، وكان في هذا عزاء لأمهم الأرملة التي رحل زوجها عنها في نفس عام انخراط سمير في الخدمة العسكرية.

بعد عامين ونصف، تسرّح سمير من الجيش، وعاد لبيته، وما لبث أن تعيّن رسمياً بوظيفة سائق في مؤسسة حكومية، وسلموه شاحنة تريلر نقل بري، وصار يذهب في مأموريات تشمل البصرة، ومدخل عرعر، وخليج العقبة في الأردن، ليعود محّملاً بالبضائع، وكان يجلب معه دائماً معداتٍ هندسية وأجهزة طبية وكهربائية وأطوال قماش مهربة يبيعها لحسابه. وتحسنت أوضاعه المالية ومع ذلك ما انفك يشارك توأمه نمير الموارد والمكاسب، ويجمع له قطع الأثاث النادرة الثمينة في رحلاته، حتى امتلك نمير من الأثاث ما يؤهله لإقامة بيت مستقل، لكنّ البيت تصنعه زوجة، وصعب على نمير أن يجد امرأة ترضى به، فيما خطبت أم سمير لابنها الأكبر فتاة من جيران أهلها في محلة الشيخ معروف بالكرخ.

وحين زُفت الفتاة على سمير، رقص نمير إلى جانبهما كما لم يفعل من قبل، وكانت العروس تتأمل الأخوين وتتعجب لشدة تشابههما، وحين استقرت في بيتهما لتحتل موقعها كنةً أولى في بيت أم سمير، ظل التشابه يثير عجبها، وكانت تتسامر ليلاً مع زوجها وهي تقول له مازحة إنها تخشى أن تخلط بينه وبين أخيه ذات يوم ويحصل المحظور، فيضحكان

لهذا الهاجس، ولما تكرر منها هذا قال سمير مازحاً إن المحظور لو حصل فهذا ليس غريباً فقد اعتدنا أن نتقاسم كل شيء، وضحكا مع بعض في سرير الزوجية الناعم.

ورزق سمير بثلاثة أبناء وبنت، ثم رحل سراعاً عن العالم وبنوه لم يبلغوا الحلم، فتزوجت امرأته بلا تردد من شقيقه ولم تشعر بفرق كبير بينهما، بل إنّ نمير كان أكثر عشقاً لها وهو يراها تجسيداً للعراقية المكتنزة التي طالما حلم بها.

وهكذا أكمل نمير حياة سمير حتى بعد موته، فيما فرحت العروس اليافعة وهي تجد نفسها زوجة لرجلين لا فرق بينهما سوى بضع دقائق.

بون 2020 - عام كورونا

الحاج مهدي يبحث عن أخيه

واذهب فقيراً كالصلاة

وحافياً كالنهر في درب الحصى

ومؤجّلاً كقرنفلة

محمود درويش

لا يدري إن كان حقاً ينتمي إلى هذا الوطن أم لغيره، فقد تعددت قراءات زمنه حتى ما عاد يهتم إن كان الأمر حقيقة أم كابوساً طويلاً امتد لثلاثة وعشرين عاماً منذ أن جاءوا به من مخبز سيد خضر في الكاظمية. وكم حاول أن يقنعهم أن الموضوع هو محض سوء تفاهم أوقعه فيه أبوه مذ كان في الثامنة عشرة حين شاء أن يخلّصه من الخدمة العسكرية (وكم كان يحب أن يكون جندياً لدرجة أنه أستخرج لنفسه دفتر خدمة عسكرية بدل ضاع وانخرط في الجندية ليلتحق بالجيش العراقي المشارك في حرب الأيام الستة عام 196).

يحدثني في ليلٍ بهيم تعطره رائحة الطبيخ المتسلل من شارع قبيلة الحلاف عن الطائرات الإسرائيلية التي قصفت الأرتال العسكرية العراقية وهي لا زالت في الرمادي وكيف أنّ المدافع الرشاشة كانت مجرد دميٍ حديدية لا تطلق النار، فالحكومة آنذاك لم تزود القطعات الذاهبة للحرب بالذخيرة خشية عودتها للعاصمة بغداد، وهكذا تساقطت القذائف الإسرائيلية على الأرتال المحنطة مثل دمعٍ طويلٍ يتدلى من عيون وقحة، وهرب الجند تاركين أسلحتهم العاقر تحت مطر القذائف المدمر القبيح. هذا المحظور تكرر في صبيحة 14 تموز 1958، فتمرد الجيش بذخيرة محدودة جداً لكنها كانت كافية لتصنع "ثورة" العائلة المالكة وتحويل البلد إلى جمهورية.

صوت قارورة الشاي فوق السماور الروسي العتيق تحوّل إلى صفيرٍ حاد، إيذانا بأنّ كل ما في القوري قد تبخّر، ونهض مهدي متردداً في أن يقاطع حديثه، وسكب ما في القارورة، وأعاد تخدير الشاي للمرة الرابعة، لعلها كانت ليلة الهرير في ضيافة أبو مهدي بصومعته الغريبة. جلس أبو مهدي، في زاويته مقعياً، وأوقد لنفسه سيجارة، ودون سابق إنذار انتقل في الحديث من الحرب إلى الصلاة، وشرع يحدثني عن صلاة الواحد وخمسين التي يقضي بها ليله، لا يهمه أن يبني بيتاً ولا أن ينتمي لأهلٍ ولا أن يبقى له امتداد، فكل امتداده الآن هو اتصال غيبي بالسماء طالما تحققت إشراقاته في ليالي البرد المعتمات، فأصاب بها رؤىً خاطبه فيها أولياء صالحون كثر لدرجة الانكشاف، يروي لي وقائع الانكشاف، فيما يغمر الألق الميتافيزيقي غرفته الفقيرة الصغيرة المعتمة.

في الزاوية يقف ظلٌ غائم الملامح يحرك يده بشكل دائري وباليد الأخرى يحمل مصباحاً تنوس شعلته بقبس أزرق، زيته ذهبي اللون ونوره ساطع يتلألأ دون انتماء ودون اتجاه ودون قرار ودون مدى. زيت المصباح مادة من قلق زئبقي لا تشبه كيروسين الإضاءة ولا

غيره من الوقود ولكنها تتقد كما لو أنّ فيها إعجازاً غيبياً. هكذا يشعر الحاج مهدي، وهكذا أوحى إليّ وأنا جالس أسامره في بيته ذي الأربعين متراً في هذا التيه اللامنتمي.

أجيالٌ من سكان المدن الصغيرة التي صارت محطات في حياة الحاج مهدي تزوجوا وأنجبوا، وشارك هذا الرجل الغريب الناس أفراحهم وحضر أعراسهم وقرأ الفاتحة في مآتم غيرهم (بعد كل وفاة تنتابه حالة اكتئاب وانطواء حاد)، ثم لا يلبث أن يعود لجولاته اليومية التي تقوده إلى مناطق محددة. لا تتجاوز السوق الصغير الفقير لدرجة أنّه يحتفظ دائماً بإسمنت أرضيته نظيفاً، بيت الاستاذ هاشم، حديقة حسين العراقي حيث يجلس الأخير غارقاً في تأملات رحلته العجيبة وهو ينفث دخان نارجيلته الغليظ من منخريه مثل قطارٍ غاضب، وهو غاضبٌ من أبن أمه الموظف الكبير في المدينة القريبة الكبيرة لأنه لا يسعى لإنقاذه من هذه الغربة الكافرة. ويذهب مهدي أحياناً إلى حمام الحاج حسن، ومسجد المدينة الصغيرة ثم يعود لغرفته - بيته المهملة، ولقدور الطعام التي لا تعرف اللحم، وللصحون المعدنية القبيحة الرخيصة ولقطع الأثاث البائسة، وهي ليست أكثر من تلفزيون قديم متداعٍ أعاره له صديق مضى إلى العالم الآخر ومدفأة كهربائية عتيقة ابتاعها بثمن بخس وصندوقٍ لحفظ الملابس التي يتصدق بها سكان المدينة وفراش يتّسد الأرض وقد أبلاه الزمن وتعاقب الأجساد عليه وثلاثة أكياس جنفاص من الكتب، يبحث أغلبها عن غلاف ومؤلف!

عصر ذات يوم ربيعي، قرع باب بيتي المهلهل، رافقته إلى السوق وتناولنا قطعتي حلوى وشراباً مثلجّا، ثم رافقته لنطوف بأرجاء المدينة. قرب الجدول اليتيم نفترش أجمة خضراء تسبح في بحر من الحنطة، الأفق المسفوح أمامنا يمتد يانعاً باذخاً يمتص نهايات كلماتنا لينتهي بجبال جرداء شوهاء تقرر رغماً عنه اتجاهه.

صفن حديثنا برهة تطاولت زمناً أتكاسل أن أقيسه خشية أن أجرح صفاء الهدوء الجميل، وأتذكر مولانا المغرق في حب شمس الدين التبريزي، هل كان يحار في لحظات الصمت الطويلة مع معشوقه الأبدي؟ بكى الحاج مهدي بحرقة وبدمع كبير حقيقي، بكى بأسى لا يشابه أسى الآخرين، بكى فألجمني صمتاً ودهشة وذهولاً، ليس هيناً أن يبكي رجل في الخامسة والسبعين خلف عمره جبال من تجارب، ولا يسعني أن أقول شيئاً أكسر به حاجز الخجل الداهم، فأبقى صمتاً وتنتابني رغبة في البكاء والسؤال!

يصمت الحاج مهدي ويكفكف دمعه ويخاطبني بصوت أجش خنقته العبرات مثل رجل يستيقظ تواً من حلم: أنت لا تسألني عن سبب بكائي!؟

لا حاجة لذلك، لا يبكي رجل في الخامسة والسبعين إلا لسبب لا يصح السؤال عنه!

لم أبكِ قبل اليوم أمام أحد، معذرة!

ليتني أستطيع البكاء، فخلفي أوقيانوس حزن سحيق.

أتدري؟ أنا أبكي لأني أتأمل حياتي فلا أجد نفسي طيلة عمري قد خالفت القانون مرة واحدة، أنا لم أقف ضد السلطة مرة واحدة، بل أنني لم أخالف حتى قوانين المرور، ولا شأن لي

بالسياسة في كل الأزمان، لا الملك ولا الزعيم ولا العارفين ولا البكر ولا صدام ولا خميني ولا خامنئي، لم أعرف لنفسي اهتماماً يتجاوز الخبازة وهي مهنتي والعبادة وهي آخرتي والقراءة وهي متعتي بعيداً عن كتب السياسة، بل لم أكن ألعن السلطة حتى في خلوتي! ومع هذا جاء رجال الأمن قبل 23 عاماً واقتادوني إلى الحدود، ثم ألقوا بي إلى هذا البلد، وقالوا: اذهب لوطنك!

في جيبي آنذاك عشرون ديناراً، وكل ما عليّ هو قميص أبيض قديم وسروال أسود داكن وانتعل في قدمي حذاء بالياً أحمر اللون. ومنذ ذلك اليوم بت لا أحد، دون هوية ودون وطن، حتى ظهر اليوم حين ذهبت إلى المدينة الكبيرة القريبة من هذا المنفى، فالتقيت صدفة برجل ألقت به السماء في طريقي.

يمر قطار الساعة السادسة للمسافرين ليقاطع حديث ندماء الغربة، ما أحلى أن تسكن قرب سكة القطار وكلما مرّ يجرجر عرباته المحمّلة بآلاف القصص والأماني والأحلام والمسافرة أبداً في رحيل لا ينقطع شمالاً وجنوباً، صاعداً نازلاً مثل مسرى الدماء في العروق، تسافر أفكارك معه وأنت المحروم من السفر منذ عقود، فيحمل جزءاً منك لغاية لا تقصدها، (وقد لا تراها قط)، وهكذا تمسي رجلاً لكل المحطات وكل المدن التي يمر بها قطار المسافرين!

صوت العجلات، بإيقاع رتيب متصل، يقطع صمت الوادي الفسيح بقراه ومدنه الساكنة في دعة وهدوء يسمان الريف في كل أقاليم العالم. احتكاك العجلات بالسكة الحديد يقاطع حديث الحاج مهدي فيوقد لفافة تبغٍ رخيص رطب، يضعها في مبسمه الخشبي المتفحّم، ثم يدس المبسم في فمه الأدرد ويمتص الدخان الغليظ بشوق، عيناه تنظران إلى القطار بغيظ وصبر نافذ. تتكدس الكلمات على شفتيه وهي تلعن في صمت صوت القطار، وحين اقتربت ماكينة القطار من محطة القصبة المجاورة، أطلقت صافرة طويلة حادة، ثم أعقبتها بصفير متقطّع وبدأ القطار يتباطأ استعداداً للوقف، وأخذ صوت العجلات يتلاشى فيرتفع صوت الحاج مهدي ثانية يروي لقاءه بالغريب في المدينة الكبيرة القريبة:

هذا الرجل بعد أن حدثني طويلاً أخبرني أن اسمه عبد الهادي جواد، مردفاً (هل تدري أن أسمي هو عبد المهدي جواد؟)، ثم عاد وأخبرني أن لقبه هو (باب الثلج)، مضيفاً: لم أسمع بلقب مثل هذا قط ولكني فرحتُ لأني عثرتُ على أخي أخيراً ومنه عرفت لقب عائلتي!

أدهشتني قناعته الشاسعة وأثار استغرابي اطمئنانه إلى أنّ ذلك الغريب الذي كان جالساً إزاءه هو أخوه! فسألته: كيف عرفت أنّه أخوك، هل يكفي تشابه الأسماء؟

القلب يعرف، إنه قريبٌ إلى روحي، قريب جداً، أهو قدري أنّ المعارف والعلوم تعجز عن تحديد مثل هذه الأمور؟ حتى لو كان الإنسان عارفاً متعلماً فإنّ علومه لن تسعفه في مثل هذه الموارد.

جاريته في سياحته الفكرية المرتبكة المتقافزة من موضوع لآخر، حيث خيوط ذكرياته يختلط فيها الواقعي بالمتوهم، والحقيقي بالعجائبي، والفلسفي بالخرافي، والسماوي بالأسطوري وسارعت أسأله: هل يشبهك هذا الرجل؟

يا سيدي هذا ليس مهماً، هل يتشابه الأخوة دائماً، بيننا شيء مشترك، شيء لم أجده لدى الآخرين، فهو وحيد يبحث عن أخيه منذ أربعين سنة، عمره يقترب من الستين ولا أهل عنده، هل تدري كيف يكون الإنسان دون أهل، عارياً مثل حصاة ترقد في قعر نهير جاري المياه وحيدة ساكنة في القاع والماء يجري بلا انقطاع.

هل تعني أنّك قررت بنفسك أنّه أخوك؟

أجاب وهو ينفث مزيداً من الدخان الرديء: كلانا فرح بلقاء أخيه، ألا تكفي فرحة شيخين عنواناً للأخوة؟

بعد أسبوع زارني الحاج مهدي في ليلة مطيرة، قرع الباب ودفعه ليدلف دون استئذان وهو يتمتم أدعية وتحاياً غامضة. ما إن جلس إزائي حتى انقطع التيار الكهربائي (التيار الكهربائي في الأرياف غريب الأطوار وفي خصام مستمر في مع عوامل الطقس).

أوقدت فانوساً عتيقاً وعلى ضيائه أخبرني أنّه راحل عن مدينتنا المشوهة الرعناء إلى المدينة التي يسكن فيها أخوه، وأوصاني ألا أخبر أحدا بمقصد سفره، وأعطاني كتاباً عن الأرواح، ثم غادرني على أن يسافر في الغداة ويمر بي ليسلمني مفتاح داره.

في اليوم التالي، وقفت أمام بيتي سيارة حمل صغيرة تحمل أثاث الحاج مهدي، قرع باب بيتي وسلمني مفتاح داره، وسألته لماذا لم يعد المفتاح إلى دائرة البلدية وهم أصحاب الدار؟

فقال: من يدري ربما لا أحب الحياة مع أخي عبد الهادي، وقد لا يكون أخي! ولكن لا بأس أن أجرب وأترك لنفسي سفينة أعود بها إلى شاطئكم الفقير المقفر، لا ينبغي أن يحرق الغرباء الأشرعة ولا أن ينسفوا جسور العودة خلفهم حتى إذا وجد أحدهم شقيقاً له!

حين أقلعت السيارة به، كان الحاج مهدي يبتسم ملء فمه ويلوّح بيده، أتطلع بمفتاح الدار لأجد قطعة قماش من قميص الحاج مهدي الأخضر قد شُدت إليه، أضعه في جيبي وأدلف إلى بيتي وبي رغبة أن أكلم الليلة أخي الغارق في ثلوج شمال أوروبا، لعله ينقذني من هذا القفر التائه.

آراك/ إيران - ربيع 2002

السيد يوسف في فرحة الإفريقيات

عشقتُ يوسف حين عرفتُ قصته وقصتي،
فقد أسماني أبي السيد عبد الأمير باسمه تيمناً لي بالسعد والسلامة وحسن الخاتمة. وعرفتُ من الآخرين أنى جميلٌ فعلاً مثل يوسف الذي عشقته امرأة العزيز ونساء المدينة، فجرّحن أناملهن بسكاكين الفواكه مرهفات الحد كشفرات الحلاقة لشدة ولههن بحسنه.

نلت كل طيبات السفر والحياة المرفهة والمعرفة لكني بقيت محروماً من المرأة، ولم أعرف هذا الكائن الرقيق السحري إلا من خلال والدتي، وكانت امرأة غائبة عن تربيتي، فقد كان أبي هو المبادر إلى تنشئتي وتربيتي وتعليمي، ومن خلال عمتي التي حفّظتني أجزاء من القرآن، لذا أمعن اغترابي عن النساء في تغذية شوقي وخوفي منهن. كان مجرد جلوسي قرب إحداهن وملامسة أطرافها من وراء حجب الملابس والدثر يشعل في جسدي وروحي حرائق بلا نهاية.

وذات لقاء بمنزل ريفي بقرية في البحرين، التفّت حولي النسوة للتبرك بالنسب الهاشمي، كما يفعل الريفيون غالباً، وبتن يقبلن يدي ويتلمسن جسدي وعباءتي بحرارة، فألهب كل ذلك روحي وغدوت حائراً بين الشكر لهنّ والمسح على رؤوسهن ورؤوس صغارهن بأصابعي وبين التملص بجسدي من لمساتهن الباعثة على الغواية...يقول النصارى إنّ المرأة المغرية صنو الشيطان، لكنّ الإسلام لا يقر الرهبانية فلم يستبعد المرأة، أما أنا فكل ذلك لم يكن جزءاً من مشكلاتي بل تركزت جلها في جهلي لما تكون عليه المرأة.

وقد يكون هذا التنائي عن المرأة طبيعياً في مرحلة الطفولة والمراهقة، لكنه بالتأكيد يفوق العادة حين يصل المرء إلى عقده الثالث، لاسيما وأنّ المجتمع يتيح للرجل الزواج بأكثر من امرأة، ولكن ظروفاً قاهرة منعتني عن ذلك، وقد يكون سببها غير مادي، إلا أني لا أستطيع وصفه وليس بوسعي أن أعزوه إلى مسبب بعينه.

وقد يخال البعض أنّ في شكلي خللاً يسبب نفور النسوة مني، وهذا يخالف الواقع، فلقد كنت وسيماً، أشقر الشعر، أشهب اللحية، حنطي البشرة، أخضر العينين وهو أمر نادر في بلادنا، وطالما كان سبباً لانجذاب النسوة إليّ.

ولو استبعدت غياب المرأة المضني، فقد تركت ثلاثة أشياء بصمات رائعة في حياتي، هي الثقافة والنسب العلوي ومولدي رابعاً بعد ثلاث بنات. المولد بعد البنات حسم كثيراً من القضايا لصالحي، فقد ورثت عن والدي موقعه الحوزوي الرفيع، ما مهد لي الدخول إلى عالم المعممين الوعر وتسلق سلم مراتب العلم والدرس بسرعة، فدرست المقدمات والسطوح في حوزة الكوفة بالنجف خلال 5 سنوات مختصراً إلى النصف سنوات درس وتحصيل قد تصل بالبعض إلى عشرات. ثم درست البحث الخارج وهو ما يعادل الدراسات العليا الجامعية في النظم التعليمية المدنية.

علاوة على ذلك قرأت كثيراً من كتب الفقه وعلم الكلام واللغة، وختمت القرآن 10 مرات بقراءات مفسرة، وحفظت أجزاء منه، وتعلمت الإنكليزية بشكل مقبول ومثلها الفارسية، علاوة على العربية قبل أن أبلغ من العمر ثلاثين عاماً، كما سافرتُ كثيراً بحكم عملي كمبلّغ، وهكذا تفتحت أمامي آفاق كبرى للمعرفة والحياة. علاوة على ذلك فقد كان نسبي الهاشمي عاملاً مساعداً بشدة في نجاحي، إذ أينما توجهت يخاطبني المؤمنون بلقب سيد ويجلّون عمامتي السوداء ويهتمون بجدٍ بما أقول.

وحين بلغت التاسعة شرع أبي في تحفيظي القرآن، ولما حلت عطلة الصيف في الحوزة، أرسلني إلى بيت عمتي في ريف عين التمر بكربلاء لتقوم العلوية بتول بتحفيظي سور من القرآن حسب نهجها الذي نجح مع شقيقاتي، حتى أن اختي الكبرى سكينة حفظت كل القرآن وهي في سن الخامسة عشرة، نتيجة زياراتها الصيفية المتكررة لبيت عمتي بتول. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ عمتي بتول كانت مدرّسة في الحوزة النسوية بكربلاء والتي كان مقرها بجوار ضريح الإمام الحسين في عام 1965 بمحلة باب الطاق وقد أطلق عليها اسم مدرسة حافظات القرآن الكريم.

صيف ذلك العام الذي قضيته في بيت عمتي بتول غدا محطةً هامة في حياتي، فقد حفظت خلال 3 أشهر نصف القرآن، وكان لي قصة لابد أن أمر بها هنا قبل أن أنسى، فقد كبرت بذاكرة قوية، لكنّي بت أنسى كثيرا من تفاصيل مراحل حياتي.

القصة جرت حين كنت أحفظ سورة يوسف، فقد استعصت عليّ معانٍ في بعض الآيات، ومنها قوله "إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ"، فهذه الآية تشرح واقع حالي، أبي يحبني أكثر من أخواتي الثلاث، ويقدمني عليهن في كل شيء، هل تكون أخواتي عصبة ضدي كما كان إخوة يوسف، حيث قالوا" اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ"؟ هل يعني هذا أن أخواتي، سكينة وهاجر ونور الهدى سيتفقن على قتلي؟

بهذا السؤال توقفت عمتي بتول عن التحفيظ، ونظرت في وجهي بعمق وهي تسأل: ماذا يجعلك تتحدث بهذا الشكل؟ هل يوجد في بيت أخي عبد الأمير نسوة قاتلات؟

عمتي بتول كانت دائماً تبدو مخيفة بالنسبة لي، فهي نحيفة شديدة البياض تكتسي بالسواد مذ عرفتها، وعمرها يفوق عمر أبي بنحو عشر سنوات، تعيش في بيت جدي بعد أن رحل عنه الجميع، وقد عادت إليه بعد وفاة زوجها، وزواج أبنائها وبناتها الست. تتنقل عمتي بتول بهدوء كأنها شبح يسري في غرف البيت الكبير التي يعمها الظلام باكراً، فالبيت قديم عالي السقوف يتوسط بستان نخيل كثيف، لذا تغشاه الظلال وتغيب عنه الشمس باكراً حتى في أوج الصيف.

وأثناء تحفيظي القرآن، كنّا نجلس دائماً في صالة الضيوف، وهي قاعة شاسعة الحجم تزين واجهتها المطلة على البستان نافذة كبيرة جداً، تمتد من الجدار الأيمن حتى الجدار الأيسر، وعليها مشبك حديدي، يتكون من معينات حديدة، تتوسطها نجوم خماسية لتجمع كل 4

معينات في نقطة واحدة. سعف شجر النخيل يهتز فوق النافذة صيفاً وشتاء، ليطلق صوتاً مخيفاً كأنه همس الجن، رغم أني لم أسمع هذا الهمس، لكن طالما خيل لي أن حفيف سعف النخيل على نافذة بيت جدي يطلق همس الجن الذي كان أبي يصف به كل صوت خافت يتناهى لسمعه.

أشد ما كان يخيفني في بيت جدي هو غرفة المسجد التي كانت عمتي بتول تتعبد وتتهجد فيها، فقد كان الحاجة إلى التبول توقظني أحياناً في جوف الليل فأذهب إلى المرحاض، وحين أمر بتلك الغرفة، كنتُ اشهد عمتي متربعة في وسطها وقد ارتدت عباءة رقيقة مزهّرة من قماش يدعى ململ وجلست تكلم أشباحاً وتبتهل لهم وتناشدهم الظهور سريعاً قبل الفجر، وقد أحاطت بها من أركان الغرف المعتمة الأربعة شمعدانات تنير المكان، فهي لم تكن تحب أن تنير المسجد سوى بنور الشمع. وقد سألتها مرة لمَ تفعل ذلك، وبوسعها أن توقد أنوار الغرفة وتخلص من مشقة ايقاد الشموع وتنظيف مساقط دموعها، ودخانها الذي يلوث الجدران أحياناً، فأجابت أنّ النار في المسجد تحميه من ميون الجن ومؤامرات الأبالسة. وحين سألت أبي عن حقيقة ذلك، ضحك وعلّق مجيباً: استعذ بالله من الأبالسة والجن، فهو الحامي، أما النار فهي لعبة الشيطان الكبير!

وعادت عمتي تقول إن القرآن نفسه نفى مقتل يوسف حين اقترح بعض أخوته: "قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ"، لذا فمن غير المعقول أن شقيقات يوسف الجميل ابن أخيها، سوف يتفقن على قتله، وإن حصل اتفاق فسوف ينحو نفس منحى فعل أخوة يوسف!

تفاقم رعبي لكلامها وصارت الأخيلة تأخذني كل ليلة إلى بيتنا في النجف، فتتراءى لي شقيقاتي الثلاث وهنّ يقدنني عنوة إلى الجنينة المهجورة خلف البيت، ثم يدخلن بي إلى قنّ الدجاج الكبير الذي تتوسطه شجرة زيتون عملاقة، ثم يفتحن فوهة البئر الجاف الواقع تحتها ويدفعنني بقوة حتى يلقين بي إلى جوفه المظلم الرهيب. وقرأت عمتي باقي القصة المهولة بصوتها المرتجف وقد أرخت ملاءتها البيضاء الرقيقة على وجهها فتدلت فوق المصحف في يديها، فتحولت خشيتي إلى كابوس باللونين الأسود والأبيض:

"قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ، فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ، وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ، قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ، وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ".

هاهن شقيقاتي، يجتمعن عليّ ويغرقنني في ظلمة البئر، وليس بوسع أبي ان ينقذني. أليس من حقي أن أخشى النساء، وهنّ سفيرات الشر وحاملات مشاعل الفتنة؟

ولم أستطع قط أن أفهم حقيقة السيارة التي وردت في الآية "وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ"؟؟ لماذا هي سيارة، وأي نوع من السيارات في ذلك الزمان؟ ورغم أنّ عمتي شرحت لي أنّ السيارة هو وصف البدو السائرين في الصحراء، إلا أنّ عقلي الصغير أبى أن يقبل شرحها، وربط كل ذلك بسيارة سوداء تستقلها شقيقاتي هرباً من مكان جريمتهن بعد أن يقذفن بي في جوف الجب.

نمت تلك الليلة بعد أن حفظت تلكم الآيات، ثم أيقظني ابن عمي الأصغر الذي يكبرني بثلاثة أعوام، بعد أن جاء بما ابتاعه من سوق النجف وبينه اللحم، حيث لم تكن عمتي تحب لحم القرية المتهالك العتيق، وهكذا كان أبناء اعمامي يتناوبون التبضع لها كل يوم أو كل يومين. حين أيقظني حسنين كانت الساعة قد شارفت على العاشرة صباحاً، واكتسى وجهه بسمات الخوف فقال وهو يهزني برفق: يوسف، يا يوسُف...أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لماذا تحدق بي هكذا؟ هل أنت نائمٌ أم صاحٍ؟ عيناك مفتحتان مثل عيون سمك في قاع الواحة، ومع ذلك فحواسك قد ذهبت بالمنام!

نهضت مرعوباً وقد أخرجني صوت حسنين من جوف البئر المظلم البارد، فاغتسلت وخرجت معه نلعب ونلهو بدراجته التي لا يقبل أبي أن يبتاع لي مثلها. ثم اقترح عليّ أن نذهب معاً إلى خلف البساتين ليريني شيئاً لم أر مثله طول عمري، فاستأذنت من عمتي، ورافقته على دراجته، حتى خرجنا إلى حافات القرية، حيث لا بيوت، وحيث البساتين تمتد بلا نهاية.

هناك، جال بي حسنين، في أرض عتيقة النخلات، تغشاها ظلال غامضة، ورائحة السبخ تعم بقايا أكواخ وصرائف مهدّمة فيها، حتى وصلنا إلى فسحة من رمال تتوسط جذوع النخل والبرتقال. وسط الفسحة قطعة مربعة من صفيح يؤطرها جريد النخل وقد اسودّ لونه، وقال لي بعد أن ترجلنا: انتظر هنا معي وتأمّل غطاء الصفيح، سترى عجباً لم تشهد مثله!

مساحة الصفيحة وإطارها تبلغ نحو مترين مربعين، وحين تعالى آذان الظهر من مسجد القرية، بدأت الصفيحة تهتز بشكل غريب، قال حسنين: لا تخف، ولا تغمض عينيك، أنظر للصفيحة فحسب!

ومع انتهاء الأذان شرع الماء يفور من العين ويتدفق منحّياً الغطاء، ولبثت أتأمل تلك المعجزة، فصار الماء يتلون بلون أحمر قريب من لون الدم، وهالني كل ذلك، فانتابني الخوف وصرت ارتجف، حتى أمسك حسنين بذراعي وسحبني لنقترب من العين التي أحاط بفوهتها الماء الأحمر، وقال: سبحان الله هذا تجسيد للآية "حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ"، ربما نحن مقبلون على طوفان جديد يبدأ من هذه العين العجيبة.

ثم هدأ الماء بعد نحو نصف ساعة، وصار يتناقص حتى سكن، فتحرك حسنين يعيد الغطاء للعين الهادئة.

حين عدنا إلى بيت جدي، أجلستني عمتي في صالة الضيوف، وشرعت تحفّظني ما تبقى من سورة يوسف، وقرأت بخشوع:

"وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ". هل فهمتَ الآيات؟

كنت مشغولاً باستعراض ما شهدته في العين الغريبة، وانتظر مرعوباً طوفاناً جديداً يغرق الديار ويجتاح الأمم فلم انتبه لسؤالها، وقالت بصوت معاتب: يوسف، أين أنت؟ هل شغلك حسنين بأمر جديد؟

وتنبهت لقولها، فأجبتها بابتسامة أني اشعر بالتعب اليوم، وربما كنت معلولاً واحتاج أن أنام، فجاءت لي بدثار ووسادة، وتركتني أنام في صالة الضيوف، وما برح حفيف السعف على نافذة الغرفة يفاقم اغترابي.

وحين غفوت، أغرقني الماء في حلم كئيب تتراكض فيه ظلال وأشباح وتقاطعه نجوم بيض وسعف يهتز بشدة، حتى أفقت وقد غمر العرق جسدي فكان الغروب قد حل، وشعرت باكتئاب وأنا أرقب أعمدة من نور الشمس تنطبع على جدار الغرفة المقابل للنافذة. هذ النور الشتوي يخيفني ويشعرني بالحزن دائماً، ولا أحبه قط.

عصاني النوم في تلك الليلة، ولا أذكر كيف غفوت، لكن لم يطل الأمر حتى ايقظتني عمتي وهي ترتدي ملالتها البيضاء، وعلى وجهها ملامح شبح، وقادتني بسرعة إلى خارج البيت، كنت أركض معها وفي قدمي نعلا المنزل الاسفنجيان، والشوك يخزّ قدميّ ونحن نقطع البراري، وحين أسألها إلى أين تأخذني في هذا الليل البهيم، تجيبني وهي لا تنظر صوبي: اننا ذاهبان إلى عين هود، وما كنت أعرف أين تلك العين، حتى وصلنا إلى خرائب تغمرها ظلم كالحات، وبقينا نسير بين الخرائب وأصوات الغربان والبهائم تقاطع صمت ليلنا، وحين وصلنا إلى فسحة من الأرض وسط الجدران المهدمة، كانت تلك نفس العين التي زرتها مع حسنين، وما إن شارفنا المنطقة حتى فارت العين وغمر الماء الخرائب وحاصرنا في ثوانٍ، وقالت عمتي: تعال لنقرأ سورة يوسف، إنّه واجبك لهذا اليوم؟ عرقت والماء يطوقني، وقالت اقرأ يا يوسف، واجبك اليوم أن تتم سورة يوسف الذي تتشرف بحمل اسمه...وهممت أن أقرأ، فدب الماء يغمر قدمي، وصار الوحل يمتصني إلى جوف الأرض، ثم اختفت عمتي بتول، وبقي الوحل يجرفني إلى حافة عين هود، وانفتحت العين عن جوف معتم يغلي فيه ماء أحمر كالدم، بل لعله دم يفور في جوف شيطان صامت، وما برح الدم أن ابتلعني، فتهاويت إلى جوف العين ساقطاً لهاوية لا قعر لها، ثم حاولت أن اتشبث بقدمي أينما كان، لأقطع السقوط السريع نحو الهاوية، فتعلقت بشيء لا أدركه، ربما هي نصف قطعة آجر

ناتئة في جدار العين، وكأنّ العين باتت جبّاً مرصوف الجدران، وتعلقت أصابعي بالجدار فلم أعد أهوي إلى الجوف المعتم، وصرت اسمع أصواتاً تناديني من بعيد، وصوت أبي يكلمني وصوت أمي، وشقيقاتي يمسكن بذراعي ليقذفن بي إلى جوف الجب، كان الناس حولي يرتدون أكفانا بيض، ويتجولون بهدوء وفي أيديهم يحملون أشياء لا أعرف كنهها. أقدامهم في صنادل بيض، وتسير على قاع أخضر ناعم شاسع.

اعتذر لأني أسرفت في سرد هذه القصة، وهي بضع من ذكريات طفولتي في المدن المقدسة، لكن ما أردت أن أقوله لكم لا علاقة له بكل هذا، ولا أدري لماذا تتشوش افكاري في بعض الأحيان، ويحدث هذا غالباً حين أكون في حضور النساء.

وعليّ هنا أن اشرح لكم كيف قررت الحوزة ايفادي للتبليغ في قرية كفر حونة بمنطقة جزين جنوب لبنان، لكنّ تفاصيل كل هذا لا تحضر ذاكرتي، لاسيما أنّ المهمة قد ألغيت بسبب المعارك في المنطقة.

وحين بات عمري 30 سنة جاءني ايفاد من جامعة قم في إيران للتبليغ لمدة نصف عام قابلة للتجديد في جمهورية غينيا أقصى غرب القارة السمراء، فرزمت عدتي وسافرت عبر مطارات ومحطات صعبة حتى وصلت الى مدينة ديابي بمنطقة فوتاجالون الواقعة على نهر السينغال في شمال شرق البلد حيث استقر بي الحال في بيت ملحق بأحد المساجد، ووفرت لي بلدية المدينة سيارة مع سائق وحارسين للسفر إلى القرى المحيطة بالمدينة لأداء صلاة الجمعة وإحياء مراسم شهر محرّم ورمضان.

رحلتُ إلى إفريقيا وأنا ما زلت عازباً، وقد شجع هذا القائمين على هيئة الايفاد على قبولي، ولكن لابد من القول إنّ من النادر في العالم الإسلامي بلوغ الرجل الثلاثين من العمر دون اقترانه بامرأة، فالنكاح سنة إسلامية محببة، ومع ذلك فإنّ وصولي إلى هذا الوضع ما برح يتباعد، المرأة تثير فيّ مشاعر محببة ما بقيت بعيدة عني، فمتى اقتربت، تبدلت تلك المشاعر إلى خوف وخشية.

وأرشدني أحد الأصدقاء إلى كتاب "أخبار النساء" فوجدتُ أكثر من كتاب بهذا المعنى، وحولها جدل كبير، لكنّي قرأتُها كلها، وعرفت أسرار هذه المخلوقات الغريبة، فقد عرفت مثلاً ما وصفوه ب "نمط الحب الجاهلي" حيث كان أسفل جسد المرأة لزوجها وأعلاه لعشيقها، كما عرفت "نمط الحب البدوي" الذي يُعَدُّ العاشق الحسّي وفقه طالب وِلْد، وتعرفت على "نمط الحب العذري" الذي يمكن للعاشق وفقه أن يتزوج لكنه يظل مخلصاً لمن أحب حتى لو تزوّج أيضاً. وكشف الكتاب بجرأة أخص تفاصيل حريم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، ناهيك عن بعض الصحابة والتابعين. وتعلمت منه إلى حد كبير كيف أتقي شر النساء وكيف اتجنب غوايتهن.

وحال أن وطأت قدمي أرض غينيا، بدأتُ جولاتي بمساجد وتكايا مدينة ديابي والقرى التي حولها وقد ضعف هاجس خشيتي من النساء، حتى كاد يختفي. وذات يوم جاءتني دعوة من مجلس " ألماميات" بمنطقة فوتا الشمالية القريبة، وكشفت الدعوة أنّ عليّ إحياء عدة جلسات

عزاء في مسجد المدينة، كما أن عليّ إحياء جلسة عزاء في محضر نسوي، وهذه شعيرة لم أمارسها من قبل. وللتوضيح فإنّ منطقة فوتا هي إحدى إمارات غرب أفريقيا وكان اسمها "دولة الإمامية" (أو "ألماميات" كما يسميها السكان) وقد قامت نتيجة للهجرات الكبيرة للفولان إثر سقوط إمبراطورية ماسينا التي شغلت منطقة جمهورية مالي حالياً. وقد تلا تلك الهجرة حملات تبليغ شيعية كبيرة من العصر الفاطمي حوّلت ديانة سكان المنطقة إلى التشيع. وكان عليّ أن اتحرك على النساء وهنّ أمهات اليوم أو أمهات المستقبل، ومن النساء يرث الأبناء غالباً دياناتهم.

وزرت في ليالي الرابع والخامس والسادس من محرم مساجد في المدينة ولفت نظري حجم الحضور الكبير لمحيي المراسم.

وفي الليلة السابعة زرت مسجد فوتا لإحياء أول عزاء نسوي فيها، فهالني أنّ عدد الحاضرات يتجاوز 500 معزّية، وفي عيونهنّ قرأتُ شوقاً لمعرفة ما عندنا لاسيما أنهنّ يعرفن من العربية نسبة لا بأس بها تعلمنها في المدارس والتكايا القادرية المنتشرة بكثرة في تلك الربوع، وهكذا هو الحال في إفريقيا دائماً، فالناس تواقون لكل جديد في الإسلام خاصة.

عرّفتهن بعاشوراء وواقعتها بشكل تاريخي دون أن أوغل في النحيب والبكاء، فهن يجهلن ذلك، ثم كشفت لهنّ أنّ هذه هي ليلة أبي الفضل العباس وتلوت عليهنّ مقطعاً من زيارة العباس قلت فيه: "أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة" وأخذت صفة الوفاء لأبين لهنّ كيف أن العباس، وهو غير معصوم وليس إماما قد فدى الحسين بروحه، ورفض الأمان الذي عرض عليه يوم التاسع ويوم العاشر، حتى وصفت لهنّ قطع يده حيث قال متحدياً: "والله لو قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني"، وحاولت أن انتزع دموعهن من مآقيها بلا جدوى فهنّ يجهلن تلك الحكايات، لكنّي لمحت في عيونهن شوقاً ولهفة عزوتها للوهلة الأولى إلى رغبتهن في التعلم.

وبانتهاء مراسم التعزية، نهضن جميعاً، وتزاحمن حولي وهنّ يرددن بحياء: "مرهبا سيد يوسف، مرهبا سيد يوسف"...ثم تقدمت إحداهن وهي شابة رشيقة مليحة لا يتجاوز عمرها عشرين عاماً، وقبلت يدي بعد أن وضعت بين شفتيها وبين جلدي، جزءاً من فوطتها الملونة، ثم قالت بعربية لا بأس بها:

- سيد يوسف كريم النسب، هل سمعت بالآية الكريمة "فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ"...نحن نراك مَلكاً كريماً، وحاشا أن تكون بشراً، فكن ضيفاً على مائدة عشاءنا الليلة، وقد جاءت كل واحدة من بيتها بقدر فيه من طعام أهلها أو من طبخها.

وسحبتني الصبية المليحة من ذراعي وهي تنظر في وجهي بعمق عينيها الخضراوين، وهي تقبّل ظاهر كفها تيمناً بملامستها لي، والبنات والنسوة حولها قد ضج المكان بصريخهن المكبوت كأنه نواح، إلا أن أعينهن وشفاههن كانت تردد كلمات التبرك والتقرّب وليس كلمات الحزن وصرخات العزاء. جمع النسوة ذاك، قلب ليلة العباس إلى عرس حقيقي،

والعباس استشهد ولم يعرف عنه أنه قد لمس المرأة...هل قصدن ذلك، أم أن في الأمر شيئاً لم أفهمه؟

خارج المسجد، امتد سماط طعام إفريقي بسيط لمسافة تبدو لا نهاية لها، أغلبه من نتاج الأرض، موز ومانجو وفواكه لم أر مثلها، وبامياء مسلوقة وعرانيص ذرة وخيار كبير وصغير وقرع من كل الأنواع بعضه نيء وبعضه مطبوخ، وكمأة وفطر مطبوخ، وطماطم من مختلف الألوان والحجوم، وصحون من الأرز بيضاء وحمراء وصفراء، إلا أنّ الغائب عن السماط العاشورائي الإفريقي كان اللحم بأنواعه والسمك والدجاج.

وأجلسنني في صدر السماط، ثم جلسن تباعاً على امتداده، وحين شرعنا بتناول الطعام، ما برحن يتبادلن الأماكن، فالبعيدات يقتربن مني، ويأخذن مكان القريبات، وهكذا حتى انتهينا من أدامنا، فنهضت لاغتسل، ونهضن جميعهن على عجل، ثم قادتني القريبات منهن إلى مكان خلف صف من الأشجار، واقتربن بي من بقعة مظلمة، ثم أمسكن بذراعي، وكشفن عن فوهة بئرٍ وصرن يسحبنني إلى فوهة البئر، وفيما اجتاحني رعب ليلة سقوطي في عين هود قبل أكثر من عقدين، صارت أصابعهن تعبث بجسدي، وتمزّق عباءتي وجبتي، وتمسك بخناقي بشدة، وهن لا يفلتن ذراعي، وصرت استغيث وما من مغيث، والنسوة القاسيات يسحلن جسدي على الأرض نحو فوهة البئر، عيونهن يتطاير منها شرر الشهوة، وأصابعهن تقبض بشدة على كل أجزاء جسدي، حتى خلت أنه لم تبق منه مساحة لا يلمسها أنمل امرأة... وبلغن بي فوهة الجب، فدفعن بي لأسقط عميقاً في عتمة جدران كساها الاسمنت، ولا شيء يتلقف جسدي الهابط إلى هاوية لا قعر لها، هل هي النهاية، هل أغرق في هذا البئر أم سينقذني مَلك يظهر فجأة، أم سألمس القاع لأمكث فيه حتى يمر بالجب سيارة ينتشلوني منه كما جرى مع يوسف الصديق؟

ولم ينته كل هذا، حتى لامست قدماي قاعاً أملساً أحمر اللون بلون الدماء، ورأيت الملائكة يتشحون بالبياض وهم يتراكضون في الأرجاء بلا هودة، وأصوات عالية تصم الأذان تهز أرجاء المكان، هل وصلت قاع البئر؟ لا فأنا أواصل السقوط في هاوية البئر، لكني أراهم يتحركون خارج جسدي وخارج عالمي، وهم منهمكون في البحث عن أشياء لا أعرف كنهها. بين الأصوات اسمع أذانا، ففاض الماء وغمرني، ولم يختف الملائكة، الماء يختلط برائحة الظلمة، والعتمة تردد صوت الأذان، كأنه طوفان عين هود، يجتحني في غربة افريقيا. عيون النسوة الخضراوات تصطادني على جدران البئر فيما يتصل سقوطي في العتمة بلا هوادة.

ودون أن أقف، وفي ظلمات مريبة، خاطبني صوت غريب: سيد يوسف ألا تريد أن تنجو من الهاوية، ألا تريد أن نخرجك من البئر؟

تلفتُّ علّني أعرف مصدر الصوت، فلم أر سوى جدران بيضاء تعلوها قضبان مشبكة تحتجز خلفها نوافذ عالية، كانت الشمس تتسلل من بين القضبان، إلا أنّ عتمة البئر ما برحت تلفني، والأصوات والعيون الخضر تجتاحني، كنت انتظر سيارة البدو لتنقذني، إلا

أني لمحت عمتي بتول بين الوجوه وهي تنظر نحوي بشحوب الموتى، ولمحت عيون أبي، وفوطة أمي، وخاطبتني الفوطة وهي تهتز قائلة: عد إلى بيتك يا يوسف فقد أعددنا لك عروساً.

وهالني أن تتحدث فوطة أمي المتربة عن عروس ستعد لي مرة أخرى نهاية معتمة في جب لا قرار له، هالني أنّهم يريدون انقاذي من الجب ليلقوا بي في تهلكة النسوة من جديد.

"قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ، قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ"، وقضيت في الجب سنوات طوال، وما زلت فيه، غيلان النساء تصارعني ليل نهار، والأرضية الملساء الحمراء لا تفارق قدمي العاريتين، ورغم ذلك يتصل سقوطي وهمس الجن يجتاح أيامي وليالي عمري المتهاوي.

ملهم الملائكة / شتاء 2020 – عام كورونا

أنا وصالحة تحت أعلام الحرية

لا يتذكر ميثم كيف عرف زميله وصديق عمره الأسمر القصير، لكنه يتذكر بوضوح أول يوم جمعهما في المدرسة على الرحلة الأخيرة في الصف الأول بمتوسطة الحرية. أما أنا فأتذكر كيف اجتمعت به في ذلك اليوم، فكلانا معيدان للسنة، ولذا وضعنا المدرس نوري تكساس، أستاذ اللغة الإنكليزية، لنجلس معاً على الرحلة الأخيرة باعتبارنا كسالى، وكي لا نصيب الطلبة بوصمتنا الفاشلة.

قبل أن يبدأ العام الدراسي الجديد، توثقت علاقتي بزائرتي الليلية "صالحة"، وكانت تتسلل كل ليلة إلى غرفتي بعد أن يأوي الجميع إلى النوم، لتقف منتصبة بكامل رشاقتها عارية أمامي، وترقص لي حتى أخلد إلى النوم. تلكم الرقصات كانت مساحة بين الحلم واليقظة تهتزّ فيها روحي في مدخل سنوات المراهقة العطشى حيث كل شيء يرتبط في وعي الانسان باكتشاف الجسد وحاجاته النارية، وباكتشاف الوسائل التي تصنع الحياة.

في تلك الليلة، رقصت صالحة متلبسة جسد راكيل والش الرشيق الشهي العاري. راكيل كانت نجمة سينما صاعدة صورتها دائمة الظهور على أغلفة مجلات الشبكة والموعد اللبنانية، كما كانت أفلامها تغزو صالات سينما النصر والخيام. راكيل كانت الوحيدة التي تكشف ملابسها أكثر مما تخفي من جسدها الساحر، وهكذا كانت ترقص صالحة، فهي عارية دائماً سوى من فستانها الأصفر الأبيض.

على كل حال، لا أحد بوسعه أن يوثّق إن كانت صالحة، أفعى مؤنثة، أم أفعوان مذكر، فهي حيّة ربت في البيت من أزمنة غابرة، وطالما قالت لي أمي إنها كانت تسكن قبو "نه نه علي" وتلتف في ظهاري الصيف على جرة مائها المنتصبة دائماً قرب فراشها في السرداب. ولم أفهم حتى الآن من تكون "نه نه علي" بالنسبة لي، لكني أرى آثارها فيما حولي، واسمع قصصاً عنها. ومن المفارقات، أن غرفتي الطويلة العجيبة، تستقر فوق ما كان سرداباً تسكنه العجوز التي لم أرها. ثم ردم ذاك السرداب، وشيدت فوقه أرضية غرفتي لتصبح جزءاً من حوش البيت الفسيح، وبعد سنوات متطاولة شيدت غرفتي لتحتل تلك المساحة.

حين تسللت الحية، التي يدعوها الجميع "صالحة"، أول مرة إلى غرفتي، كنتُ راقداً شبه عارٍ على فراشي، وأنا اتصفح بضع مجلات ذات ظهيرة ساخنة، وقد جمدتُ خوفاً حين رأيتها عن كثب بجلدها الأنيق بلونه الأصفر المبيّض، وهي مستلقية في زاوية الغرفة تحت نافذة عليّة الكتب المجاورة لغرفتي. تحركت من رقدتي، فجلست في سريري متحفزاً للقفز باتجاه باب الحجرة للفرار، لكنّ صالحة رفعت رأسها من رقدتها ووجهت نحوي نظرة فاحصة متأنية دون أن تخرج لسانها. وتذكرت كل الحكايا التي رواها أهل البيت عن صالحة وصداقتها للجميع، فهدأت هواجسي بعض الشيء، وتحول خوفي إلى فضول

لمعرفة رد فعلها على التعرّف بي، فمكثت رافعة رأسها تتأملني، ثم عادت ترقد في زاوية الجدار، فنهضت بهدوء من سريري، واقتربت بحذر منها متفحصاً هذا الكائن الساحر الجميل الغامض. تقلص جسدها وأنا أقترب منه، لكنها لم تبد أي حركة، فتوقفت على بعد نحو نصف متر منها، ومكثت أتأمل جمالها الأخّاذ. ثم خطر لي أن استضيفها، فغادرت غرفتي بهدوء، وجئت من المطبخ بصحن فيه ماء بارد، وقطع لحم صغيرة من كباية شام مقلية فللتها وجئت بحشوتها فوق صحن شفيف صغير. اقتربت بحذر من رأسها، فرفعته متحفزة وهي تنظر لي بإمعان، فوضعت الصحنين أمامها، وانسحبت بهدوء إلى سريري لأجلس مرة أخرى فوقه وأرقب هذا الكائن السحري.

بقيت رافعت رأسها وهي تنظر إلى الصحنين، وتلتفت باتجاهي، ثم انسابت متقدمة نحوهما، وبدأت تشرب الماء بهدوء، ثم عدلت وضعها، وباتت تأكل اللحم من الصحن الآخر. وهكذا قامت بيني وبينها صداقة وثيقة، حتى بات أهل البيت يتحدثون عن غرفة الأفعى في إشارة إلى حجرتي، ولم يعد أحد يجرؤ على زيارتها بغيابي وهذا ما أجبرني على أن اتولى تنظيف الحجرة بنفسي، ثم خطر لي أن آتي لصالحة بتُنكة "جرة" ماء قديمة، لتكون لها مستقراً، وفعلا جئت لها من بيت ميثم بجرة أنيقة، يؤطر خوص النخيل ذراعيها، فيما صُبغ قاعها بلون تركواز. ملأتها بالماء ثم وضعتها في زاوية الغرفة المقابلة للزاوية التي يمتد من عندها سريري، بحيث يواجه كلانا باب الحجرة. بعد أيام صارت صالحة تقضي أيامها ملتفة على الجرة الباردة، ولم تعد تغادر الغرفة إلا نادراً. ومن هذا التاريخ، بدأت هداياها الراقصة لي، كل ليلة تتوسط الحجرة، وتبدأ في الرقص وقد تلبست جسد إحدى الإناث اللواتي كنت أشاهدهن في السينما والتلفاز والمجلات. وكأنها تقرأ أمنياتي فتتجسد في إحداهن لأقضي ليلتي مستمتعاً برقصات صالحة المثيرة.

وابتدأ عامي الدراسي الثاني في الصف الأول متوسط، ولم أكن خجلاً من إعادة العام الدراسي في نفس الصف لأنّ أمي نقلتني إلى متوسطة الحرية في الكرادة الشرقية وكانت تشغل بناية بيتٍ متعدد الغرف، متعدد السراديب، متعدد السطوح والساحات والممرات، يرتكن شارع مشفى الراهبات من جهة أبي نؤاس، مطلاً بكل فخر على نهر دجلة، وحظي المدير بغرفة أنيقة فسيحة بواجهة البيت الكبير تطل على النهر، فبات مدير متوسطة محظوظ مدلل.

الكل يرددون أن البيت كان مركز شرطة، ويبدو أنّ هذا صحيح، فقد بات مركز شرطة بعد الواقعة الرهيبة التي حلت بأهله، وعرفت فيما بعد تفاصيل ذلك اليوم الدامي من قصة روتها لي خالتي، فالبيت في الأصل يعود لثري يهودي عراقي اسمه شفيق عدس، أعدم شنقاً بتهم ملفقة عام 1948، بعد أن هاجر من هذا البيت إلى البصرة حيث بات من كبار تجارها، وكان وكيل لشركة فورد للسيارات ومقرها على شاطئ العشار، وكان شريكه في التجارة الثري المعروف ناجي الخضري. وطالما أثارت تلك الحكاية فيّ الفضول، لاسيما أن أحد بيوت ناجي الخضيري يواجه بيتنا الكبير في شارع أبي قلام، لكني لم أستطع التأكد من القصة، لأنّ بيت الخضيري الذين يفصله عن بيتنا 30 متراً وجاهاً، لم يكن عندهم صبي في

مثل عمري، يمكن أن اتقرب منه لأعرف سر الحكاية. وهكذا بقيت أحلم بالتاجر اليهودي عدس وهو معلّق في البصرة وبيته ينهبه الناس في الكرادة الشرقية ببغداد فيما عُرف بالفرهود بحق يهود العراق في ذلك العام.

والحقيقة أن متوسطة الحرية، بقيت بالنسبة لي حتى اليوم لغزاً محاطاً بالغموض، فهي واحدة من سلسة مبانٍ ثقافية متجاورة احتلت تلك المنطقة في الكرادة، إذ تلاصقها من جهة أبي نؤاس بناية عليها يافطة بعنوان "مدارس الإمام الجواد" لكني لم أرها مفتوحة قط، وطالما حيرتني نوافذها الزرقاء المغلقة الواطئة المطلة على الشارع، وطالما سمعت من أصدقائي في المنطقة، أنّ صاحب هذه المدارس هو ثري عراقي من أصل إيراني، لكني لم أعرف قط من هو.

والتصق بمبنى مدارس الإمام الجواد الغامضة، بامتداد كورنيش الكرادة الأنيق، مبنى المركز الثقافي الفرنسي، الذي كان ينشط مساء حيث لا نكون في مدرستنا. وهو مبنى استأجرته السفارة الفرنسية من عائلة مسيحية سكنت المنطقة منذ سنوات طويلة، ثم هاجرت العائلة إلى أمريكا، وعاشت من قيمة إيجار البيت الأنيق الباذخ، كما كان أصدقائي في المنطقة يتهامسون في المغارب التي تجمعنا على نواصي الطرق ونحن نتسامر بأسرار الكرادة الغامضة، حتى نتفرق ذاهبين إلى بيوتنا.

وما أن بدأ العام حتى تطوعت، ضمن عدة متطوعين آخرين، لإدارة حانوت المدرسة الطلابي، وهي وظيفة تدور على المتطوعين بحيث يتفرغ كل منهم مرة في كل شهر لإدارة الحانوت يوماً كاملاً. وهذا يعني أنه سيكون يوماً مدرسياً خالياً من الدروس. وفي المرة الأولى التي شملتني فيها تكاليف هذه الوظيفة، تحتم عليّ أن أعد سندويتشات العنبة، واصفّها في علبة كارتون، كما تحتم عليّ أن أضع قناني سينالكو الألماني بلونيه الأصفر والبرتقالي في حوض معدني كبير، وأكسر قالبي الثلج فوقهما لتبردهما، ثم أوزع قطع الكيك المدورة الصغيرة على صناديق البيع فوق منضدة مواجهة لنافذة الحانوت، كما توجب عليّ أن أحصي عدد المماحي والمقطات والأقلام المصفوفة في علب على منضدة البيع لأعرف كم سأبيع منها. كل هذه الاستعدادات تتم حتى حلول فرصة الدرس الثاني حيث نفتح ساعة البيع.

قرب نهاية ذلك اليوم المزدحم بالعمل، وبعد أن سلمت حساب وأرباح الحانوت إلى معاون المدرسة، اكتشفت نافذة زرقاء في قبو مدارس الإمام الجواد الملاصقة لنا، تواجه نافذة الحانوت الواقع في قبو مدرستنا. واستطعت أن افتح ظلفة النافذة بسهولة، لأدلف إلى قبوٍ مليء بأشياء مدرسية، كتب دينية لا تشبه كتبنا، مصفوفة في رزم كبيرة مغلفة، دفاتر تحمل صور مرجعيات دينية غامضة طالما سمعت بها، نسخ كثير من قرائين بحجوم متباينة، عشرات الأعلام المنوعة المختلفة، ومعها بيارق حسينية ملونة كثيرة، وقدور جديدة كبيرة لطبخ عاشوراء. استغرقت نحو نصف ساعة وأنا أتجول في ذلك المخزن العجيب، ثم سمعت حارس المدرسة يجمع مضارب كرة المنضدة وكرات السلة وكرات الطائرة

وشبكتها، ويكنس الساحة كي يقفل باب المدرسة، فغادرت القبو العجيب مسرعاً بعد أن واربت النافذة الزرقاء بحيث تبدو مغلقة ثم خرجت من المدرسة بعد أن ودعته.

في اليوم التالي رويت لميثم قصة اكتشافي الهام، واتفقت معه أن نكرر زيارة القبو العجيب معاً لنكتشف العالم السحري الغريب. وعند نهاية اليوم الدراسي، تسللنا إلى القبو من ظلفة النافذة المواربة، وبقينا نستكشف تلك المخزونات الثمينة ونحن نبحث عن معدات رياضية قد يمكننا "استعارتها" ثم اعادتها لاحقاً إن سنحت الظروف!

ولم نجد ضالتنا الرياضية، لكنّ أعلام الدولة العراقية استوقفتنا، فقد عثرنا على أعلام العهد الملكي، ومنها علم الاتحاد الهاشمي القديم بألوانه الأفقية، من الأعلى الأسود فالأبيض فالأخضر، وبزاويته اليسرى مثلث أحمر مبتور الزاوية وتشغله نجمتان ثمانيتان بيضاوان تمثلان المملكة العراقية والمملكة الأردنية الهاشميتان. ثم عثرنا على علم ملكي آخر يحمل نفس الألوان، لكنه يخلو من النجمتين البيضاويتين، ثم وجدنا كثيراً من أعلام الجمهورية، وهو علم الزعيم الذي كان يزين كتبنا ودفاترنا المدرسية في المرحلة الابتدائية، بألوانه العمودية الثلاث من اليمين الأخضر، ثم الأبيض ثم الأسود، وتتوسط العمود الأبيض شمس ثمانية متعددة الألوان وفي وسطها كتب "الجمهورية العراقية 14 تموز 1958". ثم عثرنا على نسخ كثيرة من العلم الجديد، بألوانه الأفقية من أعلى اليمين، الأحمر، ثم الأبيض في الوسط، ثم الأسود في الأسفل، وتشغل مساحة الوسط الأبيض 3 نجمات ترمز للوحدة المنتظرة بين العراق ومصر وسوريا. بعض تلك الأعلام كانت صغيرة ترتبط بعيدان خشبية صغيرة، وبعضها كبيرة جداً مزركشة الحافات وتحملها ساريات معدنية مذهبة أنيقة. وقررنا أن نستعير 4 اعلام صغيرة بعيدانها، واخترناها منوعة من مختلف الأزمنة. ثم غادرنا بغنيمتنا، وأغلقنا النافذة، وربطها ميثم بقطعة سلك كهربائي أخفاه بعناية، بحيث يبدو الشباك مغلقاً من داخله.

عصر يوم الخميس الذي تلا واقعة الأعلام، نزلنا أنا وميثم على دراجتينا الهوائيتين إلى حافة دجلة الرملية وقد علقنا الأعلام على مقودي الدراجتين، فباتت تخفق مرفرفة ونحن نسابق ريح الشاطئ المحملة برائحة الماء والرمل والسمك. وصلنا إلى مساحة مائية تقطع الشاطئ الرملي، فارتحنا جالسين على إحدى حافاتها اليابسة، وكانت يخوت وقوارب الصيادين، تمخر النهر تباعاً أمامنا، فانتزعنا الأعلام وصرنا نلوح بها بقوة لركّاب اليخوت، وهم يغنون ويرقصون احتفالاً بالخريف الذي جاء بالبرد لبغداد ودجلة، فردوا علينا التحايا ملوحين بأكفهم. ثم انصرفنا إلى لعبتنا المفضّلة، وهي رمي الحصى ليتزلق على الماء، وكنّا نحصي من يستطيع أن يحقق أكبر قفزات بحصاته المنزلقة فوق الماء، وتطور الأمر إلى رمي الحصى لينزلق على مساحات الغرين الزلقة المغرية.

حين أفَلت شمس ذاك الأصيل إلى الغروب، افترقنا، فالتقطتُ من الشاطئ قطعة غرين شبه مستطيلة رقيقة وملساء وجميلة كأنها لوح شوكولاتة أنيق سميك يعبق بعطر رمل الشواطئ الذي لا يشبهه عطر، ثم وضعتها في كيس ورقي جرفته الريح وعلق بنباتات الضفة، وعقدت الرزمة بأحد الأعلام الأربعة، حيث ترك ميثم أعلامه معي خوفاً من أبيه، وربطتها

على سيبايه دراجتي. كانت هذه هدية صالحة لتؤنسها وهي ترقص في غرفتي هذه الليلة. صالحة تعشق السطوح الملساء الباردة في الصيف.

في البيب أخبرني خالي أن رفع العلم السابق الملغي جريمة يعاقب عليها القانون، فكيف وأنا ارفع أعلام العصر الملكي الذي غيرته الثورة إلى جمهورية! وبعد أن استوضح مني حول كيفية حصولي على تلكم الاعلام (والذي اجبت عنه بكذبة مصنوعة بسرعة الحاجة) حذرني من مغبة هذا، تحت طائلة عقوبات متوقعة مخيفة قد تصل إلى الإعدام! وهكذا جمعت الأعلام الملونة، وجئت بها إلى غرفتي لأرفعها فوق جرة صالحة، وباتت زاويتها تزينها أعلام صغيرة تعود لعصور الدولة العراقية المتحاربة.

بعد أن هدأ البيت، وهجع أهله الى أسرتهم، أويت إلى غرفتي، وشغلت الراديو الترانزستر الروسي الثقيل الكبير على محطة "صوت أمريكا" كما أفعل كل ليلة، وبقيت في سريري اتصفح مجلات لبنانية ومصرية. حتى أطفأ أحد سكان البيت ضوء الحوش الداخلي فعمّه الظلام، وبات الضوء المتسرب من غرفتي الصغيرة الطويلة هو الوحيد المتقد في البيت.

وكما في كل ليلة، انزلقت صالحة، هادئة ناعمة ملساء متألقة متأنقة بثوبها اللماع بلونية الأصفر والحليبي من مرقدها الدائم حول الجرة إلى وسط الغرفة وشرعت تؤدي رقصة جديدة لا تشبه رقصاتها السابقة، وسحرتني حركاتها لدرجة شعرت فيها أن الحجرة تشاركها تلك الرقصة الغامضة، أهي فرحانة بالإعلام الحائرة التي علقتها فوق جرتها؟

وعلى كل حال لم تكن غرفتي حجرة طبيعية، فمساحتها متران ونصف عرضاً فيما يبلغ طولها 5 أو 6 أمتار، ما يجعل شكلها مضحكاً. جدارها الأيمن يتوسطه شباك كبير بقي من عصر اطلالة العلية على حوش البيت الفسيح، يطل على حجرة أخرى، صغيرة يصعد لها المرء عبر حجرة الطعام، المرتبطة بحجرة الاستقبال. جدران هذه الحجرة الصغيرة هي عبارة عن رفوف مزدحمة بمجلات، المصور والاثنين وصحف الاخبار والأهالي وعشرات الكتب والكتيبات بلغات عدة. وبين هذا الركام من الورق، كانت تنام خادمة البيت الإيرانية الراحلة "نه نه إسماعيل" وما زال سريرها يتوسط الغرفة العجيبة.

أما الجدار الأيسر لحجرتي فيتكئ على جدار غرفة كبيرة من البناء الجديد. وظهر الغرفة جدار يبلغ سمكه نحو متر، مصنوع من الأجر الطيني، المطعم بأعمدة خشبية، والمبيض بالنورة المصفرة، وهو الجدار الذي يفصل البيت عن بيت الجيران. باب الغرفة خشبي أخضر، فوقه شباك معدني مطلي بالأخضر لا تفتح ظلفتاه قط.

في الحقيقة كانت غرفتي هي الرابط بين البيت القديم والبيت الجديد. ويتصدر الجزء القديم البيت الكبير بعد الجنينة التي تستهل مدخله، وهذه بحد ذاتها قصة. وقد بني هذا الجزء على مرتفع من الأرض يعلو الجنينة بثلاث درجات. ويحتوي على 4 حجرات، اثنتان على اليمين والأخريان على اليسار، ويمر بينهما مجاز فسيح يتجاوز عرضة 4 أمتار. كل الغرف والمجاز مشيدة بسقف من الآجر يتخلله الشيلمان (وهو تعريب لاسم شركة بريطانية

Shellman كانت تورّد أعمدة البناء المعروفة بهذا الاسم إلى العراق). في هذا الجزء يسكن جدي، وتقابل غرفته غرفة ضيوف كبيرة.

بعد هذا الجزء القديم من البيت، بُنيت في حوش البيت الخلفي وعلى مراحل زمنية متفاوتة غرف متعددة، بلغ مجموعها 4 حجر كبيرة، ومطبخ ومخزن مؤونة وحمام ملحق به منزع، ومرحاض، وقن دجاج في جنينة خلفية بعيدة لا يشغلها سوى شجرة توت عملاقة، وشجرة زيتون متوارية في قن الدجاج. بين المجموعتين بنيت غرفتي المستطيلة التي أضحت مأوى الأفعى واعلام العراق، وأصبحت رابطَ وصلٍ بين البيت العتيق والبيت الأحدث منه.

ثم عاودتُ مع ميثم الغارة على مخزن مدارس الإمام الجواد، وجئت هذه المرة ببيارق حسينية كبيرة ذات صولجانات تتوجها أكف العباس، علاوة على رايات عراقية شُدت إلى ساریاتٍ نحاسية وتتوجها تيجان المملكة الهاشمية. ونشرت كل البيارق والرايات والأعلام على جدران غرفتي، كما رفعت بعضها فوق جرة صالحة، فبات مكانها كأنه صحن امبراطوري فخيم.

وحين حلّ الشتاء، اختفت صالحة ذاهبة إلى سباتها الطويل، ولم تعد غرفتي مسرحاً لرقصاتها المؤنثة المثيرة. وفي عيد الميلاد في شتاء ذلك العام، عرفت الأرمنية الجميلة آنا، والتي كانت بعمري، وانعقدت بيننا صداقة اقتصرت على الوقوف معاً في باحة العمارة التي تسكنها عائلتها ونحن متواريين عن الأعين. ولم ترض آنا أن تخرج معي، وقد بلغتُ الرابعة عشرة من العمر، حتى سرقت ذات يوم سيارة أبي وعرضت عليها أن ترافقني في جولة شباطية بمدينة بغداد. وهذا ما كان، ولأني لم أكن سائقاً محنكاً ولأنّ معرفتي بقوانين المرور كانت شبه معدومة، فقد خفت أن أغادر شارع أبي نؤاس المتاخم لبيتينا، وهكذا اقتصرت جولاتنا في تلك المغامرة على الكورنيش الجميل، ولم أجرؤ أن أصل إلى بدايته عند مدخل شارع الرشيد، خوفاً من شرطة المرور، لذا كنت أستدير راجعاً من الفتحة المقابلة لفندق بغداد من جهة الكورنيش، لأصل مع صديقتي حتى نهاية أبي نؤاس المعبدة آنذاك بمدخل الجسر المعلق الجديد في مطلع منطقة الزوية التي تطورت فيما بعد ليصبح اسمها الجادرية.

حلّ الربيع، فاقترب العام الدراسي من نهايته، ودار الحديث عن قرب انتقال مدرستنا إلى مبنى آخر ثم تطوّر الحديث إلى قرار صدر عن وزارة التربية بإلغاء المدرسة بالكامل ونقل الطلبة والمدرسين إلى مدارس أخرى. وحين أنهينا الامتحانات النهائية ارتقينا أنا وميثم إلى الصف الثاني، ثم حُلّت المدرسة ونقلنا إلى مدارس مختلفة وكان هذا الانتقال فراق بيني وبين صديقي ميثم حتى التقينا مرة أخرى بعد سنوات، في ثانوية أخرى بعيدة عن منطقتنا. وبقي مبنى المدرسة خالياً لنحو سنة، ثم رُفعت عليه

يافطة كتب عليها "مديرية تربية الرصافة - مخزن المواد المدرسية" ولم نعرف حقيقة ما يحتويه المبنى.

تغيرت المواسم، وحين حلّت العطلة الصيفية، لم تظهر صالحة في حجرتي قط، وبقي صحنها الامبراطوري مهجوراً رغم حرصي على ملأ الجرة بالماء، ووضع صحن طعام وطاسة ماء بارد أغيّر محتواها يومياً حيث اعتادت أن تأكل. يبدو أنّ صالحة هجرتني بسبب دخول آنا في حياتي، وقيل لي أنّ الحية قد تعشق رجلاً، لكنها لا تقبل أن تشاركها أنثى أخرى هذا العشق، وسوف تنتقم من الأنثى المنافسة مهما تقادم الزمن على ثأرها المكنون.

أبو مجيد بين حياتين

يناديه الجميع بكنية "أبو مجيد" حتى نسى الناس اسمه، وغابت عنهم تفاصيل حياته. أسمه حميد ويملك عدة مصالح ومحلات في بغداد، ويعرفه الناس بقامته النحيفة القوية القصيرة وبشعره الملتصق برأسه الصغير وهو يدهنه كل صباح بدهن ياردلي.

بدأ حياته صانعاً في محل للخراطة نشأ تواً في شارع الشيخ عمر، المنطقة الصناعية الأولى في بغداد، وكانت مكائن التورنه والفريزه التي احتلت زوايا المحل الفسيح ذي النوافذ الواسعة محط إعجاب الزبائن والمنطقة برمتها. هناك تعلّم حميد خفايا العمل، ومعها تعلم أسرار الأمسيات البغدادية المفعمة بالحنين وهو يقضيها متلمساً حدود الحلم وحدود الواقع.

ولم تنته علاقة حميد بهذا المحل قط، فحين بات في الرابعة عشرة من عمره، عرف بيت الأسطة صبحي صاحب المحل في محلة عكد الكراد بشارع الرشيد، وعرف أهل البيت وهو يذهب كل يوم إليهم ليأتي بطعام الغذاء للعاملين في تورنه "الرافدين"، وكأنّ صاحب المحل قد تعاقد مع صنّاعه على التشغيل والإطعام. وحتى في الأيام التي لا يأتي فيها الأسطة صبحي إلى المخرطة وهي نادرة ومعدودة، كان الطعام يفد إلى المخرطة من بيته على يد حميد.

حين بلغ حميد العشرين من عمره، عشق ابنة أسطه صبحي الوسطى فريال وعشقته، لكنه عشق ينتمي لخمسينات الأزقة البغدادية المعتمة، عشق صامت لا يتجاوز بضع كلمات في اليوم، يستلم بعدها حميد قدور الطعام ويذهب بها إلى الورشه لتبقى هناك حتى اليوم التالي فيعود بها حميد في نفس الوقت، ليستبدلها بقدور مملوءة بلذيذ الإدام وخبز تنور البيت الشهي.

وبنى الأسطة صبحي بيتاً كبيراً في حي دراغ بالمنصور، وحين تم البناء وحانت لحظة الانتقال إليه، كان حميد معهم في الطريق إلى حياة أخرى، فكان يداً عاملة نشيطة وعقلاً راجحاً يأتي بالشاحنات وعمال التحميل لينقل الأثاث، وكان معهم حين أمسى جزءاً من نسيج البيت، فقد خطب فريال من أبيها في نفس هذا الوقت الحاسم، وقرر الأب لهذا السبب ألا يبيع بيته في عكد الكراد، بل منحه لفريال وحميد ليكون عش سعادتهما الزوجية الأول.

في أعماق زوجها، لمست فريال ميولاً لم تفقهها لكنها تميل إلى تعريفها بأنها مشاعر كراهية غامضة وحقد دفين. ولا تبين هذه المشاعر الدفينة إلا حين تنفرد فريال برجلها في فراشهما الهني، في تلك اللحظات المغرقة بالأنفاس اللاهثة والعرق الغزير تدرك فريال دائماً أن حميد ليس حَملاً مطيعاً تربى في حظيرة الأسطة صبحي، بل فيه نزوع إلى القسوة والاحتقار لا تستطيع تفسيرها.

فريال لم تعرف في حياتها رجلاً غير حميد، لذا رأت فيه تجسيداً لكل الرجال وأدمنت مشاعر الحقد والكراهية والقسوة التي تبدر عنه وعاشت معها، وباتت جزءاً من علاقتهما الزوجية وحتى الاجتماعية التي أثمرت صبياً في البداية اسموه مجيد لأنه ولد بعد الانقلاب العسكري الذي اطاح بالعائلة المالكة في 14 تموز 1958، وهي مناسبة ما برح الراديو يسميها "تموز المجيد" فعقد الجد صبحي العزم أن يستعير العبارة الأنيقة ويسمي حفيده الأول مجيداً تيمناً بتموز الفياشة والفخر الجديد. وتوالى الأبناء في بيت حميد، فصاروا اربعة وختمتهم بنت.

بعد قيام الجمهورية، عاش البلد انفتاحاً اقتصادياً وعمرانياً كبيراً، واختار حميد تلك اللحظة التاريخية ليُطلق لنفسه مشروعاً جديدا مستقلاً عن سلطة الأسطة صبحي، فتعاقد مع شركة Geared التي شاركت في معرض 14 تموز التجاري الدولي الأول واستورد منهم تورنه كبيرة اوتوماتيك مع ماكينة فريزة وملحقاتهما وكل ذلك بالتقسيط بضمانة مكتب عبد علي الهندي الذي يشرف على العلاقات مع الهند ومصانعها وشركاتها. وعندها أخبر استاذه صبحي أنه سوف يستقل بالعمل في ورشة لوحده، وهذا ما جرى بعد شهر، فقد وجد لمشروعه محلاً في شارع جديد خطته حكومة الزعيم قاسم اسمه شارع 72 بمنطقة كراج الأمانة على حدود كمب سارة بأطراف بغداد المتنامية بسرعة. وبعد سنة صار الشارع منطقة صناعية وبات يعرف بشارع الصناعة، وهي نقطة تحول هامة في حياة حميد المهنية لأنّ العمل تدفق عليه لدرجة أنه كان يؤجل مواعيد الزبائن لمدد تصل أحياناً إلى شهرين، وهذا يعني ضمانة استمرار العمل في الورشة الفتية.

وبات حميد أسطه من العيار الثقيل، ولم تعد ملابسه تتسخ بشحوم وبلايس المكائن في الورشه النشيطة، فهو مشرف مهندس للعمل ويقوم الأسطوات والصناع بكل شيء. ومع هذه النقلة، نال حميد مساحة حرية لم يعهدها، فنمت في نفسه مشاعر القسوة والاحتقار الدفينة، وهو يداريها بحسن تعامله مع الزبائن ومع العاملين عنده في الورشة، لكنه بات يشعر أن الوقت قد حان ليطلق لنفسه الغامضة عنان تحقيق الأماني، فبات يتردد على ملهى الأوبرج في شارع السعدون، وتعرف هناك على الراقصة أميرة، وقرر أن تكون له، ففتح لها بيتاً في شارع معزول بمنطقة العلوية، وسكنت فيه متفرغة لإمتاعه وإيناسه، وكانت له وحده كما كان يأمل.

وفي لحظة مصيرية أخرى، قرر أبو مجيد أن يوسع عمله باتجاه آخر، ففتح وكالة لبيع دراجة لامبرتا النارية الإيطالية والمعروفة عالمياً ب "سكوتر"، التي كانت نقلة في عالم الدراجات المستخدمة في المدن الحديثة المكتظة، فهي أصغر حجماً وتناسب إلى حد كبير النساء أيضاً نظراً لأنها تمكّنهن من قيادتها مثل سيارة بساقين مضمومتين في درع، علاوة على أن سرعتها في كل نسخها الصغيرة والكبيرة محدودة. الحوض الذي تستقر فيه قدما السائق مستورتين، والمحرك المحجوب في الجزء الخلفي، هي الميزات الأهم لهذا النوع من الدراجات.

أختار حميد منطقة سوق مرجان ساحة الفتح مكاناً للوكالة، وبالتحديد في الركن الآخر المقابل لمطعم دنانير الأنيق ولياليه الصاخبة التي تبدأ بعد التاسعة ليلاً، فاستأجر المكان الذي كان معرض سيارات سابق، وأقام لنفسه في إحدى زوايا المعرض مكتباً أنيقاً، ملحقاً به غرفة نوم صغيرة وثيرة فيها مكيف هواء غالي الثمن، ومتصل بها عبر ممر مسقّف، مطبخ قهوة صغير ومرحاض يعلوه دوش "تلفون" حديث رشيق، فصارت شقة كاملة.

حميد وهو في الأربعين من عمره، يملك عملين منفصلين كبيرين، وبيتين منفصلين، وفي سريره امرأتان مختلفتان في كل شيء، فالأولى ست البيت الأمينة الحنونة، والثانية النافرة اللعوب التي تحيق بها الشبهات والتي تشعل الحرائق في فراشه، ويملك حميد مزيداً من الوقت ليكتشف الصبي المتوحش في داخله. إدارة كل هذه المملكة باتت متاحة لحميد بالهاتف، فقد سحب هواتف إلى الورشة والمكتب والبيتين، وكانت تلك الشبكة الهاتفية الجهنمية وسيلته في إدارة العمل وعقد الصفقات دون حاجة إلى حضور مستمر.

ذات صباح، دخل وكالة لامبرتا صبي مراهق أنيق مليح، التقطت عين حميد الخبيرة فيه شيئاً يناغي هواجسه الدفينة العتيقة، ظل يراقبه من خلف زجاج المكتب، فيما يتنقل الصبي مبهوراً بين الدراجات المصفوفة في باحة الوكالة المسقّفة. توقف الصبي عند دراجة حمراء - بيضاء، وبات يتلمّسها ويتأملها كأنه عاشق، ثم أنحنى يشم رائحة عجلتها الأمامية السوداء التي لم تطأ الشارع بعد، وانصرف يتلمس مقود الدراجة ويتأمل بدال السرع اليدوي فيها، ويتلمّس دواسة الموقف الخلفي في حوضها والتي تشبه دواسة موقف السيارة. وبقي حميد في مكتبه ينتظر الخطوة التالية، والصبي ينطر أن يتقرب منه أي عامل في الوكالة ليبادله الحديث حول الدراجة الحلم، لكنّ انتظاره طال حتى أصابه الملل، فقرر أن يذهب للرجل الجالس إلى المكتب، ولعله موظف في هذه الوكالة، ليسأله حول الدراجة.

عند باب المكتب الزجاجي وقف الصبي بسروال كاوبوي أسود أمريكي، وقميص تزينه مربعات حمراء وصفراء وسوداء يليق بالسروال، وهو ينتعل صندلاً صيفياً مشبّكاً فات أوان ارتدائه في خريف بغداد البارد. ألقى الصبي سلاماً خجولاً، فرد حميد ببرود متعمد دون أن يرفع عينه عن كاتالوغ موضوع على المكتب يتصفحه متشاغلاً عن فضول الصبي الذي لم يفقه سر البرود، فبادر يسأل بصوت مرتفع واثق من نفسه عن الدراجة الحمراء – البيضاء وامكانية شرائها.

رفع حميد رأسه عن الكاتالوغ، ونظر إلى الصبي وهو واقف في باب المكتب لا يجسر على الدخول دون دعوة بازدراء ثم سأله: هل تملك ثمن شرائها؟

أجاب الصبي بفتور أنه يريد أن يعرف أولاً معلومات عنها، ويريد معرفة ثمنها، ليجد بعد ذلك وسيلة لشرائها. نظر حميد للصبي باحتقار متعمد، وسأله: هل يقبل أبوك أن تركب دراجة نارية وأنت بهذا العمر؟

أجاب الصبي بسرعة بنبرة متحدية: أبي لا شأن له بهذا، أنا من يقرر ذلك.

- ولكنك لا تستطيع شراء دراجة نارية وتسجيلها وقيادتها، قانونياً لا يمكن لك ذلك، كم عمرك؟

- عمري 15 سنة.

- القانون ينص على أن إجازة حيازة وقيادة دراجة نارية تمنح لمن بلغ 18 عاماً، يعني ما زال الطريق طويلاً أمامك!

فوجئ الصبي بهذه المعلومة، وفتح فمه مبهوراً متسائلاً: ألا يوجد سبيل آخر لاقتناء دراجة من هذا النوع؟

- لا أعرف سبيلاً سوى عقد شراء وإجازة سوق دراجة، وكلاهما يتطلب أن يكون عمرك 18 سنة، ما اسمك يا ولد؟

- حمدي!

انفرجت أسارير حميد بعد أن ذاب حاجز الجليد بينهما ولكن بشروطه وعلى طريقته المتعالية، فهو الآن بموقع السيد مالك أسرار العالم الجميل، والقادر على كل شيء، فيما يقف حمدي الصغير وحيداً بأمنيته اليتيمة عاجزاً أمام قوانين غامضة ومعقدة وأموال طائلة لا يملكها. قال حميد بلهجة آمرة: ادخل، تفضل ادخل! وحرص حميد على ألا يبيح للصبي الجلوس كضيف حلّ في المكتب.

دلف حمدي إلى الداخل، واتجه دون استئذان إلى كنبة أنيقة وجلس أمام المكتب، فبات نصفه يواجه حميد والنصف الآخر يواجه باحة الوكالة.

تشاغل حميد بالكتالوغ أمامه بانتظار الحركة التالية من حمدي. سكت الصبي هنيهة ثم سأل بهدوء: ما اسمك؟

ودون أن يرفع حميد رأسه عن الكاتالوغ اجاب بإهمالٍ متعمد: يناديني الجميع "أبو مجيد"!

لم يرق هذا الاسم لحمدي، فهو يبدو عتيقاً ثقيلاً على النطق وقبيحاً، لكنّ رجلين دخلا الوكالة لفتا نظره، وظل يراقبهما فيما بدأ أبو مجيد يطرح عليه أسئلة عامة من قبيل هل هو تلميذ مدرسة، أم أنّه يعمل في مكان ما، وإن كان بيته قريباً من المحل وهل عنده أشقاء؟ وكل هذه الاسئلة انهالت على حمدي الصغير دون أن يرفع محادثه رأسه باتجاهه، بل ما برح يختلس النظر إلى الرجلين المنهمكين بتأمل الدراجات في باحة الوكالة. ثم رن هاتف المكتب بشدة، فانتظر أبو مجيد متعمداً بضع ثوانٍ قبل أن يجيب بلهجة صارمة، وكان الطالب شخصاً يسأل عن تفاصيل انجاز عمل ما، وظل أبو مجيد يوجه له أوامرَ حاسمة بما يجب أن يعمله، وفي هذه اللحظة وقف الرجلان في باب المكتب، وهما ينتظران أن ينتهي المتحدث من مكالمته الهاتفية ليجيبهما عن أسئلتهما، فيما لم يرنُ لهما أبو مجيد سوى بنظرة عابرة رافقتها ايماءة خفيفة جداً برأسه الصغير ذو الشعر الرمادي الملتصق بالدهن بجمجمته!

وحال أن أنهى أبو مجيد المكالمة، سأله أحد الرجلين عن قيمة إحدى الدراجات، فأجاب بجفاف معلناً رقما نهائياً غير قابل للمساومة "185 ديناراً"!

لوى الرجل شفتيه وكأنه يريد أن يسأل شيئا آخر، ثم نظر باتجاه أبو مجيد وسأل بهدوء إن كانت الوكالة تبيع بالتقسيط؟ وجاء الجواب بارداً مرة أخرى: نعم نبيع بالتقسيط ولكن شرط أن يأتي المشتري بكفالة صادرة عن مصرف، نحن في الحقيقة نبيع الدراجة إلى المصرف، والمصرف يتولى التقسيط على المشتري. بالنسبة لنا الكفالة المصرفية وقيمتها هي التي تقرر البيع من عدمه.

لوى الرجل مرة أخرى شفتيه ثم التفت نحو الباحة وهو يسأل: إذا ممكن تأتي معي لمزيد من الأسئلة.

نهض أبو مجيد من مكتبه متثاقلاً، ثم دلف إلى الباحة مع الرجلين، وانهمك الثلاثة في الحوار حول دراجة زرقاء – بيضاء. وتطاول حديثهم حتى ملّ حمدي، فنهض من مجلسه، وخرج إلى الباحة متردداً، وخطا بضع خطوات باتجاه الرجال الثلاثة، ثم سار واجتازهم، والقى سلاماً خفيفاً لا يكاد يسمع على أبي مجيد وغادر دون كلام.

في كل زيارة يزفّها حمدي لوكالة أبو مجيد، ينكسر بينهما حاجزٌ من نوع ما، وفي كل مرة يثبت أبو مجيد لحمدي أنه لئيم متعجرف لا يريد أن يغادر برجه العالي. ومع ذلك، ظلّ حمدي يتردد على المكان يسوقه شوق دفين إلى عالم الدراجات النارية، حتى بادر أبو مجيد وسأله إن كان يرغب في العمل عنده صبياً ينظف المكان ويقدم المشاريب للزبائن مقابل دينارين في الأسبوع.

أجاب حامد أنّ هذا غير ممكن لأنه يذهب للمدرسة، 3 أيام في الأسبوع صباحاً والثلاثة الأخرى ظهراً ابتداء من الساعة الواحدة، كما أنه ليس بحاجة إلى نقود.

أحسّ أبو مجيد بطعنة غير منتظرة، إذ كان يرى في الصبي حاجة ماسة إلى مورد مالي، ما سيجعله يقبل العرض بسرور، ففاجأه الصبي ببرنامجه المدرسي وعدم حاجته إلى المال، وفي لحظة انتقام سريعة طلب أبو مجيد من حمدي أن يأتي له من الثلاجة بزجاجة كولا!

نظر الصبي في وجه الرجل، ثم نهض من مكانه وسار إلى الثلاجة في المطبخ، وعاد بزجاجة كولا لأبي مجيد، وزجاجة أخرى له، وجلس إزاءه يتجرع الكولا الباردة، في إعلان منه بأنه يرفض دور الصانع الصغير، ولا يقبل سوى أن يكون ندّاً لصاحب محل الدراجات الساحرة.

بالنسبة لحمدي، كانت زيارته لهذا المكان تدور حول التقرّب من هذه الأشياء الجميلة الماكثة في باحة الوكالة، والتقرّب قد يأتي بمعجزة فيتاح له أن يأخذ من بينهن دراجة تُرضي أحلامه، أما أبو مجيد فكان يرى في الصبي رمزاً آخر يضيفه لانتصاراته، ولكن يجب أن يخضع الصبي لإرادته أولاً ليصبح النصر ناجزاً ونهائياً. وكلما حلّ حمدي في ربوع حميد، تحركت في أعماق الرجل المزواج النهم مشاعر ترتبط بصباه حين كان يزور

مهدي مشغّل الكاميرات بغرفته السحرية المظلمة بسينما غازي، وما كانا يفعلانه على وقع موسيقى وأصوات الأفلام الصاخبة. كانت تلكم لحظات سرية عارمة، لكنها مكللة بالعار، فالجمهور يشاهد الفيلم ويتمتع به، بينما ينشغل حميد بتحسس العالم المظلم وتشمم روائح غرفة الكاميرات الغامضة مع مهدي.

ذات غروب، زار حمدي الوكالة فيما كان أبو مجيد منهمكاً بطقوس الإقفال فبادر يطلب منه أن يأتي بالعربة ويساعده في إدخال الاطارات المعروضة في خارج الوكالة للإعلان والدعاية، فيما انشغل هو بإدخال الدراجات الثلاثة المعروضة خارج الوكالة. وانشغل الاثنان بترتيبات نهاية يوم عمل آخر، حمدي كان يتلذذ بملمس العجلات السوداء ورائحتها التي تقربه من عالم أحلامه، أما أبو مجيد فكان يرى في عمل حمدي خضوعاً يسجل له سيادة مطلقة على الصبي.

حين انتهى كل شيء، أنزل أبو مجيد المشبكات المعدنية إلى منتصف مسافة الإقفال لتكون دليلاً لمن يريد زيارة الوكالة أنه قد جاء خلال ساعات الاقفال، ثم دلف إلى غرفة النوم الملحقة بالمكتب، ونادى حمدي إليه. دخل الصبي غرفة النوم متردداً هو ينظر إلى أبي مجيد الجالس على حافة السرير، ثم سأل بغير براءة: ماذا تريد أبو مجيد؟

أجاب حميد وعلى وجهه مسحة اشتياق لم يعهدها فيه حمدي: ادخل وأغلق الباب، ستكون ليلتنا جميلة معاً!

تصلّبت ساقا حمدي وهو واقف في مدخل الحجرة، ثم تراجع خطوة وقال بصوتٍ عالٍ آمر لم يسمعه منه أبو مجيد: عيب، عيب عليك، أنا لا أفعل هذا، عيب عليك! وغادر الصبي مسرعاً الوكالة ليغيّبه ظلام غروب يوم خريفي آخر من أيام العاصمة.

كانت تلك صفعة غير متوقعة أخرى لحميد، فقد طاف في هواجسه أنّ تلك الليلة ستكون فيلماً آخر يضيفه لذاكرة أفلامه مع مهدي في غرفة الكاميرات بسينما غازي، لكنّ حمدي خرّب كل شيء، ووجه له إهانة لا تغتفر.

غاب حمدي شهوراً طويلة، حتى ظنّ أبو مجيد أنه غير عائد لزيارته وهو ظنّ يثير فيه مشاعر الهزيمة، فقد رفض حمدي كل محاولات الإذلال التي صدرت عن الرجل القوي حميد، لذا كان يرنو إلى سانحة أخرى تغيّر المعادلة الصعبة بينهما وتحل رموزها المستعصية.

وحلّ عيد الرشاش الأشوري في بغداد، فانهمك فتيان وشبان الحارة المسيحية التي أقام فيها حميد وكالة لامبرتا الحصرية، في التراشق بالماء، وصراخهم وضحكاتهم تملأ المكان. وما كان حميد يعرف أنّ هذا العيد يحلُّ كل عام في أول يوم أحد من شهر تموز في أوج القيظ، ويشارك به الجميع بعد خروجهم مباشرة من القداس، فيشرعون برشّ الماء في فناء الكنيسة ثم في الأزقة والطرق والبيوت المحيطة بها، ليعودوا بعدها إلى بيوتهم فيستمر التراشق

بالماء في الحواري والشوارع، وفي المساء يُحيي الجميع أمسيات تختتم بحفلات ساهرة راقصة في البيوت والنوادي.

كل هذا كان جديداً على أبي مجيد، فوقف عند باب الوكالة يتأمل الجمع المتراشق وقد غمر الماء ثياب الجميع، والمهرجان يجري على وقعِ أنغام صادحة تنبعث من أجهزة تسجيل تصدح من المباني والبيوت، وتنبّه حميد إلى ثلاث دراجات نارية كبيرة ظهرت في نهاية الزقاق المعاكسة للوكالة، وتسير حثيثاً باتجاهه، فخمّن أنهم زبائن محتملين، ودلف إلى الداخل كي لا يبدو حريصاً على استقبالهم. هو يقف دائماً في الجانب السيادي من العلاقة بين البائع والمشتري، ولا يتنازل بإظهار أي ودٍ للمشترين حتى بعد أن يعقد معهم صفقة ناجحة، الابتسام والود ليست جزءاً من عالم حميد الصناعي والتجاري، الشغل لا يحتاج بسمات بل قرارات حاسمة تصدر عن الطرف الأقوى وهو البائع الذي يملك ما لا يملكه المشتري، هكذا بنى حميد فلسفة حياته.

وبينما هو يشاغل نفسه قرب مدخل مكتبه، توقفت الدراجات الثلاث في باحة العرض الخارجية للوكالة، وانتبه حميد إلى أنها دارجات بي اس أي امريكية حديثة غالية الثمن، وترجل منها ثلاثة شبان ومعهم فتيان مراهقان خال أبو مجيد أنه يعرف أحدهما لكنه لم يتذكر أين رآه.

دلف الشبان الخمسة إلى الوكالة وهم يتضاحكون، وحين اقتربوا منه لم يبادروه بالتحية أو السؤال بل تجاهلوه، وتحلّقوا حول دراجة حمراء – بيضاء، وسأل أحدهم وهو يرتدي سروالاً ابيض وسترة جلدية رقيقة سوداء رفيقه اليافع بصوت عالٍ: حمدي، هل كنت تعني هذه الدراجة؟

فسارع فتى أنيق المظهر، طويل القامة يجيب عن سؤاله بصوت مرتفع ويشرح ولعه بالدراجة الأمينة، فيما انصرف الشبان الثلاثة الآخرون يتفقدون أرجاء الوكالة غير عابئين مطلقاً بصاحبها.

وعاد الشاب بالسترة السوداء يحاور حمدي: لكنها يا عزيزي دراجة نسائية وللشيوخ والعجائز، أنت في أول العمر، يلزمك متِشلس أو بي أس أو ترايف أو هارلي ديفزن إذا كنت غنياً...دراجات الرجال!

التبست مشاعر أبو مجيد، فهو مغتاظ لأنّ الصغير حمدي يتجاهله، ومرتاح في نفس الوقت لأنّ الصغير لا يبدو بصدد إشعال فضيحة تحرشه به قبل نحو عام. ربما نسي الصبي الأحمق ما جرى في ذلك الغروب! هكذا يهاود حميد نفسه، وهو يتوجس من هذا الجمع شراً، وفيما هو يغازل مخاوفه بهذه الأفكار، اتجه الشاب الذي كان يحاور حمدي، وهو من جاء مردفاً الصبي خلفه على صهوة الدراجة الزرقاء العملاقة إليه بالسؤال من بعيد بصوت زاعق: ما سعر هذه الدراجة؟

أثار سؤاله وطريقة طرحه حنق حميد، فأجاب بإهمال بصوت منخفض: ليست لدينا دراجات للبيع الآن؟

نظر الشاب إليه شزراً، واقترب منه وهو يؤرجح ذراعيه وأعاد سؤاله بوقاحة: لم نقل إننا سنشتريها، نحن نسأل عن ثمنها، كم؟

أجاب حميد بامتعاض ظاهر: ثمنّ الدراجة الحمراء – البيضاء هو 185 ديناراً نقداً، وإذا بيعت بالتقسيط يرتفع ثمنها.

تسكع الشاب مترنحاً باتجاه حمدي وقال بصوت مرتفع: أستطيع أن أشتريها لك الآن نقداً، لكني أراها دراجة تافهة، كما أن صاحب الوكالة يبدو في حالة صحية صعبة!

رد أبو مجيد وهو ينظر في عين الشاب متحدياً: أبداً، أنا في صحة جيدة، لكني لا أفيدكم في هذا الوقت، كل المعروض محجوز للبيع، عليك أن تنتظر 4 أشهر حتى تصل الشحنة القادمة لو رغبت بالشراء. وانتبه أبو مجيد إلى أنّ شاباً من نفس المجموعة يحاول إنزال إحدى الدراجات عن ستاندها، فصاح به: رجاء لا تعبث بالدراجات ولا تنزلها عن الستاند، هذه بضاعة مباعة!

قهقه الشاب بصوتٍ عالٍ وقح، وتحرك مقترباً من الجمع وهو يقول: هي ليست دراجة زجاجية كما أعتقد، يعني لو نزلت عن ستاندها لن تسقط وتتكسكس هاهاهاه أقصد لن تسكت وتتكنكن أووووه لن تسقط وتتكسكس هاهاهاه، على كيفك عمي، لن نأكل الدراجة، دراجتي الواقفة هناك أشتري بسعرها خمسة من هذه العربانة النسائية!

وضحك الجمع لكلماته المستفِزة، ضحكوا بقوة مقهقهين بصوت يصم الأذان في أصدائه الرهيبة داخل باحة العرض بحيث ضاعت كلمات أبو مجيد الغاضبة وهو يرد عليهم. ثم تباعدوا نحو مخرج الوكالة وهم يقهقهون ويلقون مزيداً من التعليقات بأعلى صوتهم عن الوكالة النسائية الإيطالية وعن البيع بالتسقيط هاهاهاه، يعني واحد يسقّط الآخر، تعالوا نسقّط بعضنا هاهاهاه ! تعالوا نسقّطك بالضرطة القاضية مثل محمد علي كلاي حين قضى على باترسن هاهاهاه! هل تعتقد أنه يتحمل خاطفة واحدة من قبضتي؟ لا أظن، فهو يبدو بوخة نسائية هاهاهاه. إنه قد يتحمل خاطفتك، لكنه لن يطيق ضرطتك الفاسدة النتنة هاهاهاه، وغادر الجمع الوكالة بصخب مقصود أثار جنون حميد، لكنه لم يعرف كيف يرده.

إثر تلك الزيارة، شعر أبو مجيد بخوف شديد، وجاء بحارس للوكالة يقيم فيها بشكل دائم، مقابل 15 ديناراً في الشهر إضافة إلى كرفان وملحقاته في كرفان آخر وضعا في مدخل الوكالة ليقيم فيها ليل نهار. وكرّت الأيام، فنسى أبو مجيد كل شيء تقريباً، لاسيما أنّ كل المعروض في الوكالة قد بيع بالفعل، وخلت باحتها والفناء من الدراجات، فجاء حميد بسرعة بوجبة من دراجات فسبا الإيطالية الشبيهة بلامبرتا ولكنها أصغر حجماً وبخواص مختلفة، اشتراها على عجل من مصدّر إيراني، وعرضها في فناء الوكالة كي لا تبقى خالية حتى وصول الشحنة القادمة من أيطاليا، وأقبل الشباب خصوصاً على شراء الدراجة

الجديدة، خاصة وأنّ أفلام شامي كابور الهندية كانت تعرضها وقد امتطاها الشبان الهنود الأنيقون مع صديقاتهم الفاتنات.

بعد شهرين وعصر ذات يوم خريفي ساخن، ظهر في باب الوكالة حمدي لوحده، وتخطى بهدوء محاولاً الاقتراب من المكتب، فلمحه أبو مجيد، وما لبث أن اعترضه الحارس متسائلاً إن كان بوسعه مساعدته؟ فرد حمدي أنه يريد أن يرى أبو مجيد بشكل شخصي، فأتاح له الحارس الدخول وهو يومئ له إلى مكان المكتب، ولما تأكد أبو مجيد أنّ حمدي لوحده، بادر يشغل نفسه بأوراق على مكتبه، كعادته، كي لا يظن الصبي أنه مهتم لحضوره. ودخل حمدي وهو يؤرّجح ذراعيه، وألقى سلاماً بارداً ثم جلس على كنبته المفضلة أمام المكتب وخاطب أبا مجيد بصوت عالٍ: شلونك أبو مجيد، شلون أحوالك؟

رد أبو مجيد باحتقاره المعهود: أهلا أهلا بسبع المحلة، صاروا عندك ربع تتقلب معهم في بين الناس، هذا مستقبل مظلم لمن هو مثلك، ابحث عن غيرهم!

رد حمدي بهدوء صبي بريء: أنت أيضاً عندك ربع من ملهى الأوبرج، وتبات عندهم وتطلع معهم، وسافرت معهم قبل مدة إلى لبنان اسبوعين كاملين، وأقول لك ايضاً، لا تأمن هذه الجماعة، فوراءها مشاكل كبيرة وكثيرة!

اجتاحت حميد نوبة برد مفاجئة، وشعر برغبة مفاجئة للتبول، فالمفاجأة صدمته بطريقة لم يعرفها من قبل، فانفجر يشتم حمدي بألفاظ شارع مهدداً ببيديه وبرأسه وبكل حواسه.

نهض حمدي من مجلسه وقال وهو يشير إلى حميد بسبابته بتحدٍ ظاهر: أريد منك دراجة لامبرتا حمراء - بيضاء كالتي تحدثنا عنها قبل شهرين! احجز لي واحدة وستعطيها لي كهدية لأنك تحرشت بي قبل سنة! أعرف كل شيء عنك، ولو كشفت المستور لمن حولك، فسوف تغرق بالمشاكل. سأزورك حين تصل وجبة الدراجات القادمة! وأدار وجهه متجهاً لباب الخروج، فصرخ فيه أبو مجيد غاضباً: جرب أن تخطو مرة أخرى هنا، وسأكسر رجلك! جرب فقط!

التفت إليه حمدي وهو يقف في باب المكتب ميمماً نحو الخروج وقال: قبل أن أخطو هنا سأزورك في بيتك وسنرى كيف تهددني! وغادر المكتب والوكالة لا يلتفت لشتائم وصراخ أبي مجيد!

ما أن وصلت شحنة دراجات لامبرتا الجديدة، حتى قُرع جرس بيت أبو مجيد السري مع عشيقته أميرة ذات ليلة بات فيها العاشق في عشّ اللذة، وقفز أبو مجيد الذي كان يجلس مرتدياً دشداشة بيضاء أنيقة إلى جيب سترته، وأخرج منها مسدساً حمله خلف ظهره واتجه يفتح باب الدار، ففي هذا البيت لا ينتظر أبو مجيد زواراً في هذا البيت، وهاله أنّ الواقف في الباب هو الصبي حمدي! وتردد لحظة ماذا يفعل، فصاح حمدي بصوت عالٍ، سهام، سهام، أخرجي أريد أن أحدثك!

وطفرت أميرة من مكانها فزعة باتجاه الباب وهي تبتهل قائلة: حميد، حبيبي حمودة، هذا أخي سعد، لا أعرف ما الذي جاء به هنا، وكيف عرف طريقي، أرجوك احميني، دعه يدخل أولاً ولا تثر فضيحة، أتوسل إليك!

احتار حميد كيف يتصرف، وتحقق وعد حمدي- سعد، ودخل البيت وهو يتحدث بغضب الحريق إلى أخته أميرة - سهام شاتماً صفاقتها معرّياً سقوطها ومهدداً بأنه سيبلغ الشرطة بوجود بيت دعارة، وسيقتلها غسلاً للعار، ثم خرج لا يلوي على شيء. وانتهت الليلة ببكاء حزين ورعب كبير أجبر حميد على المغادرة بسرعة والمبيت في فندق لأنّه سبق أن أبلغ زوجته أم مجيد أنه مسافر كعادته حين يبيت لدى أميرة أو سهام، بات لا يعرف أين الحقيقة؟

وحين حل شهر تموز في العام التالي، شهد العراق انقلاباً آخر، واهتز عالم حميد المرتّب الأنيق، ففي بيت عشيقته أميرة بات له شريك دائم هو صديقها- أخوها حمدي- سعد، ثم حاول أبو مجيد أن يلجم الفضيحة بطرد أميرة من البيت، وتهديد أخيها أو عشيقها وهو لا يعرف في هذه اللحظة حقيقة هذا الشخص، لكنّ سعداً كان عنيداً صلباً، وهدده بأنه سيخبر أم مجيد واخوتها وأبيها ببيت العشيقة، فاضطر أن يهدي له دراجة لامبرتا حمراء – بيضاء ليسكته.

ثم زارته في وكالة الدراجات النارية مفرزة أمن بسيارة فلوكسفاغن خنفساء بيضاء، وأخبره أفرادها أنّه يخالف القانون لأنّ الوكالة غير مسجلة في دائرة تسجيل الشركات، وما أن سجّل الشركة وثبّتها كجهة مستوردة، حتى طولب بوضع مبلغ كبير جداً كائتمان في مصرف الرافدين يُغطي مبالغ الاستيراد. وضع المبلغ، فصدر قانون تأميم الشركات، وخسر الوكالة وما فيها، لكنه بقي محتفظاً بالائتمان، ثم خيّرته الدولة الجديدة بين سحب الائتمان أو تشغيله لحساب الدولة لاستيراد دراجات نارية من نوع أم زد من ألمانيا الديمقراطية، وتوالت المصائب على رأسه. صار حمدي - سعد يبيت كل الأسبوع عند أخته - عشيقته أميرة- سهام، فيما يقضي أبو مجيد عندها ليلتي الخميس والجمعة.

في صيف عام 1973، سيق حميد المعروف بكنية "أبو مجيد" إلى السجن بتهمة المشاركة في مؤامرة مدير الأمن العام ناظم كزار، واختفى إلى الأبد في السجن، وضاع ملفه بعد أن أودع إلى مكتب حنين المخيف الغامض. واكتشف أهله بعد اختفائه أنه قد تزوج امرأة أخرى وفتح لها بيتاً وكتب باسمها البيت الذي تسكن فيه، ومبلغ وإجازة استيراد الدراجات وقيمته 334 ألف دينار (مليون دولار) هي مبلغ ائتمان لاستيراد دراجات أم زد، وهكذا انتقل كل شيء إلى زوجته الثانية سهام سويدان التي ما لبثت ان تزوجت شاباً يصغرها بعشرة أعوام اسمه سعد.

بون 2019

خيط الحب خيط الدم*

ليت الحروب بلا مدافع وليت القصف يهدأ، مع كل قذيفة تسقط يموت إنسان ألف مرة، بل يتمنى أن يموت قبل أن يسمع دوي المدافع وراجمات الصواريخ وهي تطلق نيرانها وقذائفها باتجاهه.

لازال وليد يحدثني عن الشتاء الماضي الذي قضاه في القاهرة، وكلما قاطعه صوت إحدى الدبابات وهي تطلق النار، توقف عن الحديث هنيهة ثم عاد إلى نفس المكان الذي توقف فيه وكأنّ صوت القصف موسيقى تصويرية تشكل خلفية حديثه.

لا أستطيع أن أتابع معه قصة رحلته السياحية، يُصدر الجهاز اللاسلكي القريب صوتاً أجشّاً تقاطعه إشارات لاسلكية مشوشة، عليّ أن أتجه بسريتي لتطهير المواضع المحيطة بقصر الأمير بمحض انقطاع القصف.

عصراً بدأ تقدمنا، سكنت تقريباً كل جيوب المقاومة، تقدمنا بالسيارات نحو المنطقة، ترجل الجنود ووزعتُ الواجبات على آمري الفصائل ثم انطلقت بسيارتي نحو جناح الفصيل الأول. بدأ جند الفصيل بالتوغل داخل المنطقة السكنية، أسير خلفهم وأصوات صليات البنادق والرشاشات وانفجارات الرمانات اليدوية والصاروخية تنازعني انتباهي كل حين.

قرب الغروب أدنو من بيت أنيق تهدّمت واجهته الرخامية والدخان يتصاعد من إحدى نوافذه، إلجُّ البيت بحذر، وفي الداخل آثار الشظايا والاطلاقات والزجاج المهشم تلتصق بالجدران والأثاث المحطم. في زاوية الغرفة جهاز تلفزيون مهيب كبير استلقت أمامه دمية كبيرة بشكل دب باندا، أدلف إلى الصالة الداخلية لأجد سلّماً رشيقاً دائرياً يصعد إلى الطابق الثاني من البيت، ارتقي درجاته بسرعة ثم افتح باب الحجرة وأخطو إلى سطح المنزل، اقترب من سياج السطح وأتأمل المدينة الغارقة بالدخان، يتعالى صوت الرصاص والانفجارات من مبنىً قريب، أصغي هنيهة ثم أنثني أتطلع إلى الأسطح المجاورة، لا شيء سوى آثار الشظايا والقذائف والاطلاقات تتناثر فوق السطوح، أدور بنظري في سطح منزل يفصلني عنه منزل مجاور، لأرى حركة في زاوية السلم الخارجي العلوي منه، أدقق النظر ولا أميّز إن كانت حركة سنور أم إنسان وسط كومة أشياء.

أنزل السلالم مسرعاً، ,ادلف إلى المنزل الأصفر الذي لحظت في حركة بحذرٍ، أدور بنظري في أرجاء المكان الممزق بالرصاص فلا أجد شيئاً، أصعد السلم بحذر إلى سطح الدار، مسدسي في يدي، باب السطوح موارب، أدفعه بهدوء وأدخل إلى فناء السطح، فيقتنص سمعي صوت طفل، أقف وكلُّ حواسي تتيقظ لصوت الطفل الذي يثغو، أتقدم بهدوء نحو مصدر الصوت فاجتاز جدار السلم لأجد امرأة تفترش الأرض بملابس النوم وعباءة كويتية سوداء، أمام ساقيها الممدودتين يحبو طفل لا يتجاوز عمره عاماً، أقترب منهما، فترفع المرأة عينيها نحوي، الرعب يلفها والشحوب يكسو وجهها، تمسك بطفلها تضمّه إليها بفزع، في عينيها رجاء وفي فمها المزموم على صرخة، تتساقط زوايا حزن وتوسل. أقف

أمامهما واجماً لا أدري اين أخفي مسدسي عنهما، أين أذهب بسلاحي العسكري المقدس في مواجهة امرأة تبكي وتحتضن طفلها الرضيع؟ أضيع بين الخجل والارتباك والمفاجأة، التقط أنفاسي وأستعيد حواسي فانطق بعبارة سلام يلفها الحياء.

قد تجيبني الجدران وربما نطق الموتى ولكنّ امرأة يهزها الخوف ويتلف كرامتها النسوية كأمٍّ كل لحظة هذا الحصار الناري الحربي الرجالي الكئيب لا تجد لغة ترد بها السلام على ضابط من الغزاة القتلة.

وحين ألحّ في السؤال تضع بارتباك ملاءتها السوداء على رأسها وتحاول أن تستر وجهها وأجزاءً من قميص النوم الذي أجبرها الهجوم المباغت أن لا تغيره، حين دخلت القطعات العراقية أرض بلادها الكويت الزرقاء.

لا يملك التاريخ إلا أن يستحي أمام حزن الأمهات وهن يفقدن رجالهن وبيوتهن وكرامتهن وأمنهن أمام أطماع ساسة الجوار وأهواء حكامه. كنتُ خجلاً من ملايين الصور القديمة من حروب عاصرت فجر البشرية تمر بذاكرتي سراعاً، لطالما وضعت الأقدار آلاف المقاتلين وجهاً لوجه أمام حزن الأمهات. ولا أجد لغة أحاور بها هذا اليأس المريع المتمسّك بثوب الرضيع مثل شجرة في صحراء تقاوم بيأس هبوب رياح الخماسين. عمرها لا يزيد عن 20 عاماً وفي عينيها السوداوين النجلاوين وجعٌ يكفي شعوباً.

أرد مسدسي إلى غلافه خجلاً وأحاول أن أجد كلمة تقنعها بأن تتحدث إليّ، وكيف لامرأة فقدت تواً كل عالمها أن تحاور أحد الأعداء وهو يقف فوقها ببزته الرقطاء المرعبة وحذائه العسكري الغليظ الثقيل؟ رجلٌ إن لم تشأ أن تكرهه فإن ابنها النائم على صدرها سيجبرها أن تكرهه. يسيل على الأرض فجأة من تحت عباءتها الملتفّة حولها خيطٌ رفيع من سائل يتدفق سريعاً باتجاهي، فيتملكني حنق من نفسي مغمس بالمرارة، فأدور سريعاً وأخرج من باب السطح إلى داخل الطابق الثاني من البيت الأصفر، لا أريد أن أرى حياءها وخجلها يسيل أمامي لما حدث، أظل اتمشّى في الطابق الثاني ولا أدري من أين سأبدأ معها بعدما حدث.

عدت بعد نصف ساعة لأجدها قد غيرت مكان جلوسها وغيّرت ملابسها التي ابتلت بآثار الرعب البشري، تنظر إليّ بكل خوف الأمهات وهن ينهرن أمام كرامةٍ سالت فزعاً فوق سطح اسمنتي ساخن بحضور غريبٍ متجبّرٍ من الغزاة القتلة.

يحل الظلام وأنا سؤال هائم من ألم يتردد بين اللعن وبين الشوق لأن أفعل شيئاً يرمم حطام هذين الإنسانين المحشورين في مأزق مرعب قد لا يخرجان منه.

أسمع صوت سيارة تقف أمام الدار، أتطلع من فوق جدار السطح فلا أميّز سوى أنّها مركبة عسكرية، أنزل مسرعاً لأجد سائقها والجندي المخابر يبحثان عني، أقول لهما إنّ امرأة وطفلها بقيا محاصرين فوق سطح الدار ولابد من إخلائهما إلى مكان آمنٍ مع إحدى العائلات، فيجيبني السائق إنّه قد شاهد جمعاً كبيراً من العائلات المدنية أمام وزارة الزراعة بانتظار الحافلات التي ستأخذهم إلى العراق ومنه إلى الأردن. أعود لسطح المنزل

فتواجهني الوردتان الخابيتان في زاويته، أحدّث الجدران بصوت عالٍ علّ امرأة فاجأها عسكري من الغزاة تنسى خوفها وتستجيب لصوت العقل. سيدتي أنهضي لأذهب بكِ بعيداً عن وطنك الذي بات ساحة حرب، لا يمكن أن تظلّي هنا لوحدكِ مع الغزاة والعسكر واللصوص، لا يمكن أن تبقي تحت سماء الرصاص واللهب، لا يمكن أن تظلي أمّاً بلا حدود، عجّلي لأذهب بكِ إلى مكان لا حربَ فيها.

حين وصلنا بالسيارة إلى مبنى وزارة الزراعة، كانت يد الرضيع تربّت على يدي وفي وجه أمّه بضعُ ابتسامة لا تجرؤ أن تلقيها في وجه عسكري غريب لا تريد أن ترنو إليه.

أساعدهما في الترجل من سيارة الواز، وأضعهما في إحدى الحافلات، ومن نافذتها ترنو إليّ عينا أمّ يلفها الحياء والامتنان، وتتسعان في وجهها لتقولا بصمتٍ "وداعاً أيها العدو الصديق"!

حزيران- 2002

*هذه حكاية رواها ضابط عراقي كان في الكويت، وشاركني بعد سنوات أياماً طويلة في زنزانة طولها 140 سنتمتر وعرضها متر واحد بسجن اسمه (ويا للمفارقة) طريق القدس، ولم يكن عندنا غير سرد الذكريات العتيقة لننسى رعب الانفرادي، وقد نقلتها هنا بسردٍ مفصّلٍ وأضفت لها أحاسيس اللحظة من عندي.

سجدة الصبح الطويلة

لا فرق بين أن تغيّر منزلك وبين أن تغير وطنك فكلاهما بيت، ولا فرق بين أن تغير قميصك وبين أن تغير سروالك فكلاهما ثوب، ولا فرق بين أن تغيّر قلمك وبين أن تغير فرشاتك فكلاهما يراع، ولا فرق بين أن تبدل اسمك وبين أن تغيّر لون شعرك فكلاهما مظهر، ولا فرق بين أن تسافر بالقطار وبين أن تسافر بالحصان فكلاهما راحلة، ولا فرق بين أن تحب وبين أن تكره فكلاهما عاطفة، ولا فرق بين الليل والنهار فكلاهما زمن، ولا فرق بين أن تموت وبين أن تحيا فكلاهما مرحلة...ولا أدري إن كنت اليوم أموت أم أحيا كما لا يهمني أن أدري فأنا أطوي المرحلة وفرق كبير بين أن تطوي المرحلة أم تطويك المرحلة، هو نفس الفرق بين أن تكون عارفاً وبين أن تكون جاهلاً.

بدأتُ أدري منذ خرجت صبيحة الأمس من منزلي بعد طول مكثٍ لا يصدق، خرجت لأجد السوق المتعب الفقير يسير مع الحياة وليس ضدها رغم الحاجة والفاقة والعوز، والأطفال وقد تعطّلوا عن دروسهم لغربة أصابتهم دون أن يدركوا لماذا غادروا بلدهم، ما برحوا يعيشون حياتهم الأولى بنفس الشوق الذي عشت به طفولتي المدللة وهكذا بدأت أدرك أنّ ما تغير في حياتي أكبر من مجرد منزل رخيص أو قميص أو قلم أو اسم.

حسين الستيني الغارق في بحر الأنفاق المجنون يهرب باستمرار من ماضٍ لم يشأ أن ينقضي هكذا فظل يلهث خلف ذكرياته الرمادية وهو يودع أيام غربته ويستقبل أياماً أكثر غموضاً. حسين يستقبلني بوجه ضاحكٍ دائماً (لا يدري هو لماذا؟) قائلاً: هذا القطار المجنون الذي يمر يومياً بمجمعنا لا يعرف أخلاقنا، ونحن أصحاب الوفاء ورجال الوعود المنجزة، كل يوم يمر بنا في وقت لا يشبه اليوم السابق، سفر أبله ومسافرون أغبياء، تعال أدعوك لفطار، فالفطار خير من القطار!

يضحك بصوت مجلجل وهو يرفع أكمام قميصه ليظهر ساعداه المفتولان اللذان لم يتغضنا بفعل الزمن، والريح ساكنة، (عند الفجر كانت تهب مسرعة نحو الغرب وهي تسابق نفسها) والشمس مازال يتعبها الوسن.

نجلس لنأكل الثريد المغموس بالدهن والمكلل بالباقلاء والبيض فأشم رائحة مألوفة لا أدري بم تذكرني (وعلى كل حال لا أسعى أن أدري) فصديقي الجديد الغريب لا يهتم أن يعرف أسباب الأشياء ولا أن يربط العلل بالمعلولات بل يكتفي بفتح باب بيته وإقامة الولائم لغرباء لا يجمعهم به شيء سوى لغة مشتركة يكاد ويود أن ينساها! ومع ذلك فإنه ينفق بإسراف لإطعام الغرباء وإكرامهم ولا فرق عنده إن كانوا يستحقون ولائمه أم لا!

حسين المهاجر بلا سبب، والغريب مذ كان الناس سعداء آمنون في بيوتهم، الطريد في بيته، الحر على طريقته، المعذّب برغباته الصغيرة، حسين المشروع المؤجل ستين عاماً دون أن يعرف سبباً للتأجيل يسألني صباح هذا اليوم النيساني المطير إن كان سيجد امرأه ترضى به

زوجاً وقد جاوز عمر الزواج، ويروي حكايته لي قائلاً" يا سيدي قبل شهر خطبت امرأة مطلقة وعندها طفلان، وقد وافقت في البدء ثم عادت فأبت، في الصيف الماضي خطبت امرأة عرجاء في الخامسة والثلاثين فرفضتني بشدة وهي تقول: لقد انتظرت طويلاً ولا أريد أن اقترن برجل سيموت بعد عامين أو ثلاثة!

ما أدراها إني سأموت بعد عامين؟ ربما قضت قبلي، أليست الأعمار بيد الله، هل هي وكيلة الله في شؤون الموت والحياة؟ ويقهقه بصوت مدوٍ فتبين أسنانه المهدّمة.

شهر مضى على هذا الحال، وبدأت تنتابني تخمة مزمنة من وجبات الطعام الثقيلة التي دأب حسين على اعدادها ودعوتي لها مذ سكنت في بيتي الجديد (الذي لا يشبه البيت في شيء)، وكنت محرجاً بشدة، فليس بوسعي أن أجاريه في الأنفاق كي أرد عليه دعواته السخية. ظهر اليوم حين غيرت ملابسي القديمة الجديدة التي لا أدري على جسد من قد مرت قبلي! لحظت أن كرشي قد انتفخ وبدأ يدفع الحزام والسروال إلى أسفل.

أقف أمام الدار المطلة على فضاء شاسع لا معنى له تشغله الرياح وأصوات الديكة والدجاج والأطفال بمختلف الأعمار، أنتظر أن أفعل شيئاً أكسل عن أدائه، أطرق باب جاري حسين فلا يجيبني سوى رنين الباب المعدني. في الأيام التي تلت اختفى حسين وانشغلتُ بعمل ليلي مؤقت في المدينة الكبيرة القريبة أتاح لي أن أتعرف بدقة على شوارعها ومحلاتها ودوائرها، فالجري مع شاحنة جمع القمامة وكنس الأرشفة والشوارع والميادين يمكنّك أن تعرف المدينة وسكانها من فضلاتهم.

أمام بيوت الفقراء تظهر أكياس القمامة صغيرة الحجم خفيفة الوزن خجولة المظهر، أما قمامة الأغنياء فتتكاثر في عدة أكياس ثقيلة الوزن مزهوّة نتنة الرائحة! الفروق بين الناس تبدأ من طعامهم لتمر بالأسماء والبيوت والحمامات والملابس لتصل إلى القمامة والأزبال. ولو كانوا تقاةٍ لتباروا في خير من ذلك، إلا أنهم أكسل من أن يتباروا في التقوى فيتباروا باللذائذ والمنافع والأحوال والسمات. وبعد سنوات اكتشفت أن التقوى بضاعة يبيعها الكهنة للفقراء لتشجعهم على تحمل بؤسهم والقبول بما هم عليه باعتباره خيار ميتافيزيقي سيلقون جزائه ورداً وخمراً وحوريات في الحياة الآخرة.

الناس في المدينة مشغولون بعيد العام الجديد ولا أحد يرضى أن يجمع القمامة المسكينة ولا أن يكنس الشوارع والأرصفة المهملة. الناس هنا في فرحة ولا وقت عندهم للعمل، وهم يتبارون في الفرح أيهم يأكل أكثر ويفرح أكثر! وهكذا استعان متعهد النظافة بالغرباء ليرحم المدينة من الأزبال ويرحم الغرباء من البطالة الإجبارية المفروضة عليهم.

انتهى العيد وانتهت معه فرحة الغرباء بالعمل الليلي فعادوا إلى البطالة المزمنة والكسل المفروض، وعاد حسين من رحلته الغريبة المفاجئة، محمّلاً بالسمن والبض والباقلاء وتبغ الأراكيل المعطّر. وحال أن دلف بيته تعالى صوته المجلجل يدعوني لتناول طعام الغداء معه.

عند الظهر ألج بيته فأشمّ رائحة مألوفة لا أميزها، وأجد لدهشتي حسين منهمكاً بالصلاة بخشوع ظاهر، ارجيلته منتصبة متلهفة لإحراق التبغ والصدور، أجلس إلى سفرة مدت على الأرض، فيُنهي حسين سجدته الأخيرة وينهض مسرعاً إلى الموقد الكهربائي حيث قدر الباقلاء يغلي، يبدأ المدعوون بالتدفق على بيته وكلهم لا يدري لماذا يدعوه حسين إلى وليمة غداء!؟

وهكذا يمر الربيع متكاسلاً بارداً لا ترغب الشمس أن تدفئه، فيما يتدفق الغرباء على بيت حسين دون أن أفهم لذلك سبباً واضحاً، ربما كان الأمر يتعلق بجانب خفي من حاجاته الجسدية يخشى أن يعلن عنه بصراحة.

ذات صباح لم يستيقظ حسين من نومه، عند الظهر طرقنا باب بيته فأجابنا صمت الموتى، كسرنا الباب فوجدنا حسين منكفئاً فوق سجادة الصلاة وقد فارق الحياة وفارقنا دون أن ينجز مشروعه المؤجل الغامض. غادرت البيت والرائحة المألوفة المجهولة تلازمني.

صبيحة اليوم التالي شيعنا حسين إلى مقبرة الغرباء على حافة المجمع التائه، ودفنّاه في زاوية المقبرة مثلثة الشكل وعدنا. لا أحد يعلم إن كان حسين يلمس فرقاً بين الموت وبين الحياة، وبين أن يدفن في مقبرة الغرباء أو مقبرة الشيخ معروف في الأرض البعيدة، ولا أدري إن كان حسين يهتم حقاً بمعرفة الفرق بين كل ذلك، وقد مات راحلاً ولم يخبرني بسر الرائحة المألوفة الغامضة والضيافة الباذخة غير المعتادة.

فاتني أن أذكر أني عثرت على حصيرة مدّت تحت أرجيلة حسين على قصاصة كتب عليها:

"نحن أبناء التعب، علكتنا المرحلة في أرضنا، فجئنا لمهاجر ننوي أن نطوي بها المراحل المقفرات بعيداً عن النظام الذي يشوي أهلنا وأحبتنا في جحيم الخير والرافدين والنخيل، والمرحلة تأبى أن تنتهي، آه ه ه ه كم كرهت المرحلة!"

آراك/ مخيم إبراهيم اباد إيران - ربيع 2002

سميّة العذراء والكهنة

وثيقة الزواج هي اعتراف ضمني صادر عن كل الناس بسلطة الكاهن المستمرة على حياتهم بعد عصر ديانات التوحيد. دون هذه الوثيقة تصبح علاقات الرجال بالنساء، زنى وبغاء ودعارة وعهراً وخروجاً عن العرف وقوانين المجتمع. ولذلك قصة روتها لي سميّة في بروكسل.

عرفتها على فيسبوك منذ سنوات، وظننتها متزوجة، حتى فاجأتني قبل أشهر بقدومها من أرض روسيا الباردة إلى بروكسل عند أختها الموظفة في مفوضية الاتحاد الأوروبي. واتصلت بي على مسنجر فيسبوك حيث طالما تحدثنا، وعرضت أن نلتقي في بروكسل لنتعرف على بعضنا أكثر. وكان العرض غريباً بالنسبة لي، فأنا غارق في العمل، ومن الصعب أن افرّغ نفسي لصداقات يومية عابرة، حدث ولا حرج صداقات تقليدية تدور في إطار جلسات عائلية، فاعتذرتُ بانشغالي المزمن، وهو لم يكن تذرّعاً بأعذار واهية قط، ثم عرضتُ عليها من باب المجاملة فقط، أن تزورنا هي وزوجها هنا في ألمانيا.

كتبت لي سميّة العبارة الخالدة على فيسبوك" هههههههه" والتي تعني في الحقيقة ضحكة طويلة والتعبير الصحيح عنها "هاهاهاهاهاه"، ثم قالت" كيف؟ أنا لستُ متزوجة" وأردفت بكل شجاعة "أنا عانسة!"

وتوقفتُ هنيهة عن الاسترسال معها، هي أولا كتبت عانسة ولم تكتب الوصف العربي الصحيح "عانس"، وثانياً هي اعترفت بكل شجاعة بأنّها عانس، وهذا نادر جداً بين الشرقيات، ولكنّ الذي لفت نظري أكثر جهلي بهذه الحقيقة وجرأتها في طلب اللقاء بي رغم أنها ليست متزوجة.

بعد يومين كنتُ في بروكسل، والتقينا على الغداء في فندقٍ أنيق بالحي الدبلوماسي في عاصمة الاتحاد الأوروبي. وقوف السيارة لمدة يوم كامل يكلّف هنا 50 يورو، والليلة في الفندق باهظة حقاً، لكنّ فضولي لمعرفة ما تريد أو ما تخفي أنساني كل التكاليف. وهكذا التقينا في صالة فندق ماريوت برسل، وانتبذنا منه زاوية لن نضطر فيها إلى الهمس ولا إلى الصريخ، بل نتحدث بهدوء عراقي طبيعي!

المفاجأة الأولى أنّ عمرها قارب الستين، لكن نضارتها في الحقيقة تعطيها أقل من خمسين عاماً من العمر، لاسيما أنّ ثوبها الأحمر الأنيق القصير كان يشف عن خصر ضامر، وساقين رشيقتين بضتين بيضاوين بلا تجاعيد.

دون مقدمات قلتُ لها: أنتِ، وبهذا الجمال والمرتبة العلمية والذكاء والقدرة المالية والاستقلال كيف بقيتِ بلا زواج؟

فاجأتها صراحتي، فتراجعت في كرسيها تتطلع في وجهي من خلف عويناتها الأنيقة، وقالت: بقيتُ دون زواج لأني كنت أخاف الرجال، الرجال يريدون من النساء شيئاً واحداً واضحاً، أما النساء فيردن من الرجل حياة مضمونة، وربما كنتُ لحوحة مدققة في مطلبي فلم أتفق مع رجل. تقدّم لي كثيرون ومررتُ بقصصٍ تشبه قصص الحب، لكني كنتُ دائماً أنأى بنفسي عن الخوض في تجربةٍ معهم."

قلت بلا تروٍ وبنوعٍ من الغيظ" بل كنتِ متعجرفة متكبرة، فأنتِ سليلة آل فلان من جهة الأب، وآل علان من جهةِ الأم، وكلتاهما سلالتان عراقيتان معروفتان متنفذتان متعجرفتان، وأرجّح أن أمك قد زرعت فيكِ روح التعفف المختلطة بالعجرفة البيوريتانية فهي طالما اعتبرت" الجنس نجس."

توقفت عن شرب العصير مبهوتةً بوقاحتي غير المعهودة، ثم ابتلعت ما في فيها، وقالت بهدوء ملحوظ "أمي لم تحدثني عن الجنس قط، ولكننا طالما اعتبرناه تابو محرم في الأسرة!"

وتنبهتُ الى أني محتدٌ معها بلا سبب، وسارعتُ معتذراً بلطف مشفوع بابتسامة معلناً رغبتي في أن تأخذ هي زمام الحديث، لاسيما أنّها هي من طلبت اللقاء.

استرخت وهي تراني أتراجع عن الهجوم، وبدأت تحدثني بالضبط عن وحدتها في روسيا الباردة، وانشغالها الممل بعمل روتيني يومي ولساعات طويلة يقتل فيها الرغبة في الحياة، ثم وصلنا الى النقطة الحرجة، وقالت" قرأتُ كتابك، وعرفتُ أنك كنت جليساً تستمع إلى الناس وخاصة من أسميتهم "أهل القمة" وتسجّل قصصهم، وهكذا تراءى لي أن نجلس معاً وأروي لك قصتي."

وانتظرتُ أن تنتقل في حوارها إلى منعطفٍ خطير، لكنها مضت قُدماً في شرح تفاصيل حياتها اليومية، راجعةً إلى ذكرياتها في جامعة بغداد، وفي لندن حيث نالت الماجستير قبل سنوات طويلة، وصارت تسرد وقائع تخلو من أيّ إثارة بالنسبة لي، وبدأ الممل يدب إلى نفسي. أنا لم اقطع 250 كيلومتراً، دافعاً كل هذه التكاليف لأسمع سرداً عادياً لوقائع يومية في حياة امرأة.

بعد نحو نصف ساعة من السرد الرتيب، ومن سكوتي المفروض بقوةِ الأدب والفضول الصحفي، لم تقل سميّة شيئاً ذا شأن، القصة القديمة المعهودة نفسها، عانس جميلة ما زالت فيها لمسة أنوثة، تقضم أيامها بحسرة وهي ترى الحياة تمضي بسرعة، ولا أمل لها سوى انتظار نهاية سعيدة في دار المسنين! وهكذا كان عليّ أن أستعيد وقاحتي المعهودة لأقول لها: ولكن كل ما تذكرين سببه رفضك للرجال، أنتِ بدأت متكبّرة عليهم، ثم في منتصف المسافة شعرتِ بالخوف، فحاولتِ التراجع لكن نجاحكِ المهني وضعكِ فوق كلّ من كانوا حولك، ثم وصلتِ إلى مرحلة الكهولة فبات الرجل حلماً. لا يرضى أيّ رجل شرقي بامرأة في الستين، الشرقي الذي يبلغ الستين من العمر يبحث عن امرأة في الأربعين، وهكذا فقد

ضاعت الفرصة، لكني لم أفهم حتى الآن كيف لم تستمر علاقاتكِ بالرجال خلال هذه العقود من العمر؟

ابتسمت بحياء، ونظرت إلى حذائها المشبّك الأنيق وعدّلت طرف فستانها الأحمر ثم قالت: علاقاتي كلها لم تكن جادة، أنا ما زلت عذراء، عذراء في الستين، فكيف تريد علاقاتي أن تستمر، من ينظر إلى عجوز في الستين ويغادر الجميلات الحسناوات في محيطه؟.

قلتُ بهدوءٍ حامٍ: ولكن كان عليكِ أن تدركي القطار يا عزيزتي، لا أعرف تفاصيل رفضكِ ولماذا ترفّعتِ عن الرجال، أو لماذا تباعدتِ عنهم، لكنّ المشكلة تكمن فيكِ حتماً وليس فيهم."

قالت بلغة مستسلمة: لا أريد علاقةً خارج الزواج، حرام، أنا أخشى الله وأرفض الزنى!

وقع جوابها مثلُ صاعقة على وعيي، فمن ظننتُها خارج مظلة الأعراف تُسمّي علاقتها الطبيعية بالمذكّر زنى، بلغة الكاهن، وتطلب وهي في الستين علاقة مؤطرة بوثيقة الكاهن، وقلت لها كل ذلك لها بنَفَسٍ واحد وكأني أهجم عليها بلا هوادة، فردت بهدوء:

يا صديقي العزيز، الرجل يريد من المرأة الجنس أولاً ثم الحب، والمرأة تريد الحب أولاً، ثم تمنحُ نفسها للجنس، والفرق كبير بين الحالتين، إذا مارست المرأة الجنس دون حب وزواج، فهي دعارة، والمرأة تكون ببساطة "عاهرة"، وأنا ارفض ورفضت طول عمري أن أكون عاهرة.

وبهدوء مصطنع قلت لها: وهكذا قضيتِ عمرك بانتظار بركة الكاهن ووثيقته، أنتِ بهذا قد عطلتِ أهم أعضاءكِ، وهي أعضاء الحياة والإرضاع...كلّ ما عدا ذلك هو سفسطة، الكاهن قد انتصر عليكِ وسلبكِ حقكِ في الحياة، أليس ظلماً أنكِ لم تجربي طعم العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة، فقط لأنكِ تبحثين عن ذلك في أطار وثيقةِ الكاهن؟

لماذا تسميها وثيقة الكاهن، هي عقد زواج؟

هذا العقد هو امتداد لسلطة الكاهن قبل عصور ديانات التوحيد، وبعد ظهور الديانات تحولت السلطة من الكاهن الى القس والشيخ والسيد والرابي وما الى ذلك، وهم يصدرون الوثيقة التي تقرر أنّ الرابطة بين المرأة والرجل هي زنى، أم زواج...هذا منتهى التسطيح. إذا كان الله خلق الرجل والمرأة ليتكاملا ويتزاوجا، فما دخل الكاهن وسلطته بينهما؟ كيف قبلتِ أن تسلمي مصير جسدكِ وكنوزه إلى كاهنٍ محتال جاهلٍ يتلاعب بمصائر الناس إرضاء لمصالحه.

كنتُ أرى ما لا تراه، فباتَ حوارنا مثل حوار العميان، هي في وادٍ، وأنا في وادٍ، وقررتُ أن أضع حداً للقاء، فقلتُ لها أني قد جعت، ولابد أن نتناول الغداء، فكان هذا، وبانتهاء الوجبة التي لم يتخللها سوى جمل قصيرة مثل برقيات منقطعة عن المتن، وضعتُ نهاية مبتسرة للقاءٍ كان يمكن أن يقود إلى نتائج باهرة، لكنّ سلطة الكاهن غير المرئية اسقطت كل

شيء، وباتت سميّة في نظري، إحدى أصدقائي الخمسة آلاف على فيسبوك، يمكن في أيّ لحظة أن اتخلى عنها، وتصيرَ جزءاً من ماضٍ سأنساه سريعاً في عصر العولمة.

بون - ألمانيا 2017

غناء سميرا الناصري على شاطئ دجلة

بعد الحرب وجدتُ نفسي على قارعة الطريق، يحدثُ هذا غالباً غبّ الحروب. وبحثت عن عمل في غمرة ركودٍ اقتصادي وانهيار فاحش في قيمة الدينار، فكان ما وجدته عملاً بائساً هو ليس أكثر من جسر بين حربين، لكنّ خير ما في ذلك العمل أني عرفت سميرا.

على عطفة نهر دجلة حول بناية جامعة بغداد في الجادرية، ترسو بضع طرّادات قديمة، يستخدمها الصيادون غالباً كبيوت لهم. بين هذه الطرادات، طرّاد حوّلته سميرا إلى بيت أنيق رشيق بطريقتها، ولم أتخيل قط أنّ طرّادً عتيقاً من عصر الانكليز يمكن أن يصبح بيتاً، لكنّ سميرا خرقت كل شيء عرفه الناس هنا، وقد حاولت مراراً أن أقنع نفسي أن كل ما يتعلق بها يمكن أن يحدث لأيّ عراقية، لكنّ الوقائع تخيب توقعاتي دائماً.

لطراد سميرا نوافذ أغلقتها بألواح من بلاستيك صلب شفاف سميك لا يشفّ من خلفه سوى نور، وعلى أرض المكان فرشت حصراناً من بردي ليّن مضفور بشدة إلى بعضه وكستها فوق ذلك ببسط عراقية، فيما غلّفت مصاطب الجلوس الخشبية بالإسفنج وشدت عليها جلد صناعي أنيق، فباتت منصات تصلح للنوم أو للجلوس. مقدمة الطرّاد، تحولت إلى مطبخ أنيق ينير جانبيه قنديلان من قناديل العربات القديمة، باتت تضيئهما كلما زرتها فينبعث من لهيبهما عطر لا أخاله عطر لهيب النفط ولعله عطر قناديل الزيتون!

كما اقتطعت مؤخرة الطراد، حيث كانت حجرة الموتور القديم، بجدارٍ خشبي أنيق صنعته بيدها وطلته بالفارنيش وكوته بالنار فبات أصفر كأنه قصب مشرّح. خلف القاطع، حمام ومرحاض نظيفان بشكل ملفت للنظر. النور يعم المكان، وهو ما يدل على أنها قد أوصلت له تياراً كهربائياً، كما تجري المياه في الحمامات والمراحيض من حنفيات أنيقة تنتمي لعصور الانكليز. جدران الطراد العارية تحولت إلى معرض لكل ما يتعلق بالموروث البغدادي، مطارق قديمة، أقفال وسلاسل، ربلات عجلات عربات قديمة، سروج وأرسن الخيل، طبلات صغيرة "زنجاري" ودفوف دراويش كبيرة، وقصب الناي والمطبج وقد توسطها عود أنيق صنع من خشب مطعم كما صناديق النرد التي تفد إلى أسواقنا مهرّبة عبر الأردن من أسواق القدس العتيقة. لا توجد مساحة فارغة على الجدران. كل ذلك بذوق رفيع، لا أدري كيف وأين تعلمته سميرا السمّاكة بنت السماك.

جلست إلى مصطبة يكسوها جلد قرمزي داكن، وأزاحت البساط عن حصيرة بردية سميكة ملونة، ثم طوت البردية، فبان مسقّف زجاجي على أرضية الطراد يطل على مياه دجلة، وسألتني هل أرغب في رؤية سرها الدفين؟ فأجبتها بلهفة أن الأسرار تسحرني. بادرت تطفئ أنوار الطراد، وتضيء أضواء مسلطة على الأرضية الزجاجية. وبان عالمٌ ساحرٌ يصعب وصفه: خميلة من البردي والقصب فيها مخلوقات ناعمة تحوم بين الماء المفعم

بلون الغرين وبين ضفة رسا إليها قارب سميرا، السمك هنا يشبه لوحة من صدف ولكنه لا يشبه المحار بل يتحرك جيئة وذهاباً محتشداً تحت سيل النور وهو يُساقط عليه من أعلى.

ذهلتُ لهذا كله، ورفعت رأسي أنظر في وجه سميرا وهي مسحورة بنوبة وجدٍ صوفي تسلل إليها من دجلة، فسألتها بلهفة: من أنتِ يا سميرا؟ هل أنت سمّاكة تصيد وتبيع السمك على ضفاف الشط في الأعظمية مع أبيها، أم أنتِ شيء آخر لا عهد لي به؟

قالت وهي مغمضة العينين: أنا سميرا الناصري، أتى بي الموج إلى بغداد في عصور سحيقة، وبقيت أنطر موجة كبرى تعيدني من حيث أتيت.

هل أنتِ من الناصرية؟ لقب الناصري في بلادي ملتبس، فهو يطلق على ساكني الناصرية حين ينتسبون للمدينة هرباً من ألقاب القبائل الملوثة بدماء الثأر والمعارك، أو هو لقب قبيلة ألبو ناصر وهم قبيلة الندا في غرب العراق وتحديداً في تكريت، وهو كذلك لقب فخذ من قبيلة كعب جنوب العراق، فإلى أيها تشيرين؟ أم لعلك تشيرين إلى الناصرة في بلاد الكنعانيين؟

قالت هامسة: أنا أيضاً لا أدري، هكذا وجدت نفسي مذ ولدت.

ولم لا تسألين أباك وهو سمّاك بغدادي عريق؟

هذا ليس أبي، بل زوج أمي، وقد عشت معه بعد إذ رحلت أمي وأخي ابن أمي.

نهضت من مجلسها المسحور والتقطت من جدار قريب عوداً بدأت تعزف عليه وتترنم بصوت رقيق نشيداً لم أسمع مثله، مفعماً بالعواطف الغامضة والتوقعات، لكنّ الربّ قريب منه كما لو أنه نزل إلى صومعة كنيسة، رب الكنائس لا يشبه الله الذي ينزل في باحات المساجد.

أنا بنت سليمان الناصري، جاءني حبيبي في ليلة عشق

ليقبلني بقبلات فمه لأنّ حبه أطيب من الخمر،

يا حبيبي لرائحة أدهانك الطيبة أبذل روحي

وأفدي محبتي لاسمك وهو دهن مهراق.

لذلك أحبتك العذارى وسرقنك مني لأني فقيرة

خذني إليك واجذبني وراءك فنجري،

نبتهج ونفرح بك يا مليكي

أتذكر حبك وهو ألذّ من مذاق خمر السهول

صمتت سميرا، وأسندت العود منكفئاً على فخذيها مثل ربابة غابت عن الوعي، ونظرت في عيني وسألتني بلهجة تشتاق إلى المعرفة: ومن أنتَ أصلاً كي أبوح لك بأسراري؟

اسمي أمير علي، ولدت في بغداد على ضفاف دجلة، وكبرت في العاصمة المتعبة، ومشيت مع من مشى إلى الحرب، وبين ليلة وضحاها، تحولت من نقيب يقود مئات الجنود في حرب الدفاع عن الوطن، إلى عاطلٍ عن العمل، فابتعت شاحنة صغيرة بقرضٍ عليّ سداده، وتعاقدت مع ثلاثة مطاعم كبرى لتجهيزهم بالغذاء وما يتصل به من فواكه ولحوم وحلوى، وهذا لا يشبه تجهيز المستشفيات والسجون ورياض الأطفال بالأغذية، فهنا يجب عليك أن تنتقي خير ما في السوق، وهذا يحتّم عليك أن تنتقي محلات تتبضع منها كل يوم. وذات ليلة في ربيع عام 1989 حيث عقد في بغداد مؤتمر وزراء الداخلية العرب، وطُلب مني على عجل أن آتي للمطعم التاريخي بعشر سمكات سمانٍ، شوين بطرفة الزبير ويعبقن بمذاق ورائحة المسكوف العراقي الشهير.

وبنصيحة عمو جورج الذي يعمل في المطعم بعنوان جوكر، وهو خمسيني قضى عمره يعمل في مطاعم وفنادق الدرجة الأولى كعامل يومي ينجز الأعمال الصعبة ومن بينها طلبات الزبائن الخارقة للمألوف كما هو الحال اليوم، سرت بشاحنتي الصغيرة باتجاه الأعظمية! ثم سألته أليس مكان المسكوف هو أبو نؤاس، فأجاب ضاحكاً نعم، هذا سمك السكارى، وهو غالي الثمن وصغير، نحن نبحث عن سمك كبير طازج كبير، سر إلى رأس سوق الأعظمية عند جسر الأئمة.

سرت والشك يراودني، فوصلنا الساحة المقابلة لمسجد أبو حنيفة، وغمرتنا أضواء المحلات والمقاهي، ورائحة اللحم والكباب والكبد المشوي ورائحة المسكوف. قادني بحذر حتى وصلنا الشارع المحاذي لدجلة والذي يتصل بناحية الفحامة، وعند الركن المقابل تماماً للمسجد والمطلّ على دجلة في ركنه الثاني، وجدنا محلاً يبيع السمك، فترجّلنا عنده، وتعاملنا مع البائع ثم نزلنا معاً إلى حافة دجلة، منذ عشر سنوات لم أر دجلة في الليل بهذا القرب. رائحة الماء المفعمة بزفرة أعشاب وأحياء الماء والسمك الحي تعم المكان، والأضواء تنعكس من ضفة الاستخبارات، ومن ضفة أبو حنيفة في الماء الجميل، يالها من مفارقة. وانتخبنا عشر سمكات سيسرن إلى حتوفهن الأنيقات ذبحاً بيد السماك وشياً على نار حطب الطرفة.

ذبح السمّاك بسرعة كل السمكات، فيما تولت سميرا تقشيرها من الصدف وتمليحها وسكفها على الحطب، لم أر امرأة تقوم بمثل هذا، وفوق ذلك كانت امرأة خارقة الجمال. وهو جمال غريب شرب كثيراً من مياه نهر دجلة وغرينه، فباتت بشرتها خمرية اللون، لكنّ شعرها كان أسود مختلطاً بحمرة غريبة، يبين من خلف ربطة رأس صغيرة لا لون لها، تحمي الشعر من كل هذا الزفر والدخان.

تبسمت سميرا وهي تنظر لي، وقالت: لعلك تظنني عاشقة متيمة بك؟

توهج في قلبي أملٌ بقرب الوصول إلى واحتها الدافئة فقلت: أليس من حق من يعيش في هذه الصومعة الأسطورية أن يعشق وتعصف به الصبابة.

ربابا.. ربابا.. يا أمير، ربابا، لك ولي أن نعشق ولكننا سنعشق مثل شقتين من حبة واحدة، اريد أن أعشقك كابن أمي الذي فقدته في ليلة تشبه ليل الكريستال البرليني الدامي.

وفي سبت آخر، تكرر المشهد، فرحت لمحل سميرا ولم أجدها في العمل فابتعت سمكاً كثيراً، وعدت به لمحتفلين في المطعم العريق العتيق. تلك الليلة، كانت اوركسترا الجالغي البغدادي الصغيرة تعزف فيما تغني مطربة تلفزيون معروفة على المسرح وقد ارتدت لباساً اندلسياً أصفر بلون ورد النرجس. صدحت الموسيقى بصوت عالٍ فتصدعت قارورة زينة من الآجر القديم في المبني الذي يتجاوز عمره 500 عام، وتساقطت القارورة في إحدى زوايا المكان، لكنّ الموسيقي الصادحة والجمع الطربان لم يسمعوا صوتها، وهكذا يندثر التاريخ بصمت، وكنت شاهداً عليه.

في الثانية ليلاً، غادرت المكان، وشدني شوق غريب لطراد سميرا، ودون اتفاق ذهبت إليه وقرعت نافذة الطراد التي ينوس من خلفها ضوء واهن، ففتحت لي وهي ترتدي جلباباً مغربياً مطرز الصدر والسوالف حول الساقين، المكان مضاء بقنديلي الكيروسين المعلقين على مدخل صوان الحمام. افسحت لي ودعتني للدخول وهي تقول: كنت أنتظرك، وتوقعت هذه الليلة أن تزرني، قلبي مع قلب ابن أمي في زورق واحد.

قادتني بصمت إلى نفس المشهد الساحر الذي ضمنا في المرة السابقة، وكشفت عن مسقف الكريستال الأنيق ثم أضاءت أنوار عرس السمك تحت زورقها المسحور وانتزعت العود الأنيق من الجدار، وبدأت تغني:

لا تشتهيني، فأنا سمراء وجميلة حقاً فكن معي يا ابن أمي،

يا بنات أورشليم أنا مستورة كخيام قيدار كشقق سليمان

لا تنظرن إليّ لأني سمراء، فالشمس قد لوّحتني

بنو أمي غضبوا عليّ وكانوا جعلوني ناطورة الكروم

أما كرمي فلم أنطره فسرقه الغزاة

وهربت مع الموج إلى أرض بابل.

قل لي يا من تحبه نفسي: أين ترعى أين تربض عند الظهيرة؟

وأسألك بلا حياء يا ابن أمي: لماذا تخفيني بقناع عند قطعان أصحابك؟

فتجيبني ببلاهة من لم يفهم: إن لم تعرفي أيتها الجميلة بين النساء

فاخرجي على آثار الغنم وارعي جداءك عند مساكن الرعاة!

لست راعية غنم يا ابن أمي بل راعية سمك، وقد أغدر به

فأصطاده وأذبحه وأشويه وأبيعه للعابرين،

إنها مهنتي التي اقتات بها،

فلا تخف مني يا ابن أمي الحبيب

السمك لا قلب له، فلا يحزن أما أنا فأحزن حين تغيب عني. *

بقينا حتى هلّ الفجر بنور ربيع عراقي دافئ، فغادرت الصومعة دون أن اترك ميعاداً التقي فيه بسميرا، فقلوبنا ستأتي بنا مرة أخرى.

لقاءاتنا كانت تجري دائماً في جوف الليل البهيم، ولكنّ تلكم الليالي البريئات كنّ ألذ من العسل. وحلّ صيف قائض، وفي ليلة مقتل الحسين بن علي، انهارت أحلام العراقيين، فقد اشتعلت حرب جديدة بغزو مفاجئ للكويت. لم يكن قد مضى عامان على حرب السنوات الثمان. فعمّ اليأس النفوس، واجتاحت حملات السلب والنهب أرض الكويت وخزائنها، وكنّا لا نجد خبزاً ولا صابوناً نغتسل به. وأعادني النظام إلى خدمة العسكر. هذه المرة كانت وحدتي على الحدود التركية العراقي في دهوك. وسمعت من معارفي أن عمو جورج قد سقط من أعلى بناية مصرف الرافدين التي كان يجري ترميمها، إلى جوف القبو المسلح تحته، فاخترقت قضبان الفولاذ المستخدمة لتسليح الكونكريت جسده وقتلته على الفور!

في إجازتي الدورية زرت صومعة سميرا، والوضع يزداد سوءاً بعد أن خلت جيوب الناس من كل شيء، فرأيتها تريد أن تهرب من دجلة إلى بلد لا تعرفه، وكانت تفكر بتركيا.

وكنت أعرف رجلاً من أهل قرية آرادن التي سحقتها السلطة في عمليات الأنفال، وفي غفلة من السلطات والزمن ولأنّه ماهر في الطهي وصنع الخمور، فقد اشتغل الرجل طباخاً في قصر صدام حسين بمصيف أنشكي أقصى شمال غرب البلاد. وبات يتقاضى أجرا كبيراً، وفي خدمته سيارة حديثة كبيرة. حين التحقت من إجازتي إلى وحدتي، ذهبت إليه في قصر أنشكي، وسألته إن كان يستطيع تهريب امرأة إلى تركيا، وله من الأجر ما يشاء. بعد أيام زارني في مقر الفرقة، وأبلغني أن بوسعه أن يفعل ذلك، مقابل 5 آلاف دولار، وهو مبلغ باهظ جداً في تلك الأيام المرة.

في الإجازة التالية، عرضت عليّ سميرا ما قاله الرجل، والمبلغ الذي طلبه، فرحبت بالعرض، وقالت إنها ستبيع الطراد كما هو بمبلغ قريب من هذا. بعد شهر بدأت الحرب الدولية وانهالت الصواريخ على البلد، وكنت في مأمورية إلى بغداد، فزرت سميرا في الطراد فرأيته مغلقاً معتماً، ثم زرتها في محل السمك، فوجدتها قد باعت الطراد وجهّزت المبلغ وتنتظرني لتذهب بعيداً في سفرها الأخير إلى المجهول. ولم يكن ثمة سبيل لنقلها إلى دهوك إلا بنقلها معنا في سيارة الواز العسكرية، وهكذا كان، فألبستها ملابس جندي وقصّرت شعرها، وأخفت صدرها، ولبست حذاء الخدمة الأسود الغليظ، وسافرت معنا. الخراب عمّ البلد، فضعفت قبضة السلطة، وكان الجميع يحاولون النجاة بأنفسهم، وكل نقاط التفتيش والسيطرة ما عادت تهتم للسيارات العسكرية، بل تهتم بجباية الرشاوى من سيارات الحمل، ولهذا وصلنا عصر ذاك اليوم بسلام إلى دهوك، ثم إلى قصر انشكي، فوجدت

الرجل مستعداً كما وعدني. وكان عليّ أن أترك سميرا عنده، فاستلم منها المبلغ وأخذها إلى بيت أهله في سرسنك.

غادرت سميرا البلد بعد يومين كما قال لي طباخ الرئيس، وسلمني رسالة قصيرة منها، جاء فيها: "نقف الآن على مرتفع صخري فوق بقايا قرية بامرني، سنعبر حين يعم الظلام حدود تركيا، معي صديقك ورجل آخر لا أعرفه. كل شيء على ما يرام حتى الآن. آمل أن نلتقي في يوم ما. أودعك وأدعو لك بالسلامة. أختك سميرا".

غناء سميرا هو مقاطع من سفر نشيد الانشاد من الكتاب المقدس، وقد تصرفت بها بما يناسب معاني القصة.

صباح شوكت عرار – قصة نجاح جائر

صباح ونيران، ثنائي ساحر يروي حكاية
من كواليس المجتمع الارستقراطي البغدادي في سبعينيات القرن العشرين، الأنيق الوسيم صباح، أشقر رشيق القوام يتنقل بسيارة أمريكية برقم إدخال كمركي مؤقت، في زمن مُنع فيه استيراد السيارات الأمريكية للعراق، ونيران سيدة عالم المنصور المخملي الصاعد، شقراء أنيقة دافئة ساحرة الجمال ومطلقة تتنقل بسيارة مرسيدس برقم ترانزيت خليجي.

التقى الاثنان في نادي الصيد الذي نشأ حديثاً ليلمّ أبناء السلطة الوافدين من بوادي تكريت والرمادي والموصل ويتيح لهم صناعة عالمهم الأنيق الباذخ. وهكذا كانت نيران تقضي ليالٍ على موائد رئيس نادي الصيد صباح ميرزا مرافق صدام حسين حين كان نائباً للرئيس، وتخرج في رحلات صيد مع الدائرة القريبة من رجال الخط الأول في سلطة العراق الصاعدة آنذاك، فيما يقضي صباح ليالٍ حمراء مع البنات التي يدرن في فلك متع أهل القمة في العراق.

منذ طفولته كان صباح شوكت عرار وسيم الملامح أنيق المظهر، وهي صفات ساعدته كثيراً في التقرب من أهل القمة بمرحلة كان النظام السياسي في العراق يتشكّل فيها بوضوح. ولم تكن لغة صباح العربية تخفي أصوله التركية وهو المتحدر من عائلة سكنت في مدينة أنطاليا المطلة على البحر الأبيض المتوسط حيث ما زال أقرباء أبيه يعيشون هناك، وغالباً ما يزورهم في عطل الصيف ويقضي بضع أسابيع عندهم كما يفعل كل الأتراك لتأكيد هويتهم القومية.

من أبيه التركي ورث ملامح الوسامة والنيافة، فجاءت أناقته ومظهره الجميل قريبة جداً لبطل السينما الفرنسية آلان ديلون الذي تألق في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، لاسيما أنّه يقلده في طراز ملابسه وأحذيته ونظاراته الطبية والشمسية، ومن أمه التركية ورث الجرأة المفرطة ومفصليات المجتمع المخملي التركي والعربي، وبين الوراثتين كبر صباح في مدارس الأردن والعراق.

ومن أغرب ما يميز هذا النتاج العولمي الفريد التباس هوياته وتداخلها، فأمه طلقت منذ عهد بعيد من أبيه التركي، ثم تزوجت سياسياً من فلسطين يعيش في الأردن ويحمل جنسيته، ثم وفدت العائلة التركية الفلسطينية الأردنية إلى عمان، ليدرس صباح وأخته الصغيرة كريمان في مدارس الأردن، ويتعلما العربية والانكليزية. والنقلة الأكبر جاءت حين تولى الأب منصباً كبيراً في القيادة القومية لحزب البعث في العراق، وانتقل مع العائلة المركبة ليعيش في أرقى أحياء بغداد مرفهاً كأبناء الطبقة الارستقراطية وبنفوذ يفوق نفوذ أبناء هذه الطبقة سياسياً في عراق بداية سبعينات القرن العشرين.

حين وصل إلى العراق، كان صباح يحمل شهادة الاعدادية الأردنية، وكانت عربيته ضعيفة مضحكة وانكليزيته متعثرة ركيكة إذ لا وقت عنده للدرس والتحصيل، ولا يحتاج أن يجهد نفسه في التعلم، فالطريق سالكة أمامه نحو القمة.

قضى صباح عرار عاماً يدرس الهندسة المعمارية بجامعة بغداد، وحيث أنه كان من أضعف تلامذة مدرسته الثانوية في عمّان، فقد فشل في فنون المعمار وضاع عليه العام الدراسي، ولم يخرج من كلية الهندسة سوى بشلة ارستقراطية تعزز نفوذه في المجتمع المخملي البغدادي. وبناء على نصيحة من أحد رجال السلطة، انتقل ليدرس في كلية القانون والسياسة في قسمها المسائي الذي افتتح عام 1969 خصيصاً ليضم أغلب رجال الخط الأول في السلطة، وهم لا يملكون تأهيلاً جامعياً أصلاً رغم وصولهم قمة الهرم السياسي، ومكث صباح معهم أقل من شهر، لكنّ عربيته الركيكة لم تسعفه في فهم لغة القانون، علاوة على أنّ جهله بشؤون السياسة الدولية جعله أغبى طلبة صفه بامتياز. وهكذا توسط له "الجماعة" فقُبل في كلية الآداب قسم اللغة الانكليزية وهو أهون الشرور لأنه يعرف إلى حد ما الانكليزية التي تسود مناسبات المجتمع الارستقراطي المصنوع التافه، وقد يساعده ذلك على النجاح، وهكذا كان.

في قلب الأعظمية سكن صباح شقة لا يتساءل أحد كيف حصل عليها، الشقة في عمارة مملوكة لمديرية الأمن العامة التي تؤجر الشقق لنوع خاص من المستأجرين بمبالغ رمزية. تحت الشقق دكاكين بنفس المواصفات، وكانت مشكلة صباح هنا، أين يضع سيارته البلايموث قرمزية اللون؟ فشوارع الأعظمية مكتظة بالسيارات ليل نهار، أما الأزقة فتتسع لسيارات أهل المحلة بصعوبة بالغة، فما بالك بسيارات سكان العمارة العجيبة المطهمة الكبيرة؟

وجاء الحل من كلية العلوم، فقد حصل على كارت أزرق يستخدمه اساتذة كلية العلوم لإدخال سياراتهم إلى كراجات الكلية الضيقة في الزقاق المؤدي إلى كورنيش الأعظمية خلف بنايات الكلية، وباتت البلايموث القرمزية تقف دائماً مع سيارات المرسيدس المعروفة ب "الكفاءات" الخاصة بالكوادر التدريسية.

كل عام يرتقي صباح صفاً بقدرة خفية غير مرئية، وحين وصل المرحلة الرابعة النهائية في الكلية، سحبت أمه منه سيارته لتجبره على الدرس والتحصيل، كان راتب الموظف خريج الجامعة آنذاك نحو 90 دولاراً، أما صباح فكان يتقاضى منحة الاقسام الداخلية للطلبة الاجانب المتضمنة أجور السكن وقدرها 210 دولار شهرياً، رغم أنه يسكن في شقة بالأعظمية على حساب مديرية الأمن العامة! وهكذا كان يعيش بمستوى مدير عام رغم أنّه طالب في الجامعة!

في نهاية أيار عام 1979 ذهب صباح مع شلة تضم أردنيين وفلسطينيين وعراقيين وأتراك وسوريين في سفرة إلى الحبانية، ورافقته نيران في سيارته القرمزية الفارهة (التي اتاحت له أمه بشكل استثنائي استخدامها في تلك الرحلة)، فيما جاء كل مسافر بصديقته. وسافرت

المجموعة بأربع سيارات خاصة، كلها بأرقام "إدخال كمركي مؤقت"، وعلى شاطئ الرمال والمياه المالحة، تمدد الجمع مغنياً راقصاً مصفقاً، ولكنه لم يكن الجمع الوحيد الذي يحتفل بالربيع، فقد توزعت مجموعات متعددة يفوق عدد أفراد بعضها 40 شخصاً على طول الساحل الرملي، تغني وترقص وتأكل وتشرب، تلك مرحلة مرفهة مسترخية بلا هموم من تاريخ البلد الدامي الذي طالما خرّبه الساسة الحاكمين.

بين الجمع، انفردت امرأة فلسطينية اسمها "ابتسام ال..."، لم تكن تملك كثيراً من سحر الأنوثة وجمالها، بل هي مربعة الوجه، يريم على ملامحها قلق وضيق مستدام، وفي ملابسها حرص أكيد على إظهار مفاتن الأنوثة بشكل مبالغ فيه، وكانت تدرس ضمن بعثات جبهة التحرير العربية التي يدعمها حزب البعث الحاكم في العراق أكثر من باقي التنظيمات الفلسطينية.

ابتسام لم تكن تنتمي إلى رجل معين بين المجموعة كما هو حال باقي النسوة والبنات المصاحبات لشبان الجمع، بل كانت في الظاهر تنتمي إلى مرحلة سابقة في حياة صباح، ومرحلة عابرة في حياة زياد وهو أحد قياديي جبهة التحرير الشعبية، هذا غير ما هو معروف عنها من تعدد الصداقات العابرة، فوق أنها دخلت الجامعة وهي مطلقة. ابتسام امرأة لكل الرجال، وهذا يروق للرجال، لكنه لا يروق للنسوة المصاحبات للمجموعة المرحة، فهي تشكل تهديداً مسلّطاً عليهنّ في كل لحظة بعلاقاتها العابرة السريعة. وهذا كان سبباً في أن يتطور ذلك اليوم خلاف واضح بين صباح وبين وزياد وبين عمرو وهو أحد كوادر جبهة التحرير العربية، وكان يعد نفسه مسؤولاً عن ابتسام في الجانب السياسي.

طيلة اليوم، ما برح صباح يعبّ الجعة مع نيران، ويمازح ابتسام بطريقة فاحشة علنية. قبل أن ينال منه الثمل، كان مزاحه يقتصر على قفشات تحرص ألا تكون جريئة مكشوفة لكنها تلمّح إلى المحرمات، لكن تأثير الشمس والطعام والوفير، والعوم المتقطع رفقة جسد نيران وجسد ابتسام أو جسديهما معاً غيّر من نبرة المزاح وتدنى به إلى ما تحت البكيني الأصفر الفاقع الذي ترتديه المطلقة الفلسطينية.

أطلق مروان لعبة جماعية ساخرة مضحكة، شارك فيها الجميع لعباً وضحكاً، وفي الجولة الثانية انتخب مروان ابتسام لتقف وسط الحلقة وتصبح بطلة اللعبة، الاختيار سلط أنظار الجميع على تكورات جسدها وهو يتقلب بينهم بالبكيني الأصفر، لاسيما أن صدرها النافر كان يوشك أن يقفز خارج حمالة البكيني المختصرة أثناء حركاتها الراقصة الثملة بين المجموعة.

ولم يتمالك صباح نفسه بعد أن نال منه المرح والجعة، فمد يده "مازحا" يتلمس مؤخرة ابتسام أمام أعين الجميع وهو يصرخ "يا زوبعة يا لوبعة والعصافير الأربعة" ليمر بأصابعه التي تبركت باللمسة المثيرة على وجهه في إشارة داعرة. تلك العبارة يقولها مدير اللعبة ليرددها معه البطل المنتخب الواقف في الوسط بينما يمران بأصابعهما على أسفل صحن معفّر بالسخام مملوء ماء يحمله بيده، مرددين العبارة المضحكة وهما ينقلان أصابعهما من

أسفل الصحن ليمسحا بها وجهيهما. صحن مروان لم يكن معفّراً بالسخام، وحين يمر عليه وعلى وجهه بأصابعه لا تظهر أية آثار، بينما الصحن الذي كان بيد ابتسام كان أسفله معفّراً، وهكذا ومع كل لمسة من أصابعها على وجهها كان ترتسم ملامح مسخّمة تثير ضحك الجميع وهي لا تدرك ما فعلته بوجهها، لكنّ حركة صباح الجسورة فرضت صمتاً مفاجئاً على المشهد، أجبر ابتسام أن تصفعه بشدة صارخة "حيوان قليل الأدب"! لتخرج مسرعةً خارج الدائرة، بينما قامت رنا العراقية تساعدها لتهدئ انفعالها، وتمسح عن وجهها آثار السخام. وحين أدركت ابتسام أنها قد أضحكت الجمع ببلاهتها بسبب السخام، وببذاءة موقفها بسبب تحرش صباح العلني بها، اجهشت بالبكاء بصوت عالٍ، وانسحبت بعيداً مع رنا إلى ظل مدخل إحدى كابينات الساحل المهملة المغلقة.

تهدّمت أركان اللعبة، وتكهّرب الجو مشحوناً بمشاعر غضب غامضة، فقفز عمرو الفلسطيني مؤنباً صباح، ومركّزاً تأنيبه بشكل أكبر على نيران صديقته باعتبارها قد أهملت مراعاة حالة صديقها الثمل فتحرش بابتسام بشكل بذيء، ودفع هذا نيران إلى أن ترد بعنف "أنا لست زوجة صباح ولست مسؤولة عن تصرفاته، إنه رجل ويعرف حدوده، المرأة هي من تردع الرجال عنها، اعتب على ابنة بلدك إذاً! "

والتفت عمرو يكيل المزيد من الكلمات الجارحة لنيران وصباح، فاشتعل الموقف وتطور إلى اشتباك بالأيدي بين صباح وبين عمرو. عمرو بالطبع يعرف قوة صباح ومن يقف خلف ظهره، لذا لم يتمادَ في التهجم عليه، وهذا شجع صباح على التهجم على عمرو لحد النيل من صديقته السورية وفا ونعتها بصفاقة جارحة بوصف "الدبّة" في إشارة إلى بدانتها المفرطة.

اشتبك الرباعي في معركة كلامية، تبادلوا فيها الشتائم، وكشفوا عن فضائح يعرفها كثير من الحاضرين، لكنهم لا يعلنوها على الملأ حفاظا على كرامة البنات والنسوة، وحين انكشف الأسرار طالت شظاياها أطرافاً أخرى، فدخلوا على الخط بالجدل والتنابز بالشتائم، وكشف المستور، حتى آل الأمر مرة أخرى إلى أن يذهب صباح ويجر ابتسام من ذراعها عنوة إلى حيث يجلس الجمع ويسألها علناً أمام الجميع عن علاقاتها بفلان وفلان وفلان، ومن بينهم زياد الذي كان مولعاً بمؤخرتها؟

قفز زياد بلا تردد ولكم صباح في وجهه بشدة، وشتمه بقوة، ثم أخذ بذراع ابتسام بعنف واخرجها إلى حيث كانت تجلس صديقته رنا معها، فتفجّرت الأخيرة باكية وقد باتت وسط موقف لا تحسد عليه.

انهار الحفل المرح، وتفرّق الجمع مجموعات، وذهبت ابتسام بعيداً عنهم لتعوم وحيدة في مياه البحيرة خلف الصخور الملحية، حيث لا يراها أحد منهم ولا تراه، علّها تنسى الفضائح المتتالية التي طالتها وطالت كثيرين. ثم بدأ كل رجل ينفرد بصديقته سباحة أو جلوساً في ظلال الكابينات.

صباح ما فتئ يهدد زياد وعمرو وابتسام بصوت عالٍ تعززه سيول بذاءات تتدفق من فمه، لكنّ تهديداته لم تتحول إلى فعل حقيقي. ثم ترك نيران وحدها، وذهب خلف الصخور الملحية التي توارت خلفها ابتسام ليعوم لوحده أو ليواصل خلافه معها أو ليضربها أو ليصحح خطأه معها، لا أحد يمكنه أن يتكهن بما فعله صباح مع ابتسام، أو لربما بدونها، في الماء لأكثر من ساعة خلف الصخور الملحية، وهي منطقة يسبح فيها عادة النائب صدام حسين وعائلته حين يزورون البحيرة فتصبح منطقة محرمة على السابحين، لكنهم لم يكونوا موجودين، فباتت المنطقة مباحة للجميع.

عاد صباح لوحده منهكاً من العوم في نور الشمس بعد أكثر من ساعة، وطلب بغضب واضح من نيران أن ترافقه لرحلة العودة، فلبسا ملابسهما في داخل سيارته، ورحلا دون أن يودعا أحداً ودون يذهب معهما أيّ من الآخرين.

جرت الرحلة التي انتهت بمشاجرة في أول يوم عطلة استمرت ثلاثة أيام، وعاد الجميع إلى الجامعة والعمل يوم السبت، لكنّ ابتسام لم تعد، ثم شاع الخبر بعد يوم أن ابتسام قضت غرقاً، ثم تسربت شائعات أخرى أن ابتسام ماتت قتيلة، ولم يفهم الطلبة الذي تسربت لأسماعهم تلك الشائعات حقيقة ما جرى، لكنّ من شاركوا بتلك الرحلة المشؤومة حامت شكوكهم الحائرة حول صباح وعمرو بالذات، هل غرقت "ابتسام ال..." أم ماتت قتيلة؟

صباح الذي كان في عين العاصفة، كان عليه أن يجتاز الامتحانات النهائية ليتخرج هذا العام، ولكنّ الفاجعة شغلته عن كل شيء. وانقضت أيام شهر أيار بين تحقيقات واستدعاءات، وعلاقات متشابكة بين مكاتب المنظمات الفلسطينية في بغداد، وبين مكتب فلسطين في القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي وبين أجهزة الأمن والشرطة العراقية. ومرت العاصفة بسلام، وأغلق ملف القتل على أن السيدة "ابتسام ال..." فلسطينية الجنسية قد قضت غرقاً لأنها كانت ثملة!

نهاية ذلك العام، تخرّج صباح شوكت عرار ليشتغل مباشرة بوظيفة باهرة في مشروع ASKWA وهي منظمة غامضة كانت تنوي الأمم المتحدة أن تنشئها في بغداد، ولم يتم انشائها إلا في عام 1987 قرب مطار صدام الدولي، لكنّ صباح تمكن أن يجد فيها وظيفة ثابتة وهي في مرحلة التكوين! ولابد من التوضيح هنا، أنّ صباح الداخل في كواليس المشهد السياسي المعقد في العراق، لم يعانِ من حرب قادسية صدام، لأنه لم يكن عراقياً، فيما ذهب أغلب العراقيين الذين عرفهم إلى ميادين الحرب ولم يعودوا قط إلى بيوتهم، ذهبوا وهم يرددون النشيد الشهير "أحنا مشينا مشينا للحرب" الذي لم يفهم صباح شوكت عرار معناه بدقة.

عام 1991 وبعد غزو العراق للكويت، غادر صباح وزوجته (وهي ابنة أحد الساسة الأتراك) العراق، ليعمل في مكتب الأمم المتحدة بأنقرة، وفي عام 1996 شارك بشكل فاعل في تنفيذ اتفاقات النفط مقابل الغذاء التي أنقذت الشعب العراقي من الجوع بسبب الحصار الدولي المفروض على صادرات وواردات البلد. صفقات النفط مقابل الغذاء مرتّ

كثير منها عبر مكتب صباح عرار، وحين اسقطت الولايات المتحدة الأمريكية نظام صدام حسين في 9 نيسان 2003، كان صباح قد تحول إلى وظيفة دبلوماسية باهرة في مكتب الأمم المتحدة في عمّان وعادت صداقاته مع الأردنيين والفلسطينيين عليه بنفع كبير.

أحال صباح عرار نفسه إلى التقاعد عام 2019 براتب شهري قدره 3 آلاف دولار، وبجواز سفر دبلوماسي يحتفظ به مدى الحياة، وانتقل ليعيش في فيلا أنيقة ابتاعها في مالطا التي تملك وتدير فيها زوجته التركية فندقاً نشيطاً مطلاً على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وما زالت أسرار كثيرة تختفي في جعبته العجيبة.

بون 2020

طريق شامل البغدادي إلى القمة

أتمّ دراسته المتوسطة في عام 1968 وبعد شهرين وقع انقلاب 17 تموز 1968، وتغيرت مقدّرات العراق، لينشأ شامل البغدادي وأسرته في ظل حكومة البعث بقيم تناسب التغيير.

شقيق شامل الأكبر واسمه عادل دخل الكلية العسكرية في عهد حكومة البعث التي كانت تشجع تلاميذ المدارس على الانخراط في سلك الضباط، وكان الإقبال عليه ضعيفاً إلى درجة أن وفوداً من مديرية التوجيه السياسي كانت تزور المدارس وتشجع التلاميذ بمختلف الطرق على الانتساب إلى الكلية العسكرية. في هذا الوضع، أنجز عادل دورة سريعة وتخرج عام 1971 برتبة ملازم.

شقيق شامل الثاني واسمه كامل، استفاد من مناخ الانفتاح والكسب البعثي السريع، فنجح وهو خريج الفرع الأدبي في أن ينتمي الى المعهد الدبلوماسي، وكلية القانون والسياسة المسائية التي كانت تضم كبار قيادات الدولة البعثية، وتخرج معهم ليشغل وظيفة هامة غامضة في وزارة الخارجية.

هذان الشقيقان مهّدا لشامل مداخل واسعة للحياة العملية، وهكذا فقد انخرط في تنظيمات الاتحاد الوطني مبكراً، وقد اغرته التنظيمات في أن ينتسب إلى دورات مفوضي الشرطة السرية ودورات نواب الضباط الفنية السريعة، حتى أن أخاه عادل، أبلغه بإمكانية انتسابه إلى دورة نواب ضباط الاستخبارات الأولى ما سوف يسرع دخوله إلى المجال العملي وهو في سن صغيرة، إلا أن عشق شامل للقراءة وطموحه لمستقبل غير عادي جعلاه يرفض تلك الفرص، ويواصل الدرس للحصول على شهادة جامعية.

شيء في تكوين ووعي شامل كان يدفعه إلى التفرد في مواقفه، ربما فسره البعض بأنه قبح في شكله، وقد يلمح آخرون إلى أنّه خلل في تكوينه البنيوي، وللحقيقة فإنّ شامل لم يكن جميلاً في عرف كثيرين، فهو قصير القامة لا يتجاوز طوله 160 سنتمترا، وجهه تطغى عليه عينان بالغتا السعة بلون نرجسي، تلتف أهدابهما بشكل فاضح على حاجبين غليظين متصلين، يختصران جبيناً صغيراً يضيق تحت شعر كثيف صلب، أما ما تبقى من الوجه فصغير يكاد يذوي في مساحة العينين والجبهة الضيقة.

كل ما في جسده صغير قصير، مساحة صدره وظهره قصيرتان، كتفاه ليسا عريضين مثل أكتاف الرجال، ساقاه قصيران صغيران، يتناسبان مع طول جذعه، لكنهما لا يضفيان عليه مظاهر رجولة طاغية. وللاستعاضة عن هذا، أطلق شامل شاربين غليظين، غطيا ما تبقى من وجهه الناحل الصغير وأضفيا عليه ملامح رجولية صارخة، وعلى كل حال، فقد كان هذا سائداً بين الرجال في سبعينات القرن العشرين.

كانت الفرص تنساب أمام شامل من مختلف المصادر، فرص عمل، فرص سفر، فرص دراسة، لكنه كان ينتظر فرصة كبرى وعده بها غسان المسؤول الكبير في الحزب ذات ليلة، ولا يعلم بها أحد غيرهما وينتظرها بشوق. إنها فرصة عمل ستخلصه من تهديد قانون الخدمة العسكرية الجديد، وتفتح أمامه آفاق ثراء وجاه ونفوذ كبرى.

في تلك الليلة سهر شامل وغسان في مقر القطاع الطلابي حتى العاشرة، وأغلقاه معاً وغادرا إلى حانة الشاطئ الجميل بالسيارة التويوتا لاند كروزر بلونيها الأبيض والأحمر والتي تحمل رقم" منظمات"، شربا معاً 4 زجاجات جعة، ثم غادرا الكازينو الصيفي الشهير على شاطئ أبي نؤاس إلى شقة يسكنها غسان وقد أجرها له الحزب من الأملاك المجمدة، بإيجار رمزي مضحك، حيث أنّه يدفع 10 دنانير شهرياً (30 دولارا آنذاك)، لشقة تطل على دجلة مقابل المجلس الوطني ويصل إيجارها الحقيقي إلى 120 ديناراً (360 دولارا) في الشهر في وقت كان راتب خريج الجامعة لا يتجاوز 75 دولارا في الشهر! هذه الشقق كانت تؤجر للرفاق الحزبيين لأنها تقابل الضفة التي تستقر فيها الحكومة في كرادة مريم، وبهذه الطريقة تكسب سلطة البعث شيئين، فهي تضمن أن سكان الشقق المقابلة للقصر الجمهوري والمجلس الوطني والمنطقة الرئاسية كلهم من البعثيين وغير مشكوك في ولائهم، وفي نفس الوقت، فهي تضمن أن ولاء هؤلاء سوف يتعاظم بحصولهم على مثل هذه المساكن بذلك الإيجار البخس.

أخذ غسان دوشاً وخرج عارياً إلا من شورت قصير ليجلس في الصالة أمام جهاز التكييف، ويبدأ بتهيئة العشاء الذي اشتراه له ولرفيقه المراهق، فيما بقي شامل يتأمل من خلال الواجهة الزجاجية الفسيحة أضواء دجلة والمجلس الوطني في الضفة الأخرى. وناداه غسان ليذهب إلى الحمام، فدلف وأخذ دوشاً وتعطر، ثم ارتدى شورتاً قصيراً من شورتات مكدسة على رفوف المنيوم على جدار الحمام الأنيق، وجاء يجالس غسان، لينقضّا على العشاء الشهي.

في اليوم التالي، غادر غسان الشقة مبكراً لارتباطه باجتماع حزبي هام، فيما تأخر شامل بالنوم حتى العاشرة، ثم استيقظ وأخذ دوشاً، وتناول إفطاره وغادر إلى مدرسته، ليبدأ يوما من الدرس واللقاءات الحزبية. في تلك الأيام لم يكن يتاح له أن يبيت في بيت أهله إلا لماماً، ولا يزيد ذلك عن ليلة أو ليلتين في الأسبوع، وكانت عادة ليلة الخميس حيث يسافر غسان إلى أهله ويعود ليلة الجمعة أو صبيحة السبت.

شامل يتقدم سريعاً في كل شيء، في ظرف سنة، بات مسؤولاً عن 5 حلقات حزبية من الأنصار والمؤيدين، وهو مازال تلميذاً في الصف الخامس الإعدادي، متفوقاً بسرعة على رفاقه، لكنه في نفس الوقت، كان حريصاً على الدرس والمثابرة قدر ما يتاح له الوقت، مقسّماً أيامه بين الحزب وبين المدرسة وبين المبيت مع غسان في شقته الأنيقة، وكان هذا المبيت يسهل عليه التنقل والوصول إلى المدرسة وأماكن الاجتماعات والقطاع الطلابي. وفي بعض الأيام، كان غسان يبيت في الشعبة الحزبية في شارع النضال للقيام بواجبات

الخفارة، فيذهب شامل لوحده ليبيت في الشقة بعد أن أعطاه غسان نسخة من مفاتيحها. ذاكرته اليافعة تلوّنت بأجواء تلك الشقة الجميلة الأنيقة وموقعها الساحر، حتى أنه بدأ ينسى بيته وأهله، أما شقيقاه عادل وكامل، فلم يعد يلتقيهما سوى بعض أيام الجمع وليس دائماً، إذ كان يمر شهر كامل دون لقائهما أحيانا، الجميع مشغولون ببناء المستقبل المنتظر في أيام التكوين تلك.

اشتدت في تلك الأيام الحملة الأولى لتسفير التابعيات الإيرانية، وكان غسان مكلّفا بإعداد القوائم المطولة وتنظيم الأولويات، ومعه تعاون شامل، مستفيداً من معرفة عتيقة باللغة الفارسية تحدرت إليه من جدته لأمه وقد كانت إيرانية الأصول. الحزب كان يعلم بذلك، وغسان على وجه الخصوص كان هاجس هذه المعلومة يؤرقه، لكنّ صداقته الحميمة جداً مع شامل، وذكاء الأخير وكفاءته واخلاصه لشامل وللحزب، كانت سبباً في تقدم شامل وليست عنصرا يؤخر ارتقاءه الصاروخي إلى القمة.

حلت مهرجانات الشبيبة العالميّة، بالاشتراك مع اتّحاد الطلبة الدوليّ (الشيوعي) الذي أقام حلقات دراسيّة في آسيا وإفريقيّا والعالم العربي والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينيّة وأوروبّا، وكان شعار الاتّحاد طوال هذه السنوات: "نضال الشبيبة ضدّ الإمبرياليّة"، توجت الفعاليات بمهرجان الشبيبة الدولي الذي عقد في برلين (1973) ودُعي الاتحاد الوطني لطلبة العراق والاتحاد العام لشباب العراق للمشاركة فذهبوا بوفد من أطياف الجبهة الوطنية، ضم البعثيين والشيوعيين والكرد، وكان غسان وشامل ضمن الوفد، ومثّل ذلك نقطة تحول في حياة شامل، فقد فتحت الرحلة أمامه آفاقا خرافية، واستطاعت عينه المتيقظة أن تسجل كل تفاصيل التجربة الشيوعية، بايجابياتها واخفاقاتها.

كان شامل قد دخل الجامعة المستنصرية في العام الدراسي الذي سبق رحلة برلين، وتناقص نشاطه الطلابي والحزبي إزاء تزاحم دروسه في اللغة الإنكليزية وآدابها، وهو التخصص الذي أصرّ عليه صديقه ورفيقه غسان، مؤكداً له أن مستقبلاً مشرقاً ينفتح أمامه في الجمع بين النشاط الحزبي والتفوق الأكاديمي، وفعلاً كان شامل متفوقاً على أقرانه.

الشيء الغائب في مسيرة نجاح شامل كان المرأة، فالبنات في المنطقة أو القطاع الطلابي أو الجامعة لا يبدين أي اهتمام به، رغم أنّه كان حريصاً على الأناقة والنظافة والترتيب وتنظيم حياته.

الزميلات في الجامعة والرفيقات في الحزب، كنّ يجاملنه، وكن يظهرن له الود، وصرن بمرور الوقت يأتمنّ نواياه، وربما كان هذا هو سبب عدم تخوفهن من نواياه الذكرية. هو يريدهن إناثاً، وهنّ يتعاملن معه كصديق أمين للإناث، لكن هذه الصداقة تذيب حاجز الخوف الأنثوي الغامض من الذكر والذي يجعل أغلب النسوة ميالات للرجال في هذا الجانب. كانت معادلة صعبة حقاً. فهنّ يروين له تفاصيل علاقاتهن العاطفية مع رجال آخرين، لكنهن لا يتحن له أن يقاربهن كذكر!

وكان يروي لغسان معاناته كما هي مع النسوة، فيسرّه غسان بمعاناته هو أيضا مع النسوة، مؤكداً له أنّ الموضوع ربما يتعلق بالزمن، فلا بد أن يمر زمن على شامل، ليثبت للإناث أن ذكورته جذابة مخيفة مثل ذكورة باقي الرجال. وربما كان هذا ما يحتاجه غسان أيضا، فهو أكبر من شامل بعشر سنوات، لكنّ ميل النساء له كان محدوداً لسبب لم يدركه، فهو أنيق المظهر نسبياً متمكن اقتصادياً، ذو نفوذ سياسي، وقوته مؤثرة في حياة الآخرين، لكن لا امرأة في حياته، وعلاقاته بالإناث تقتصر على العاهرات وراقصات الملاهي.

هذه الفجوة مع النسوة، مثلت نقطة سوداء في حياة شامل، واكتشف بمرو الأيام أنّها نقطة سوداء في حياة صديقه الحميم غسان أيضاً. ومن خلال عمليات الجرد الحزبي لبيوت المنطقة، لتصنيف من لهم أقارب مسفرين أو سجناء أو معادين "للحزب والثورة" بمرتبة "مراقَبين"، اكتشف شامل إنعام، الجميلة البيضاء الساحرة ذات التسعة عشر عاماً التي سفّرت السلطات مؤخراً شقيقتها وزوجها وابنيهما إلى إيران بسبب تبعية الزوج، فباتت الأخوات الأخريات وسائر الأشقاء تحت المراقبة، ومن خلال المراقبة تعرف شامل على إنعام شخصياً، واستطاع أن يحظى بموعد للخروج معها، فاكتشف فيها عرجاً خفيفاً بسبب قصر في ساقها اليمنى، وهو أمر شكّل نقطة سوداء في حياتها. وأدرك شامل بذكائه وبمرارة فادحة أنّ هذه العلة والنقص المعيب هما سبب قبول إنعام به!

تطورت علاقتهما، وتحققت بينهما لقاءات عدة، وبات شامل مغرماً بالبنت ذات العيون العسلية، وصارا يتبادلان العناق والقبلات في لقاءاتهما، ثم تطور الأمر إلى أن يرتب لقاءاته معها في شقة غسان، والتقى الأخير بها، وأدرك مدى تعلق صديقه اليافع بهذه البنت، واعتاد أن يغادر الشقة حين يأتي بها شامل، ويفسح لهما خلوة عارمة.

عام 1976 كان منعطفاً حاسماً في حياة شامل، اذ تخرج من الجامعة في نفس العام الذي دخلت فيه إنعام إليها، ورغم تدني معدلها فقد استطاع أن يؤمن لها قبولاً في كلية التربية، وكان قبولاً حزبياً يختص بالبعثيين. ولم يكن قد مضى عليها في التنظيم أكثر من عام، لكنّ جرى قبولها بسبب حاجة الحزب الملحة الى الكوادر النسوية.

في هذا العام أنجز غسان وعده، فوجد لشامل بعد شهر من تخرجه، وقبل أن يساق إلى الجيش وظيفة ممتازة في "مكتب السيد النائب". الوظيفة كانت في قسم العلاقات الخارجية بالمكتب، وتتصل بتشغيل ومراقبة كوادر الترجمة العاملين في المكاتب المرتبطة بالمكتب الخاص. كان واضحاً أنّ الحزب من خلال صدام حسين يتجه إلى إنشاء "رئاسة المخابرات العامة" لتكون مؤسسة قريبة من أعلى هرم السلطة وتأتمر مباشرة بأوامر النائب. من خلال هذه الوظيفة بات شامل قريباً من القمة.

كان راتبه كبيراً جداً مقارنة برواتب خريجي الجامعات، وخصصت له سيارة فيات 132 من انتاج عام 1975 جديدة لتنقلاته وايفاداته. والأهم من هذا وذاك، اعفاؤه بشكل مطلق من الخدمة العسكرية، بشرط أن تمضي على خدمته في المكتب الخاص 25 سنة. أي أنّه لو

أبعد عن المكتب الخاص قبل بلوغ خدمته المدة المنصوص عليها، فإنّ عليه أن يساق إلى العسكرية ليخدم المدة المقررة لأقرانه.

فوق كل هذه الامتيازات، فإنّ وظيفته تحتم عليه مرافقة عشرات الوفود المسافرة الى بلدان غربية واشتراكية، وهذا المرافقة ذات شقين، أحدهما وظيفي والآخر رقابي، في هذه الإيفادات يحصل شامل على مخصصات تصل إلى 120 دولاراً في يوم الإيفاد الواحد، هذا غير اقامته في فنادق الدرجة الممتازة، وتنقلاته مع الوفود بأفخم السيارات.

رويداً رويداً بدأ شامل يتخطى النقطة السوداء في حياته، فعلاقته بإنعام الجميلة اتخذت مساراً جدياً، لاسيما بعد أن التقى بأمها، وشقيقتها الكبرى، ثم دعاهم غسان جميعاً لحفلة في نادي الصيد أحياها مطربون إيرانيون بينهم الجميلة ذات الصوت الأسطوري غوغوش التي جننت العراقيين في تلك الزيارة، ونسرين وعبد الستار وغيرهم.

بعد السهرة، أخذ شامل إنعام وأمها وأختها بسيارته إلى بيتهم، فيما ذهب غسان إلى شقته على أن يلحق به شامل بعد أن يوصل ضيوفه.

قرب الساعة الرابعة صباحاً، عاد شامل إلى الشقة، وفوجئ بأنّ غسان، جالس يشرب بانتظار وصوله، وفي داخله، أسعده هذا الانتظار. أخذ دوشا سريعاً، ونضا عنه ملابسه، وارتدى شورته الأسود الأنيق الذي جاء به مؤخرا من رحلة لليابان، وجاء يجالس غسان، لاسيما أن الغداة هو يوم جمعة ولا عمل لديهما، فيمكنهما النوم ما شاءا.

وشرعا يحتسيان الجعة الهولندية، فيما أبدى غسان اعجابه بإنعام وعائلتها، ثم ما برح أن قال لشامل بصوت عميق فيه كثير من الجدية: "شامل، لا تفكر في الزواج من إنعام**!** اتخذها صديقة، وأمض معها أياماً جميلة، لكن لا تتمادى وتتزوجها**!**"

استغرب شامل من طلب صديقه الكبير، لكنه خال في نفسه أنّ غسان يغار منه بسبب انعام، وما لبث أن قال مجيباً وهو يبتسم "يا صديقي الحبيب، لا أرى فيها عيباً، وهي مخلصة، وقد فعلت لأجلها الكثير، كما أنّه لا توجد امرأة أخرى في حياتي".

ابتسم غسان بإعياء وقال: "كل هذا لا يبرر الزواج بها. الطريق أمامك مفتوح يا صديقي، أنت قريب من القمة الآن، ولا أظن أن الدائرة التي تعمل فيها ستوافق على زواجك منها".

صعق شامل، وبادر يسأله بلهفة: هل تتدخل الدائرة بزواج المنتسبين؟ نحن لسنا ضباطاً، بل موظفين مدنيين**!**

ضحك غسان، وسارع يدلق في كأس شامل مزيداً من الجعة وقال: أنتم أهم الآن من أي ضابط، وضع في حسابك أنهم لن يسمحوا لك بالزواج منها، أختها مسفّرة يا ولد**!** أختها مسفّرة...يعني قريبتها من الدرجة الأولى. لا تكن متهوراً أحمقاً. إن ذهبت إنعام، فسوف تحظى بعشرات النسوة خيراً منها. لا تكن مراهقاً**!**

نظر شامل ببلاهة في وجه صديقه، لقد مضى على علاقته به أكثر من خمس سنوات، ولم يره بهذه الجدية قط، فسارع يجيب بقلق ظاهر: يصير خير يا حبيبي، أنا أسمع نصائحك المفيدة دائماً.

بعد أسبوعين سافر شامل مع وفد من الطاقة الذرية إلى فرنسا، وأمضى في باريس ومدينة ليل مدة أسبوعين متنقلا بكثرة مع الوفد، لاسيما أن معدات مهمة كان يفترض أن يشحنها الوفد على العراق، قد تعرضت إلى النسف في المجمع الذي خزنت فيه، وهذا خلق أزمة أخرت عودة الوفد اسبوعاً كاملاً.

عاد الوفد الى بغداد عبر رحلة مركبة، اضطر أعضاء الوفد خلالها إلى تبديل الطائرة في مطار مالطا، ثم اتجهوا إلى بغداد بطائرة الشرق الأوسط، ليصلوا العاصمة في نحو الساعة الثالثة ظهراً.

بعد إتمام إجراءات الوصول والتفتيش، اشترى شامل زجاجة كونياك "هنيسي" وزجاجة ويسكي "أولد بار"، واشترى زجاجة عطر جوب غالية الثمن وربطة عنق حرير أنيقة وحزاماً من الجلد بماركة شهيرة لصديقه الحبيب غسان من السوق الحرة، وقرر شامل أن يعود بحقائبه المحملة بالنفائس والهدايا إلى الشقة، ليُخلي بعض الحاجات هناك ثم يأخذ سيارته التي تركها في مرآب العمارة ويذهب الى البيت بعدها.

نحو الساعة الخامسة والنصف، فتح شامل باب الشقة بهدوء، وادخل الحقائب فانتبه إلى أصوات تنطلق من غرفة نوم غسان التي كان بابها مواربا غير مغلق. أنصت بهدوء، فتناهت اليه تنهدات شخصين يغرقان في قبلات وعناق في الفراش. تعجب للأصوات، وأدرك أن مع غسان امرأة، وتبسّم لهذا الخاطر، ثم سار في اتجاه يمر من أمام الباب المواربا، عله يلتقط نظرة من المرأة التي يضاجعها غسان. كان النشاط الجنسي لأي منهما موضوعاً غير محظور بينهما، وبوسعهما الخوض فيه بلا حرج. لذا تعجب شامل أن لغسان صديقة لم يحدثه عنها، ثم تدارك الأمر في خواطره ليحسب أن المرأة قد تكون عاهرة جاء بها غسان، وتشوّق شامل أن ينظر إلى ما يفعله صديقه مع النساء، فاقترب من باب الغرفة المواربا، وتطلع من الفتحة فرأى غسان قد نام فوق فتاة صغيرة الجسم تتأوه تحته بتلذذ ظاهر، وخال لوهلة أنّه يعرف تلك التأوهات، ثم نظر فجأة إلى أرضية الغرفة أمام السرير، فلفت نظره حذاء نسوي خاله مألوفاً، ودقق النظر في جسد المرأة العارية وهو لا يرى وجهها، ثم عاد بنظره إلى الحذاء النسوي، فصعقه أن كعبي الحذاء غير متساويين، فالكعب الأيمن أكثر ارتفاعا من الكعب الأيسر...هكذا هي أحذية إنعام التي تستخدمها للتخفيف من عرجها!

صعقه هذا الهاجس، وبقي متسمراً في وقفته، متردداً ماذا سيفعل، وكيف ستكون الخطوة التالية، وكيف سيتأكد أنّ هذا الجسد الذي يتمرغ مع غسان في مخدعه هو جسد حبيبته إنعام!؟ هل هذا ممكن؟ كيف يفكر غسان أن يخونه، ولماذا؟ بعد كل هذه السنين، لماذا يخونه غسان مع أقرب النساء له، مع زوجة المستقبل!؟

وتزاحمت الهواجس في رأسه، وتصدرها تحذير غسان له قبل أسبوعين بعدم الزواج من إنعام، هل لهذا التحذير علاقة بما يجري؟ هل طوّر غسان علاقته بإنعام قبل أن يحذر شامل، أم جرى الأمر بالعكس، ويحذره غسان لأنه يريد أن ينفرد بإنعام؟؟

وقرر شامل أن يتصرف، فتسلل داخلاً إلى الغرفة، واقترب من الجهة اليمنى للسرير، حيث كانت الفتاة تدير وجهها فيما يمرغ غسان وجهه تحت أذنيها وفي رقبتها بسيل من القبلات اللاحسة. هاله أن الفتاة هي إنعام فعلاً، وقد تناثر شعرها البني المائل للشقرة على وسادة الفراش، واقترب من السرير، ولمس ذراعها العارية برفق، فتأوهت دون أن تنتبه، فأعاد مسح ذراعها برفق صاعداً بيده إلى نهدها العاري تحت قبضة غسان، فتنبهت إلى أن يدا غريبة قد امتدت إليها، وفتحت عينيها لترى برعب شامل واقفاً امامها يتأمل لحظتها العاهرة مع أقرب أصدقائه، فسارعت تدفع عنها غسان وهي تهمس في أذنه اسم شامل بسرعة، نهض غسان عارياً وقد امتشق مسدسه الذي كان قد خبأه تحت وسادة السرير، ثم استدار عارياً باتجاه شامل، فتراجع مذعوراً وهو يرى الغضب بادياً على وجه صديقه، وما لبث شامل أن سحل إنعام من ذراعها، وألقى بها إلى أرض الغرفة، وسارع يركلها، فنهض الفتاة مرعوبة وهي تصرخ، فسارع غسان يدخل بينهما والمسدس بيده، صارخاً في وجه شامل "اهدأ شامل، اهدأ، عليك أن تهدأ، هذا طبيعي، هل نسيت ما قلته لك، اهدأ وسأشرح لك الأمر لاحقاً"!

لم يهدأ شامل، لكن انعام نهضت من رقدتها على الأرض، وركضة عارية إلى الكنبة لتضع ملابسها حول جسدها فسارع شامل يضربها، واقترب منه غسان ليضربه بفتور بكعب المسدس على كتف يده اليمنى فتراخت قبضته، ثم سارع يضربه مرة أخرى بكعب المسدس على ظهره برفق، عدة ضربات، حتى تسرب الألم إلى كتفي شامل وتراخت قبضته، فسارعت إنعام ترتدي ثيابها على عجل، وقبل أن تغادر بصق عليها وقال لها: اخرجي يا ساقطة، ارجعي إلى الشارع الذي جئت منه، كنت أفكر أن أتزوجك...يالي من أحمق، أنت رخيصة جداً، اخرجي يا ساقطة".

عانقه غسان العاري والمسدس في يده ليسكن غضبه، ثم أخذ راسه بين يديه، وضمه إلى صدره، وهو يقول: اهدأ يا شامل، اهدأ وسأشرح لك كل شيء، اهدأ فالأمر ليس مخيفاً كما تظن!"

خرجت انعام وأغلقت الباب خلفها، وبقي الموقف متشنجاً بين الصديقين، ثم فارق غسان صديقه، وسارع يرتدي سروال بيجامته، وعاد ليجلس إلى جنب شامل الحزين المصعوق وقال: حذرتك يا شامل وقلت لك إنها ليست مشروع زواج، وأوضحت لك أن مكتب النائب لن يوافق على زواجك منها، لكنك لم تأخذ كلامي مأخذ الجد. إنّها عابرة سرير يا صديقي، نامت وستنام مع عشرات الرجال، وهي لا تليق بك، ولا يمكن أن تصبح زوجة لك.

بكى شامل بحرقة، وتساقط الدمع مختلطاً بالغضب، ثم قال بصوت يائس: هل فعلت هذا عمداً لتبعدني عنها؟

ابتسم غسان بمرارة وقال: وهل كنت أعرف أنك عائد اليوم من باريس، ومن أين لي أن أعرف توقيت وصولك مباشرة هنا إلى شقتي؟ وكيف أجازف بتحطيم مشاعرك بهذا الشكل؟ لا تعش في أوهامك ودعني أوضح لك ما جرى. بعد سهرتنا في نادي الصيد، اتصلت بي إنعام وطلبت مني أن أجد وظيفة لأخيها سمير، وظيفة تخلصه من العسكرية وهو ما زال طالباً راسباً في المرحلة المتوسطة، فتوسطت له وعينته سائقاً في مكتب وزير الصناعة، ليكون قريباً من طه الجزراوي وقد يعفيه هذا من الخدمة العسكرية، بعد هذا، وحين كنت مسافراً التقيت بها مرة في كافيه بغداد، ومرة في مطعم سراب بمنتزه الأوبرا وتطورت العلاقة إلى ما رأيته. يا صديقي الحبيب لو كانت تحبك ما فكرت أن تخونك مع أقرب الناس اليك!

كان شامل ساهماً يبكي وهو يلتقط أنفاسه بشدة، فسارع غسان يملأ له قدحاً من الجعة الهولندية الباردة من الثلاجة، وعاد إليه فعانق رأسه ووضع كأس الجعة على الطاولة، وقال هامساً: يا صديقي دعني أقول لك شيئاً بوضوح، عليك أن تختار بين صداقتنا وبين زواجك من إنعام، لن أسمح لك أن تتزوج بها، وبما أني لا أملك سلطة عليك سوى سلطة الصداقة، لذا ها أنا أقول لك بوضوح، أما هي أو أنا؟ هل أنت مستعد للتضحية بصداقتنا لأجل امرأة ساقطة ستفقد مستقبلك برمته بسببها؟

نظر إليه شامل متحسراً كسيرا وقد تعرّق وجهه غارقاً بالدمع، فنكس غسان رأسه وقال متحسراً: انها ليست زوجتك يا حبيبي، بل امرأة عابرة في سريرك، لا تحمّل الموضوع أكثر من حجمه؟ لو كانت فعلاً ستصبح زوجتك، هل تراني أقبل أن أخونك معها؟ لا تخلط الأمور يا صديقي العزيز!

وانتهى ذلك العام بتعيين غسان قنصلاً تجارياً في دولة عربية خليجية، فيما ارتقى شامل في وظيفته، وبات مدير عام في مكتب النائب، واستمرت صداقته مع إنعام بعد أن رضي أن يشاركه فيها صديق عمره. وفي مستقبل بعيد، ستصدق نبوءة غسان وتفترق إنعام عن شامل بيسر وسهولة بالغة، فيما تبقى صداقته الحميمة بغسان عابرة للحدود والأزمنة والأماكن.

بغداد 1989

عالم فريد السراج وكائناته الجميلة

عالم فريد السراج يكاد يخلو من النساء،
فهو لا يعرف امرأة إلا أمه التي انجبته في ثلاثينات القرن العشرين ليكون الأوسط بين خمسة ذكور كبروا جميعاً بعد أن توفي الأب العجوز مبكراً وتركهم مع أمهم يصنعون مستقبلهم بطريقتهم وبجهودهم.

ولم يتعلم فريد مهنة السراجة من أبيه، ولا من أشقائه الأكبر منه وقد أتقنوها بعملهم المبكر مع أبيهم، فقد كان يكره رائحة الجلود والزنخ المنبعث عنها قبل دباغتها، كما أن موقع المسرجة خلف اسطبلات الكاظمية طالما كان يقرفه ويبعث في نفسه مشاعر النفور والاشمئزاز، لذا انصرف فريد منذ باكر طفولته إلى اهتمامات أخرى، كان من بينها، ريافة وغسل وكي الملابس والسجاد وحلاقة الشعر.

وباتت تلك المهن مصدر رزقه، حيث بدأ يرفو الملابس والسجاد في محل عريق بسوق الروافين بمنطقة خان الجبن، وتعلم الصنعة وهو في الثالثة عشرة من عمره من رواف يبلغ الخمسين كان قد كبر وما عاد بصره يعينه لريافة الألبسة والسجاد غالية الثمن، فالريافة تجرى لرتق ثقب في سجادة أو بدلة رجالية ثقيلة أو عباءة وقاط عرب، يتم ذلك عبر ما يُعرف بالسِدة واللُحمة، يتم ذلك حرفياً بترقيع ثقب السجادة أو قطعة الملابس الثمينة بخيوط متوازية من ألوان السجادة نفسها ويجب مراعاة اتجاه النسيج طولياً كان أم عرضياً ومواءمة تدرج الألوان ويكون العمل أصعب في قطع القماش الإنكليزي التي تصنع منها البدلات الرجالية غالية الثمن، أما اللُحمة فهي وصل واقفال نهايات السِدة بطريقة فنية دقيقة بحيث تكون خيوط نسيج الثقب قريبة أو مطابقة لألوان السجادة مع تحديد وحصر مكان الثقب بمراعاة الاشكال والنقوش أو شرائط التذهيب في العبي العربية والخليجية، ويُضطر الرواف أحياناً إلى تغبير المنطقة المرافة بالتراب والماء مع مثبّت لون، يجعلها تبدو قريبة من عمر النسيج الحائل في السجادة القديمة.

كل هذه الصناعة تجري في وضع الجلوس، وهكذا تعلم فريد وهو صبي نشيط فن الجلوس لساعات طويلة في الدكان الصغير والعمل في زاوية مضاءة بشدة. وبات استاذ الريافة في المحل بعد أن سلمه الأسطة كل مفاتيح الصنعة، لكنها كانت صنعة تحتضر، فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ السجاد المصنوع بالمكائن يتدفق على الأسواق بسعر رخيص، وبات رتق أي ثقب في سجادة من هذا النوع يكلف مبلغاً لا يتناسب مع سعر السجادة وهي جديدة، لذا يتجنب أغلب الناس رتق الثقوب، وكذلك الأمر مع البدلات الرجالية.

شعر فريد أن باب الرزق قد ضاقت وتوشك أن تغلق، وأدرك أن صاحب المحل سيضطر إلى تغيير صنعته، فصار يبحث عن صنعة أخرى، وكانت صنعة كي الملابس البخارية قد بدأت تدخل البلد، وانتشرت محلات الكي بالبخار النظيفة الكبيرة، فاختار فريد محلاً جديداً كبيراً في مدخل منطقة رأس القرية وانضمّ إلى صاحب المحل وابنه ليقوم بواجبات غسيل الملابس بالدرجة الأولى، لانشغالهما بالكي والتعليق. وتعلّم غسل وشطف الملابس في

حوض كبير، وكانت رائحة البخار المنبعثة عن المكواة العملاقة وهي تطبق على الملابس بين كفيها تسحره، خاصة وأنها تختلط برائحة مسحوق الغسيل تايد الإنكليزي الجديد ذي الرائحة العطرة التي تنبعث من الملابس بعد غسلها.

بعد بضعة أشهر جاء لهم صاحب المحل بغسالة كهربائية كبيرة ومعها معصرة من اسطوانتين ثقيلتين مغلفتين بالمطاط تمرر الملابس المغسولة بينهما فتضغط بتدوير الرولتين يدوياً ويخرج عنها الماء، فتصبح شبه ناشفة. لكن الغسالة والعصارة اختصت بالملابس الغالية، أما القمصان والشراشف والمناشف الكبيرة والصغيرة، فبقيت تُغسل وتُعصر وتُجفف باليد. ثم جاء صاحب المحل بعصّارة مصنوعة في الهند، أكبر حجماً وخصصها لعصر وتجفيف الشراشف والمناشف، وهكذا بات أغلب عمل فريد وقوفاً وحركة وضغطاً باليد على العصّارة، حتى نمت عضلات ساقيه وعضلات ساعديه دون أن يشعر.

***

بمرور السنين أتقن فريد العمل على المكواة البخارية، وكان صاحب المحل حريصاً على تطوير المحل، فجلب مرجلاً جديداً إضافياً يضخّ البخار للمكواة، كما جلب مكواة أصغر تختص بكي القمصان، وبات فريد يتناوب مع ابن الأسطة في العمل على المكواة الصغيرة.

وفي كل هذا، بقي عالم فريد خالياً من النساء، وكانت متعته الوحيدة وهو في عشرينات عمره أن يذهب أيام الجمعة إلى سوق الغزل ويراقب الطيور والحيوانات فيها، ويراقب الوافدين على هذا السوق، حتى صار له أصدقاء من بينهم، أصدقاء قريبين من نفسه وبعضهم يشاطره الأحاسيس لدرجة كبيرة. ثم تطورت علاقاته بأولئك الأصدقاء، بعضهم بعمره وبينهم من هم أكبر منه سناً وبعضهم أصغر منه سناً، فبات يصاحبهم إلى السينما، وكانت سينمات شهرزاد والرشيد وروكسي هي المحببة لنفسه، لاسيما أن بعضها تعرض أفلاماً عربية لا تتطلب منه قراءة الترجمة أسفل الشاشة وهي عملية كانت تفسد عليه متعة المشاهدة، لأنّ الكتابة تختفي سريعاً، وعليه أن يبدأ بقراءة ما يظهر تباعاً وهذا ما لم يستطع اتقانه، فهو يقرأ ببطء حسبما تعلم في كتّاب الشيخ عبد الأمير بمحلة الأنباريين بالكاظمية في طفولته.

الكائنات الجميلة التي عرفها في سوق الغزل بدأت تشكل حياته، وبدأت المشاعر الخبيئة في نفسه من طفولة مفعمة بتجارب سرية مع صبيان وشبان وهي تجارب مقموعة بقوة التقاليد والكبت، تعاود الإمساك بخناقه، وكانت ظلمة السينمات، والروائح المنبعثة من مقاعدها، وأصوات موسيقى الأفلام الصادحة بقوة، تملأه طرباً وشوقاً إلى زوايا ومنحينات عرفها في صباه، وفقدها في زحمة العمل، وعادت السينمات والكائنات الجميلة لتحييها بنفسه.

من أجمل تلكم الكائنات كان وسام، وهو فتى في السادسة عشرة من العمر، عربيته فيها لكنة غربية تحدرت إليه من أمه ذات الأصول الأعجمية، وبشرته حنطية صافية مثل بشرة ممثلات السينما، وأطرافه ممتلئة ناعمة بلا عضلات، بل إن ساعديه يظهران من خلال أكمام القميص الصيفي الأصفر القصيرة كأنهما عمودان بلوريان صقيلان، وحين يلامس

ساعده ساعد فريد الغارق بالشعر والمتصلب العضلات وهما يجلسان جنب بعض في صالة سينما الرشيد المعتمة، تسري رعدة غريبة من سحر عميق غائر القرار في نفس فريد.

عيب وسام أنه كثير الشكوى، فهو يشتكي من حر الصيف والعرق الذي يغمره، ويشتكي من رائحة إبطيه التي يحاول أن يخفيها بشتى الوسائل فيفشل، ويشتكي من السراويل الأنيقة التي يرتديها، ويشتكي من حذاءه الانكليزي الفاخر الذي اشتراه له فريد من حسو أخوان، ويشتكي من الغبار المتصاعد من شوارع العاصمة، ويشتكي من نمو الشعر في وجهه ويراه سبباً لقلق بالغ يؤرقه لدرجة الرعب، وقد طلب من فريد أن يجد له دواء يزيل الشعر ولا يترك أثراً في الوجه، فاقترح فريد النورة، ولكنّ النورة كما عرف وسام من بعض النسوة تخلف في الوجه بقعاً سمراء تفسد رقته وجماله، وهذا آخر ما يقبله وسام، لذا سأل في أحدى الصيدليات عن مزيل لشعر الوجه لا يترك أثراً، فأرشده الصيدلي الحكيم نجيب إلى كريم ألماني يزيل شعر الوجه بسرعة ولا يترك أثراً، لكنه غالي الثمن.

لا أحد يلجأ إليه وسام في مثل هذه الحالات سوى صديقه الأسمر الطويل القوي فريد، فركض إليه وكشف له عن الدواء الألماني المعجزة، وتمنى عليه أن يشتريه له. في الخميس التالي، عاد فريد مبكراً بعض الشيء من عمله ليرافق وسام إلى صيدلية الحكيم نجيب، ويشتري له الكريم، وقيمته هي نصف يوميته لذلك اليوم!

***

بعد ذلك، وكلما طرح فريد على وسام مقترحاً بأن يذهبا إلى مكان جديد، وجد وسام سبباً للشكوى، وكل ذلك يجعله شبيهاً إلى حد كبير بالنساء، وهذا ما كان يسبب نفور فريد منه. فريد لا يحب النساء، ولا يحب التقرب من عالمهن، ويراه عالماً غارقاً بالشكليات، ومُكلفاً بشكل كبير، لذا فهو يحرص أن ينأى عنه قدر استطاعته، وفي الحقيقة فإنّ المرأة الوحيدة في حياته آنذاك كانت أمه، وهي لا تشبه النسوة في مظهرها الأسمر النحيف الطويل، بل تبدو أقرب للرجال، كما أنّ تدخينها المستمر وفمها التي تتعثر فيه بقايا أسنان وشعرها العكش الظاهرة أطرافه من خلف عصابتها السوداء، كلها كانت تجعل منها مخلوقاً أقرب إلى عالم الساحرات والجنيات، لكنّ فريد كان يحبها بشكل ما.

ورغم شكوى وسام التي لا تنتهي، كان فريد يقضي معه معظم أيام الجمعة وهو راضٍ بحياتهما معاً. هذا الوضع لم يستمر كما كان يحلم فريد، ففي ذات غروب، أخبره وسام وهما يحتسيان البيرة في حانة شريف وحداد أنه سيسافر مع عائلته عائدين إلى بلدهما الأول. بهت فريد وكأنّ خبراً من الغيب وافاه بكارثة لا تريم، فسأل وهو فاغر الفم أين يكون بلدهما الأول؟ فأجاب وسام وهو ينظر إلى المارة العابرين لجسر الأحرار أنه هناك في أوروبا، واسمه ألبانيا.

ولم يعرف فريد ماذا يقول، فهو لم يسمع حتى باسم هذا البلد، كما أنه فهم تواً أنّ صديقه وسام ليس عراقياً، بل يسكن البلد بإقامة مؤقتة مع أسرته، وكل هذا جديد ومخيف بالنسبة لفريد، فاحتسى كأس الجعة الكبير دفعة واحدة، ووضع يده على ساعد وسام برفق وهو

يسأله متى يذهبون؟ أجاب الأخير ساهماً وهو يرقب حبات المطر تتدحرج على زجاج حانة شريف وحداد وتنزل إلى قعر سحيق، بأنه لا يعلم حتى الآن موعداً للسفر.

تلك الليلة، لم يستطع فريد أن ينام، وبقي ساهراً مسهّداً يفكر في حل ينقذه من قرار عائلة وسام القاسي المفاجئ، وحتى خلال أيام الأسبوع ظل فريد يفكر في حل، وظنّ في النهاية أنه اهتدى إلى حل ممكن.

حين التقيا يوم الجمعة التالية في سوق الغزل كما هي عادتهما دائماً، كان وسام بهي الطلعة كالعادة، وجهه ناعم صقيل بفضل الكريم الألماني الساحر، وتجولا في السوق بعض الوقت، ثم سارا إلى مطعم الشراع، فتناولا طعام الغذاء، وقطعا شارع الرشيد مشياً على الأقدام، ثم انعطفا بلا اتفاق إلى حانة شريف وحداد، وكان عصر تلك الجمعة غائماً والسماء تنذر بمزيد من المطر. انتبذا نفس الطاولة التي اقتسماها في الأسبوع السابق، وطلبا من النادل عرقاً مستكي يدفئهما في هذا الغروب البارد. في الكأس الثانية بدأ فريد يطرح مشروع الانقاذ الذي توصّل إليه خلال الأسبوع، وعرض على وسام أن يستأجر لهما غرفة مؤثثة في مكان ما ليعيشا معاً محتفظين بصداقتهما الحميمة الدافئة، وبهذا لن يُضطر وسام إلى السفر مع أهله.

تجرّع وسام بعضاً من كأسه الثانية، وتأمّل حبات المطر التي عادت تساقط على النافذة كما في الاسبوع الماضي، شيء في هذا المشهد يوحي له أنّ عالمه الجميل تعصف به الرياح، لكنّه لا يعرف كيف ينجو من العاصفة.

العرض الذي جاء به فريد يبدو سخيّاً، لكنه ليس واثقاً أنّ العرض سوف يستمر، فلا ضمانات بين الأصدقاء. وضع كأسه على الطاولة، والتقط ملعقة جاجيك التقمها بسرعة لتذهب بمذاق العرق اللاذع في فمه، ثم نظر بشوق تائه في وجه فريد وهو يسأله: إلى متى يمكن أن يستمر هذا الحل يا فريد؟ هل أنت مستعد أن تنفق عليّ إلى الأبد، ألن تملّ من صداقتنا وتلغي مشروع الغرفة وتتركني في الشارع بلا أحد؟ كيف أضمن المستقبل يا حبيبي؟

وضع فريد يده على يد وسام وهي تستقر على الطاولة، وتلمّس الكف الرقيقة برفق وهو يقول: كيف أمل من روحي، أنت روحي يا وسام، ولا يفارق الإنسان روحه!

تنهد الفتى وتأوه بصمت، وهو ينظر في وجه فريد المتوسل وقال هامساً: الصداقة لا تدوم يا عيني، الصداقة شيء عابر في حياة الإنسان، أما الأسرة فهي الباقية، وهكذا فأنت تضعني في خيار خطير، أن أترك عائلتي وأعيش معك في ظل صداقة لا تدوم. ماذا لو اشتكى علينا الجيران في غرفتنا الهنية؟ ماذا لو جاءوا بالشرطة وأبلغوهم أننا نعيش معاً؟ سنذهب إلى السجن وتحرقنا الفضيحة، وحين نخرج من السجن لن نجد حتى من يشغلنا. لا يا حبيبي، استعمل عقلك، صداقتنا وصلت نهايتها، يجب أن أسافر مع أهلي، وعليك أن تبقى في حياتك، ستجد صديقاً آخر يغمر حياتك بالحنان والمحبة، أنا متأكد أنك ستجد صديقاً آخر، العالم مليء بالطيبين المحبين.

وهكذا كان، فبعد أسبوعين، التقى الصديقان لقاء وداع حزين، وتبادلا القبل والتحيات وهما ينتحبان في صمت لا يهدأ، ودمعت عين فريد وهو يصافح وسام بعد أن تجرعا 4 زجاجات بيرة في حانة الركن الهادئ، وحين غادر وسام المكان، شعر فريد أنّ عالمه يتساقط، لكنّ هاجساً صغيرا في داخله كان يذكّره أن الأقدار خلصته من شكاوى وطلبات وسام التي لا تنتهي. شرب وحيداً زجاجة بيرة ثالثة، وغادر إلى بيته ليبدأ في الغداة أسبوعاً جديداً من العمل.

***

كانت نبوءة وسام صادقة، فقد تزاحم الأصدقاء في حياة فريد، وكان يقضي معهم أوقات هانئة تمتد أحياناً لشهور طوال، فيما يمر بعضهم بحياته سِراعاً ولا يترك أثراً في نفسه. وضاقت نفسه ذرعاً بوظيفته المتعِبة، فقرر أن يجد لنفسه عملاً آخر، على الأقل يخفف عنه بعض أيام الجهد في هذا المكان، وهكذا التحق بصالون حلاقة في شارع السعدون، صاحب الصالون وهو أرمني، قسّم المحل الفسيح إلى قسمين، أحدهما للرجال وملحق به كرسي بحصان أسود للأطفال، والآخر للنساء وملحق به كرسي آخر بحصان أبيض للبنات أو صغار الأولاد حين يرافقون أمهاتهم.

وكان الاتفاق أن يعمل طيلة الأسبوع في فترات بعد الظهر باستثناء الأحد، من الساعة الثانية والنصف حتى الساعة السابعة والنصف، وهكذا أعلن فريد لصاحب محل الكي البخاري، أنّه مضطر للعمل عندهم حتى الساعة الواحدة، وسيقوم بفتح المحل مبكراً، وتنظيفه وتصنيف الملابس وكل الواجبات الأخرى من الساعة السابعة والنصف صباحا حتى الواحدة بعد الظهر. وسرعان ما صارت عطلة فريد الأسبوعية يوماً ونصف يوم، ما أتاح له فرصة أن يلتفت لحياته الخاصة خارج دائرة العمل الرتيبة. كانت أمّه تلحّ عليه أن يتزوج، لكنه دأب على نهرها متعللاً بأنه لا يملك منزلاً، وليس بوسعه أن يفتح بيتاً.

وفي هذه المرحلة بالذات، عرف فريد عالم الخيول وسباقاتها الجميل، وبات يحضر سباقات الخيل كل جمعة حتى انتهى به الأمر إلى أن يشتري مهراً فرساً ويستأجر لها حظيرة في اسطبل يعقوب بمنطقة المسبح في بغداد. وبات يقضي كل عطله في الحظيرة مركّضاً الفرس ومعتنياً بها، ثم تعرّف على جاكي في الخامسة عشرة من عمره رشيق القوام، و جعله فارساً يخوض بالمهرة سباقات الخيول، وخصص له سهماً من أرباح الفوز، حين تأتي الفرس بمحصول معقول من الأرباح في المركزين الثاني والثالث، وكان يحزنه أنها لم تأت بالمركز الأول قط.

وتحسنت أوضاعه المالية، حتى اشترى لنفسه سيارة يشتغل بها في أيام عطلته ويستخدمها للتنقل. وبتحسن دخله وشرائه السيارة قرر أن يغادر عمله في محل الكي البخاري، وودع صاحب المحل وابنه بعد أن قضى معهم ست سنوات، وتفرّغ للعمل في صالون الحلاقة وقد بات أسطة، كما بات يقضي الصباحات بالعمل في سيارة الأجرة، بعد أن سجلها في إحدى شركات التاكسي الجديدة التي انتشرت في الأحياء الراقية بالعاصمة، وهذا يعني أنه لن

يقضي الصباح متنقلاً بسيارته بحثاً عن الركاب، بل سيجلس في مقر الشركة، وينتظر المكالمات الهاتفية ليذهب لتلبية طلبات الزبائن في بيوتهم أو محلات عملهم. وأبلغه صاحب الشركة أن العمل ليلاً أكثر منه في الصباح، وبوسعه أن يأتي الى الشركة في الليل لتلبية طلبات الزبائن. وهذا يعني أنّ عليه أن يترك العمل في صالون حلاقة جاك الشهير في شارع السعدون، وهي مخاطرة غير محمودة العواقب، لأنّ الصالون يحظى بعدد كبير جداً من أرقى الزبائن ودخله يوفر راتباً محترماً لفريد. لذا تريث فريد في قضية ترك المحل، واستمر مقسّماً وقته بين صباحات التاكسي وأماسي صالون الحلاقة، والعطل في سباقات الخيل، حتى توفي فجأة جاك صاحب محل الحلاقة، مات بجلطة قلبية أصابته بسبب كثرة احتسائه للكحول كما قال الأطباء، وقرر ورثته بلا تردد بيع المحل والهجرة إلى أمريكا، وأنذروا العاملين بأنّ المحل سيباع بعد 3 أشهر، ولا يستطيعون أن يضمنوا لهم فرصة عمل مع المشتري الجديد.

***

هذا التغيير المفاجئ، أجبر فريد أن يفكر باتجاه أن يفتح صالون حلاقة خاص به، وهكذا كان، فقد عثر على محل في عمارة جديدة بحيٍ راقٍ في شرق العاصمة، المحل قريب من شركة التاكسي التي يعمل فيها، وهذا سيوفر عليه الوقت والجهد والنفقات. وفتح المحل فعلاً وجهّزه بأفضل الكراسي والمعدات الجديدة، وكتب على واجهته "صالون حلاقة فريد" بخط أنيق على الزجاج، إضافة إلى يافطة مضيئة تحمل نفس الاسم. واستقر به الحال على هذا الوضع، وكان قد قسّم الجزء الداخلي من المحل بحاجز خشبي سميك، ووضع في الداخل مغسلة ومرحاضاً معزولين بقاطع وباب، والمساحة الباقية وضع فيها فراشاً على الأرض ينام عليه القيلولة في ظهاري الصيف حين لا يرغب بالذهاب إلى بيته. وكان سعيداً وفخوراً بنفسه وهو يرى المال يتراكم في حسابه الذي فتحه في مصرف الرافدين.

في هذه المرحلة تعرف على لؤي الذي بات يتردد عليه في المحل بشكل متصل، ونمت صداقتهما بسرعة صاعقة لم يألفها فريد، ففي الفتى شيء خارق لم يجد مثله لدى باقي الأصدقاء، فهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من العمر، لكنه بالغ الذكاء، وعاطفي إلى درجة كبيرة، فيما ينتابه قلق لا ينتهي، يجعله يصدر قرارات فورية تؤلم فريد، ففي الوقت الذي يختلي به فريد ويناجيه بكلمات رقيقة، كان لؤي يقرر فجأة الخروج من المحل، والذهاب لشأنه على دراجة يسابق بها الريح ليل نهار. كان لؤي تلميذ مدرسة، لكنه لا يحب المدرسة، وكثير التغيب، ويفاجئ فريد أحيانا بزيارته في أوقات غير متوقعة.

ونمت بينهما صداقة مفعمة بالود والصدق، لم يكن فريد يكذب على صديقه الصغير قط، وحين يعده بشيء كان يأتي له به بسرعة، وتنفيذ أمنيات الفتى كان يبعث في نفس فريد غبطة وراحة كبيرتين. وتراكم الود بينهما حتى بات صداقة حميمة، وفي غمرتها بدأ لؤي يطلب من فريد أن يأخذه إلى عالم المومسات، فهو يريد أن يواقع امرأة مهما كان شكلها لأنه يحنّ إلى دفء جسد المرأة، ويشتاق مثل اللهيب إلى عناقها، وهنا بدأت هواجس الفتي تؤرق فريد، فمطالبه بالذهاب إلى إحدى المومسات تبدو غير معقولة لاسيما أن فريد نفسه

لا يملك أي تجربة مع المرأة، ولم يزر في حياته بيت دعارة مع أنه يعرف أين تقع تلك البيوت وماذا تكلف من مال. المشكلة الأصعب في طلب لؤي أنّه ما زال فتياً، ودخوله على مومسٍ وهو بهذا العمر برفقة صديقه ذي الخمسة وثلاثين عاماً سيثير مئات الأسئلة ويجلب عليهما العيون والشبهات.

لؤي يافع صغير العمر إلى درجة أن فريد لا يصاحبه إلى الحانات والملاهي كما كان يفعل مع غيره من الأصدقاء، وكان فيه الكثير من وسام، إلا أنه لا يتشكى ولا يمل من صداقتهما، فهو يريد أن يكتشف العالم من خلال صديقه المغامر الأسمر الأصلع الطويل. وصار فريد يصطحب صديقه الحلو إلى حظيرة الخيل، وعلمه كيف يركب المهرة، وكيف يقودها، ثم بات يأخذه إلى الريسز، ويتشاركان بالفرحة حين تحقق الفرس مركزاً يدر عليه الربح. وذات مرة تحرش بلؤي أحد زبائن الريسز وتطور الأمر إلى مشاجرة، لكمَ فريد فيها وجه المتحرش بقبضة حديد، فسحق أنفه، وترك في وجهه أربعة ثقوب نازفة، ولاذ ولؤي بالفرار بسرعة، وهكذا ما عاد يصطحب صديقه الجميل إلى سباقات الخيل خشية تعرضه لتحرشات الرجال. لؤي الفتي، حلو مثل قطعة سكر غارقة برائحة النعناع وماء الورد ويهواه الرجال.

وبعد عام من صداقتهما، أدرك فريد أنّها صداقة فتحت باب الرزق بوجهه، وبالفعل فقد اشترى شقة أنيقة في شارع السعدون بقرض من بنك الشرق الأوسط الدولي، واستقلّ بذلك بحياته عن بيت أهله، وباتت لقاءاته مع لؤي تجري في الشقة بكامل حريتهما.

وعاد لؤي يلح على فريد بحاجته إلى مضاجعة أي امرأة، حتى ضاق فريد به ذرعاً ذات يوم وقال له: هل تحسبني قواداً لأخذك إلى مومس تواقعها؟

طاف الحزن وملامح خيبة الأمل على وجه لؤي، وغادر الشقة غاضباً دون أن يودع صديقه القوي، وما عاد يزوره أياماً طويلة أصابت فريد بحزن شهيد، وكان يراه أحياناً وهو يمرق على دراجته مسرعاً بين ضجيج السيارات دون أن يلتفت إليه أو إلى محله الأنيق.

***

مضت ثلاثة أشهر لم يزر فيها لؤي صديقه، لا في شقته ولا في صالون الحلاقة، وظل فريد يؤنب نفسه على اللغة السيئة التي استخدمها مع صديقه مفكّراً بحلٍ يعيد له تلك الصداقة الحالمة، وذات مساء، كان فريد يتناول عشاءً متأخراً في بوفيه افتتح تواً قريباً من محله، فدخل لؤي المكان فجأة متعجّلاً وهو يرتدي سروال كابوي أبيض أنيق، وفوقه سترة جلد مكتنزة، وقد فرق شعره الطويل المنساب من المنتصف بموديل الخنافس الذي يشيع بين الفتيان وارتدى حذاء رياضياً أمريكياً. دلف لؤي إلى البوفيه، دون أن يلحظ صديقه الجالس خلف باب الدخول تقريباً، وجلس إلى طاولة منفردة في البوفيه خافتة الأضواء، حتى جاءه النادل، فطلب شيئاً ما وبقي يتشاغل بمجلة في يده، فقام فريد من طاولته، واتجه إلى حيث جلس صديقه، ليجلس إزاءه دون استئذان وهو يرسم على وجهه ابتسامة رائقة، ثم وضع يده على كف لؤي التي تمسك بالمجلة، وقال بوداعة: حتى رب العالمين يغفر لعباده أخطاءهم،

ألا تغفر لصديقك خطأه؟ ألسنا خيرة الأَصدقاء، الصديق يسامح صاحبه ولا يعاقبه، هكذا عُرفُ الصداقة بين الناس؟

نظر لؤي في وجه صديقه الأسمر الطويل محاولاً أن يجد كلمات مناسبة لهذا اللقاء غير المتوقع، ولما عجز قال متصلّباً: لا، الصديق لا يفشّر على صديقه، أنت فشرت عليّ، وقلت إنك لست قواداً، وهي لغة لم أسمعها منك منذ عرفتك.

يا عزيزي، مضى عام على صداقتنا، وأنا لم أفشر عليك، بل فشرت على نفسي وقلت أنا لست قواداً، وها أنا اعتذر منك لهذه الكلمات، فهل تقبل اعتذاري؟

نظر فريد في وجه صديقه اليافع بعمق منتظراً رد فعله لكلمات الاعتذار والود التي قالها، فأجاب لؤي متجنباً أن ينظر في وجهه: أقبل اعتذارك بشرط واحد.

أشرط كما تشاء يا عزيزي، أنا حاضر لكل ما تريد!

لن أقول الشرط الآن، دعنا نتعشى أولاً وبعدها سأقول لك شرطي...ثم استدرك وقال: لن أقول لك شرطي هنا، بل سأزورك في المحل وأخبرك.

وبقيا جالسين يرين عليهما صمت مريب يحشد التوقعات في داخل فريد، ويستثير مشاعر غامضة في نفس لؤي.

***

بعد يومين، زار لؤي صديقه ساعة الغروب، كان آذانٌ صاخبٌ يتعالى من المسجد القريب فسارع فريد يغلق الباب الزجاجي للمحل الخالي من الزبائن في تلك اللحظة، جلس الفتى على كرسي حلاقة مقابل إحدى المرايا وقال بهدوء آمر: إذا ممكن رجاء تحدد لي شعري، لا تقصّره، فقط ساوِ النهايات، وساوِ نهايات سوالفي وخصلة الجبين أيضاً!

سارع فريد يضع إزار حلاقة نظيف لامع على صدر وكتفي صديقه، ورش الشعر بسرعة برذاذ الماء، وبدأ يعتني بقصه متفنناً بأقصى ما تعلمه من حرفة الحلاقة، واعتنى بالخصوص بمفرق الشعر، وسطره باستقامة مفرق الشعر، وشذّب أطراف "الكذلة" وحين انتهى من كل ذلك، أزاح الشعر المتساقط على قفا لؤي ورقبته بفرشاة، ثم نزع عنه الإزار، ورشه بالكولونيا ثم تبعها بعطر نادر يحتفظ به للكرماء الأغنياء من الزبائن. وحاول صبي المحل أن يقترب من لؤي ليزفّ له دعاء العافية لمظهره الجميل كما يفعل مع كل الزبائن عساه ينال منه بقشيشاً سخياً، لكن فريد نهره قائلاً اذهب وآتي لنا بزجاجة كولا!

وحين خرج الصبي، قال فريد: نعيماً حبيبي، ألف نعيماً لك، ويسعدني أنك رجعت إلى عشك!

ابتسم لؤي خجلاً، ثم غادر مقعد الحلاقة وبقي واقفاً إزاء فريد وهو يوشك أن يتكلم إلا أنّه لا يفعل، حتى قال فريد: ما هو شرطك؟ أنت وعدتني أن تعلن شرطك حين تلتقيني، ما هو شرطك؟

تطلّع لؤي في وجه صديقه، ونظر حوله، وما أن بدأ الكلام، حتى عاد صبي المحل بزجاجة الكولا، ودلف إلى الداخل ليفتحها ويعود بقدح نظيف معها، فسارع لؤي هامساً: متى تغلق المحل، سأذهب معك إلى الشقة وأقول لك هناك. رد فريد هامساً وسعادة ساحرة تغرق جوفه: نغلق المحل في الثامنة، انتظرني في رأس الزقاق البعيد، في الثامنة وخمس دقائق سألتقطك ونذهب إلى الشقة.

في الشقة وضع لؤي النقاط على الحروف بسرعة وبكلمات حاسمة: يا عزيزي، يا صديقي العزيز أنا في مشكلة، أنت الوحيد القادر على فهمي، أنا في مشكلة لن يحلها لي إلا أنت!

فبادر فريد بالقول بلا تحفظ: قل ما عندك وأنا حاضر، قل لي ما هي مشكلتك؟

نظر لؤي في عين صديقه الطويل وقال: أريد دفء المرأة، لن تستمر صداقتنا ما لم تأخذني إلى امرأة، أريد أن أجرب الجنس مع النساء، راح أموت، أرجوك فريد، لا تطالبني بالصداقة قبل أن تثبت لي أنك تهتم بي فعلاً!

طافت حيرة حقيقة على وجه فريد، وجلس واضعاً يديه حول رأسه منحنياً وهو يقول: هذا وعد صعب جداً، أنت ما زلت صغيراً، وحين آخذك الى بيوت الدعارة ستلفت نظر الناس لنا، وحتى المومس ستسخر منك ومني، هذا صعب جداً يا حبيبي، ورفع رأسه بوجه صديقه متضرعاً أن يترك هذه الأمنية الصعبة.

قال لؤي وهو يتجنب النظر في عيني صديقه، بل يرمق وجهه عموماً: لن نذهب إلى بيت دعارة، أجلب لنا مومساً إلى هنا، ودعنا نقضي حاجتنا معها، ألا يعجبك ذلك؟

رد فريد ببعض التوتر: أنا لا أحب النساء ومشكلاتهن، وأتجنب لقاءهن، هل تريد أن أقول لك سراً؟ نظر لؤي بوجه صديقه متسائلاً ليشجعه على البوح فقال فريد: أنا لم أجرب في حياتي الجنس مع امرأة ولا أريد أن أجربه، لا أحبه!

نكس لؤي عينيه إلى الأرض، وجلس على كنبة مقابل صديقه وبدا عليه الوجوم فقال سارحاً في خيبته: هذا يعني أننا لن نستمر، أنا أحترق، أحترق من الرغبة، ولا أستطيع أن أبقى بعيداً عن سحر النساء، مللت من الاستمناء وأخيلة صور النسوة العاريات على أغلفة المجلات، أريد أن أجرب، إن لم تستطع أن تفعل ذلك لأجلي فأنت لا تحبني ولا تهتم لي، هذه هي الحقيقة المرة!

تنهد فريد وهو ينظر إلى صديقه، وقال محاولاً أن يهدئ فورته: يا حبيبي أنت عمرك أربع عشرة سنة، ما زالت الحياة أمامك وستجد ألف امرأة تشتهيك وأنت بهذا الحسن، فلماذا تتعجل وتريد تجربة مع المومسات، صدقني إنّهن عالم من الوساخة والمرض، أعرف كثيراً من الناس التقطوا أمراضاً خطيرة من العاهرات، لماذا تريد أن تتورط معهن وأنت بهذا العمر، يا حبيبي أصبر حتى تكبر قليلاً فتتمناك أحلى البنات!

طاف حزن واضح على محيّا لؤي، وظل ينظر إلى قدميه على الأرض وهو متردد، هل يرحل الآن، أم يبذل مزيداً من المحاولات مع صديقه الكبير؟ ثم رفع عينيه وقال متوسّلاً: أرجوك، أرجوك أرجوك، لا تدعني أتوسل إليك، أنا محتاج جداً للنسوان، افهمني!

وانتهى ذلك اللقاء بوعدٍ مفتوح من فريد أن يأتي لصديقه بعاهرة في شقته، وعد مفتوح على أيام زمن مضطرب لا قرار له.

***

فجاة قامت الحرب وتدفقت الأرتال العسكرية راحلة إلى الأردن في معركة لم يفهم أيّ عربي من هو المنتصر فيها. وفتحت منظمات العمل الفدائي مكاتب لها في بغداد وباقي العواصم العربية، وانقطع لؤي عن زيارة صديقه، وفاجأه ذات يوم بزيارة سريعة، وقد لفّ حول عنقه كوفية حمراء، وأخبره بجفاف أنّه قد تطوّع للعمل الفدائي، ووقع الخبر مثل مصيبة على رأس فريد الذي لم يهتم طيلة عمره بالسياسة ولم يفهمهما، وجاء قرار صديقه الصغير بالتطوع للحرب صادماً، وحاول أن يثنيه عن عزمه، لكنّ الصغير كان قد اتخذ قراراً نهائيا، وانخرط مع إحدى المنظمات وهو راحل إلى بيروت قريباً كما قالوا له. ورحل لؤي بلا وداع، وكان رحيله صدمة أخرى ذكّرت فريد بما جرى له قبل سنوات طوال مع وسام.

***

*مات فريد قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، وترك لأخوته شقة ومحل حلاقة نسائي ومحل حلاقة رجالي وبوتيك ملابس رجالية في ساحة التحرير، وأربعة خيول واسطبلاً مستأجراً في أبو غريب، وسيارة مرسيدس، مات فريد وليس في حياته من منجز سوى لقائه بالأصدقاء وفراقهم، وأوصى أن تكتب على شاهدة قبره عبارة يهواها عزّاب العرب فنقشوا عليها: "لا تعشق الغرباء لأنهم دائماً على سفر"!

بون ربيع 2020 - عام كورونا

عثمان الكردي بن "أبي طالب"!

لم يكن عثمان يعرف شيئاً عن التاريخ الذي تغيّر بمرور السنين إلى شيعي مناصر لخلافة علي وسنّي مناصر لخلافة غير وراثية عبر رجال قريش، لكنه وجد نفسه فجأة في خضم دولة ولي الفقيه القائمة على التشيع فقرر أن يكون شيعياً رغم أنه ماركسي.

شرع يبحث عن جذور تاريخية يمكن أن يبني عليها قصته، لاسيما أن أغلب الأنساب كما ثبت له مصنوعة، وسبق له أن لحظ تغيرات الأنساب بتغير الحكومات والأنظمة، وهو ما يثبت أنّ أغلب الأنساب غير صحيحة، وبناء عليه، فبوسعه أن يكون علوياً شيعياً من قبائل الجنوب، وبوسعه أن يصبح دُليمياً سنّياً من قبائل غرب العراق، بل بوسعه الانتساب إلى أفخاذ قبيلة شمر فهي كبيرة ويختلط فيها الشيعة بالسنة، وحتى تخرج منهم فروع هاشمية النسب، رغم حقيقة أنّ أغلبهم من العرب العاربة، ونزر يسير منهم هاجر إلى العراق وسوريا والأردن مع عرب الجزيرة في أزمنة سحيقة.

ليس ذنبه أن ظروف بلده، انقلبت فجأة من التوجهات العلمانية الشوفينية إلى التحشد الطائفي والعرقي، وبات عليه وهو نصف كردي نصف عربي أن يحتشد مع أحد الفصائل أو الأحزاب وهذا أجبره أن يحاول الوقوف في الوسط لتكون المسافة متساوية من الجميع، لكن كردستان بعد 1991 ذهبت لتصبح نواة دولة، وعراق صدام الغارق في المغامرات الفاشلة، بات يكابر ويتصنع النصر وهو في قعر الهزيمة والشعب يعيش على رواتب لا تتجاوز 4 دولارات في الشهر، أي تحت خط الفقر الأفريقي بمرات، وهكذا قادته محاولات الحياد في عصر الاستقطاب إلى الهجرة في عام 1996 في أوج الانقسام الكردي، وبحكم الجغرافية، كانت هجرته إلى إيران، فكانت بحق "محنة عثمان في إيران" !

كانت المخيمات تطرده بلا هوادة، ففي إيران قلما يظهر طالب لجوء اسمه عثمان! حدث ولا حرج كونه سنّياً وكردياً، وهكذا صار يتنقل من رفض إلى رفض، فأهل مخيمات اللجوء في إيران أغلبهم عائلات نزحت في عام 1995، والعزاب فيها قلة لها جذور قديمة في المخيمات، لذا فأهل المخيمات يرون في أيّ عازب خطراً على عفة أسرهم، أما كون هذا العازب، كردي وسنّي واسمه عثمان وهو علماني الهوى وسيم الشكل فهذه طامة كبرى. وما لم ينتم طالب اللجوء إلى مخيمٍ ما فلن يحصل على بطاقة لجوء، وهذه محنة أخرى لا حل لها، لأنه دون هذه البطاقة سيعد متجاوزاً للحدود بشكل غير قانوني وتطارده السلطات وتلقي القبض عليه، وقد تحاكمه بتهمة التجسس، فهذه التهمة جاهزة وتناسب أي وضع لا ينسجم مع تصورات دولة ولي الفقيه لحقوق الإنسان!

في النهاية، ساعدته الظروف في أن يتصل بسيد جواد الشهرستاني، المقيم في إيران منذ سنوات وصاحب مشروع "مكتبة لكل تجمع عراقي" حيث أسس في مخيمات اللاجئين

العراقيين مكتبات لتثقيف الناس خارج مظلة ولي الفقيه. وتسلّم عثمان وظيفة أمين مكتبة في مخيم بمحافظة آراك (استان مركزى) بإيران، براتب قدره 35 دولاراً في الشهر، على أن يقيم في المكتبة إذا لم توفّر له إدارة المخيم بيتاً.

سكنه في مكتبة المخيم وتفرغه للقراءة الإجبارية لعدم قدرته على الحركة في المخيم، الزمه بالقراءة كحلٍ مفيد لهذا الوضع المعقد، وبات يقرأ 10 ساعات في اليوم، في كل العلوم، لاسيما أن المكتبة كانت تضم 5 آلاف كتاب لا علاقة له بالدين والفقه. وتعلم خلال سنة اللغة الفارسية، وأثناء رحلات بحثه في بطون الكتب، عثر على شخصية تناسب وضعه في دولة ولي الفقيه. فقد عرف أن لعلي بن أبي طالب ابناً اسمه عثمان وأمه أم البنين.

ومن كتب غير موثقة نقل عن علي ابن أبي طالب القول في تسميته "عثمان": "إنما سميته باسم أخي عثمان بن مظعون".

وبعد بحث كثير قرأ في مكان ما أن العباس بن علي بن أبي طالب قد ولد في الكوفة فترة خلافة والده عليّ سنة 39ه، ويقال إن أخاه العباس كان يعلمه الفروسية والرماية والمبارزة بالسيف.

ولم تنقل الكتب والمصادر التاريخية عنه شيئاً سوى ما حدث في يوم عاشوراء، وتسعى المصادر الشيعية إلى تثبيت ذكره بشكل عشوائي فكتب عنه بحار الأنوار: "يبدو أنّ اسمه ورد في بعض الروايات والأحاديث، كما تشير بعض الروايات الواردة إلى عدم زواجه، وأنه لم ينجب أولاد، ولم يعقب".

وفي مقتله يشير كتاب إبصار العين في مقتل أصحاب الحسين الصادر في قم وهو كتاب مجهول تاريخ الإصدار "أصابه سهم من خولي بن يزيد الأصبحي وقتله رجلٌ من بني أبان بن حازم وله من العمر 21 سنة، وكان يقاتل وهو يقول:

إني أنا عثمان ذو المفاخر شيخي علي ذو الفعال الظاهر

وابن عم للنبي الطاهر أخي حسين خيرة الأخاير

وسيد الكبار والأصاغر بعد الرسول والوصي الناصر

هذه النبذة التي تفتقر إلى روايات تسندها، باتت سنده الوحيد للدفاع عن وجوده الغامض في دولة ولي الفقيه، واستطاع من خلالها أن يدخل إلى مسجد المخيم، الذي كان يمقته، وبات يختلط باللاجئين وكلهم من قبائل جنوب العراق، محاولاً أن يخترق جدار العزلة المفروض عليه.

بعد عامٍ، حصل عثمان على بيتٍ من المخيم، وأقرّت له الحصة التموينية، وحصل على هوية لاجئ، ذات النقطة، وهي التي تخوله الإقامة في المخيم والعمل والتنقل ضمن دائرة قطرها 60 كيلومترا في مختلف الاتجاهات، أي أنها إقامة محدودة في المخيم. وهكذا بات

عثمان بن أبي طالب رهين المخيم كأنه سجين. ومع ذلك كان يتابع ملف لجوئه في طهران أحياناً.

مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة في طهران UNHCR "آژانس پناهندگان سازمان ملل در ايران"، تقع في تجريش المحلة الأنيقة الثرية شمال طهران، ولها مكاتب في أصفهان ومشهد وكرمان وشيراز، وكان عثمان قد أسس معهم اتصالاً، في محاولة لمغادرة البلاد كلاجئ السويد. واكتشف عثمان بعد عامين من المراجعات والرسائل والعرائض والكتب المزعومة أنّ العاملين في المفوضية برمتهم عملاء للمخابرات الإيرانية "إطلاعات"، وتأكد من ذلك من نوع العراقيين الذين حصلوا على لجوء في بلدان أوروبية، فكلهم كانوا من عناصر فيلق بدر، أو من العاملين في قراركاه رمضان التابع إلى لشكر قدس، وهو فرع من المخابرات الإيرانية مختص بتصدير الثورة إلى بلدان العالم.

فالبلدان الأوروبية، ببركة مكاتب المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة في إيران، كانت تمنح اللجوء تحديداً لمن يوالون دولة ولي الفقيه، ويسعون لنشر مبادئها في أوروبا. وكان هذا يتم بشكل سلسٍ عبر مبالغ محددة معروفة يدفعها الميسورون من اللاجئين ممن عملوا في فيلق بدر والمخابرات الإيرانية، وهكذا وبعد سنتين، جرى ابلاغ عثمان (بن أبي طالب) أن تسلسل معاملته يحمل الرقم 2212 بعد 8 ملايين طلب لجوء آخر عبر العالم. وهذا يعني أنّ عليه الانتظار نحو 500 سنة لتصل نوبته في اللجوء السعيد إلى بلدان الكفر المسيحي، كما يصفها ملالي السلطة!

لكنّ عثمان واضب على الحضور كل شهر إلى مقر المفوضية أملاً في أن يعثر على من يتعاطف معه، ويوافق على ذهابه إلى "جنة النصارى الكافرين" كما كان علمدار آملى المكلّف بملف عثمان يصف بلدان أوروبا.

في 9 نيسان 2003، اسقطت الولايات المتحدة الأمريكية وتحالف دولي يعمل بإمرتها نظام صدام حسين في العراق، وبدأ العراقيون يغادرون إيران عائدين إلى وطنهم بمفارقات مرعبة وبأعداد كبيرة، وتسهيلات مريبة، ووجد عثمان نفسه فجأة مهدداً، فالمخيم على وشك التفكيك، وسيفقد عثمان مورد رزقه، وبطاقة إقامته وبيته إذا أغلق المخيم بعد رحيل القبائل، وهكذا وبعد شهرين، انتقل عثمان ليسكن بشكل مؤقت في بيت صديق عراقي في محلة نيروكاه بمدينة قم، وكان الصديق قد أرسل كل عائلته إلى العراق، ويعمل بجد على بيع مسكنه ومحله في المدينة الضاجة بالحركة، ليلتحق بأهل بيته.

وبات عثمان تحت رحمة القدر بشكل كامل، فمتى يبيع الرجل البيت والمحل، سيكون عليه أن يرحل. والسؤال الذي يشغله إلى أين يذهب؟ هو لا يريد العودة إلى كردستان كي لا يرى أهله وأحبته خيبته خلال 7 سنوات في دولة ولي الفقيه، وهم قد حذروه قبل ذهابه إليها! ويريد التوجه إلى أوروبا، لكن باب الأمم المتحدة موصد بوجه العلمانيين، مفتوح على مصراعيه لأنصار دولة ولي الفقيه!

أخيراً جاءه فرج غير منتظر من سيد حسن، وهو مبلّغ من النجف كان يستعد للعودة إلى العراق وقد أسس علاقات قوية ببلدان غرب أفريقيا، وبات يعرف سفير أحد تلك البلدان، وله دالة عليه، وهكذا عرض على عثمان أن يرحل إلى غرب أفريقيا بحثاً عن لجوء، وحين بحث عثمان عن بلدان غرب أفريقيا وجد أنها تضم:

الرأس الأخضر، بوركينا فاسو، بنين، گامبيا، غانا، غينيا، غينيا بيساو، ليبيريا، نيجر، نيجريا، مالي، موريتانيا، السنغال، سيراليون وأخيراً توگو وهي من بين أفقر بلدان العالم. كل تلك البلدان فقيرة، وما يمكنه الذهاب إليه هو موريتانيا، الدولة التي ما زالت تقوم على نظام الرق، وهي نصف عربية نصف أفريقية، وهذا يساعده على أن يتكيف مع ظروفها، فهو شخصياً خليط من كل شيء.

منذ عام 2011 يعمل عثمان بن أبي طالب (وهكذا بات رسمياً اسمه بموجب بطاقة الهوية الموريتانية التي حصل عيها عام 2008) في محطة تلفاز أهلية، كمخرجٍ ومعدِ برامج، ووضعه تغير بمستوى تغير الأوضاع في البلد الأفريقي العربي التائه.

بون 2020 – عام كورونا

عقيل يختار الجسر*

لم يختر عقيل الأزيرق سحنته السمراء التي آلت إليه من أسلافه الزنجباريين الذين وصولا البصرة من عهود قديمة، ولم يختر صوته الأجش الجهور الذي ما أنفك يحاول أن يلطّف غلظته بالكلام همساً دون جدوى، ولم يختر قامته الفارعة وهي تميّزه عن كل جمع ينضوّ إليه، ولم يختر أمّه وأباه وأشقاءه وشقيقاته، كما لم يختر زوجته المتحدرة من نفس سلالته الزنجبارية التي نزحت من البصرة إلى السهل الرسوبي السومري في جنوب العراق (فقد تحددت زيجته سلفاً بموجب انتمائه العرقي والعشائري والاجتماعي)، وهكذا وجد نفسه أباً لثلاث لآلئ سود تزاحم ضوضاؤهن محاولات الهدوء والتأمل التي يحاول أن يحرزها في بيته المكتظ بالساكنين.

كبر عقيل الأزيرق وكبرت همومه واتسعت مساحة تأملاته فشرع يراجع تاريخه واختياراته وهو يحاول أن يرسمها وفقاً لقناعاته، وكلما طرق باباً وجده موصداً، إذ ليس بيده أن يغير سحنته السمراء الداكنة، وما كان يستطيع أن يقصّر قامته، أما تاريخه فيلازمه كظلٍ ثقيلٍ لا فكاك منه، والحال نفسه مع زوجته السمراء القصيرة وأمه وبيته. صار الاختيار هاجساً يقلق حياته ويربك مسارها، صار همّا ملازماً يعذب نهاراته وتوقاً مزمناً يؤرق لياليه.

ذات صباح ربيعي بغدادي ساخن، أفاق ليجد الحريق يجتاح مدينة الفقراء ذات الاسم الحائر في ضاحية بغداد الجنوبية الشرقية، الناس في الشوارع يرفعون البيارق والرايات والبنادق والسكاكين، لقد قرروا أن الوقت قد حان ليعقدوا اختيارهم، باب الاختيار الموصد الذي طالما قرعه ليجيبه الصدى والرنين الفارغ، انفتح فجأة أمام صوت الجموع الهادرة راكضة في أزقة المدينة الفقيرة وشوارعها، انفتح لعقيل وهو لا يدري كيف يختار، يضع قدماً خارج البيت (باب البيت دون مستوى الزقاق) فتظل قامته المديدة معلقة بين الخارج والداخل (إنما يخيّر نفسه بين أن يخرج وأن لا يخرج)، ليس سهلاً أن تلغي كل حياتك في لحظة واحدة.

الباب موارب وهو موجة حائرة لا قرارة لها، تعبره الجموع وهي تهدر، مئات البيارق السود والحمر والخضر والسيوف والبنادق تركض فوق رؤوس الحشود في شوارع وأزقة المدينة وهو باقٍ دون بيرق أو سيف أو قرار.

وأخيراً وجد القرار، فحمل بيرقاً أسود وسيفاً ورثه عن جده، وخرج يعدو كما لم يعدُ من قبل.

اختيار عقيل لم يرق للسلطة فأطلقت عليه وعلى الحشد المختار النيران، وتفرّق الناس في كل اتجاه، كلٌّ يركض باتجاه يرى فيه الخلاص، وركض عقيل جنوباً، ما برح يعدو أياماً وليال حتى وصل أرض أجداده، الماء والبردي والمشاحيف في كل مكان، جنةٌ من قصب يغفو فيها الهور هادئاً ليلتفّ على أسرار وغوامض تمتد لقرون سحيقة خلت.

امتدت به الأيام وهو يمخر الماء في زورق نحيف مثل قصبة، زاده السمك والطيور والخبز والحليب وزوادته بندقية هرمة باعها له عمه الساكن على أطراف الماء. لا يزور أقاربه إلا ليلاً. الجواسيس في كل مكان وللسلطة عيون تتكاثر وتزداد بتفاقم الفقر والحاجة والعوز. صارت الأيام أشهراً وامتدت الشهور أعواماً، وعقيل راضٍ باختياره، وحيداً يلتحف السماء ويتسد البردي.

ضاقت السلطة به وبالرافضين معه ذرعاً فأرسلت طائراتها تحرق الهور بالنابالم، ولم يبق أمامه سوى اختيارات ثلاث، أن يبق في زورقه فيحترق مع القصب والبردي، أو أن يسلّم نفسه للسلطة فيلغي اختياره ويعترف بفشل لا يقره، أو أن يرحل شرقاً ليخرج إلى الأبد عن قبضة السلطة وعن ربيع العائلة والقبيلة.

الوقت حصار والهور الشاسع يضيق ليصير جدولاً من لهيب، الوقت سجن يحدد اختياره بالدقائق، الوقت حاجز تفتيش، مشنقة، منطقة محرمة، أرض محروقة، الوقت يحاصره والنار، والسلطة تطارده كفريسة يتيمة تائهة. تغرب الشمس وتبقى الحرائق تضيء المياه، والأسماك المسكينة تطفو ميتة فوق الماء، ومن عجب أن الماء لا يطفئ حرائق النابالم! الماء يشتعل وعقيل يريد أن يقرر.

في الصباح يعبر الحدود إلى بلدٍ يأمل أن لا يصادر قراره ولا يلغي اختياره، يودع شمس وادي الرافدين، يودع التاريخ ويودع قمم كردستان وممالح الفاو ورمال الناصرية وضفاف دجلة في سامراء التي تذهب لذراع دجلة، وفي بغداد التي تطبق عليها مثل شفتين مضمومتين على قبلة، يعبر الحدود إلى وطن مقترح.

في باحة مرقد السيدة معصومة يجلس قريباً إلى السماء، بعيداً عن الدنيا، قريباً إلى نفسه، تعانق روحه رخام الضريح البارد فيجد علياً يبتسم له والبيرق الأسود والبندقية الهرمة والماء المحترق، يجد اختياره يرقد هادئاً خلف شباك الضريح الغارق بالنور الأخضر. يفرح عقيل في قرارته إذ استطاع أن يتحدى تاريخه الذي لم يختره.

كل أقرانه وأصدقائه هنا رجال قرارات صعبة، الكل مختار والكل عاشق والكل سعيد يمسّد برفق تاريخه وماضيه ليخط بيراعه شكل غده. الكل يلتمس أبوب السماء ويخال طعم الغيث فيها بطعم القصائد ورحيق جنتها مثل شهد يعبق بعطر القداح والطلع والحنطة.

في نفس المكان يجلس عقيل بعد أعوام، يعود ليمسك بالحبل الممدود من السماء إلى الأرض، يعود ليجالس ساكن المرقد، هذه المرة القرار ليس بيده، هذه المرة سيرتبط جزء من نفسه مباشرة بالسماء، إذ أن بضعة منه تكاد أن تلج الحياة، فامرأته التي اختارها ملء إرادته دون التفات للحدود الاجتماعية والعرقية والعشائرية التي كانت تأسره في بلده البعيد القريب تضع مولودها الأول، وعقيل يغرق في أزمة الولادة الجديدة (هل سيكون الوليد لؤلؤة سوداء، هذا محتمل لكنه غير أكيد فالأم الجديدة بيضاء مثل الثلج).

هل يكون المولود ذكراً؟ كم يشتهي أن تهبه السماء ولداً. يمسك بالشباك المذهّب والناس يتزاحمون حوله ويتدافعون بالمناكب، يغمض عينيه (لا يدري لماذا يغمض عينيه كلما أمسك بالشباك) ويقول في نفسه "يا سيدتي هبيني ولداً فاسميه رضا، يا سيدتي يسّري لامرأتي ولادتها، يا سيدتي اخترتكِ عنوان غربتي، فكوني لي أهلاً ووطناً".

طلعت شمس الصباح لتستحم بها المدينة بكسل، الدكاكين تتثاءب وهي تفتح أبوابها، الشوارع تنفض ندى الليل عن أسفلتها، الشجر يفارق الليل باكياً والدمع ندى. وعقيل ينتظر صابراً مثل أرض صادية تنتظر أول طل الخريف. هو لا يفكر في أزمته المالية الحادة ولا بالبطالة المفاجئة التي حلّت به في هذا الوقت العصيب، ولا بإيجار المسكن الذي ينبغي أن يسدده بعد أسبوع ولا باحتمالات انهيار السلطة في بلده البعيد الذي يحب. لا يدخل كل ذا وذاك ضمن همومه الآن، ما يهمه فعلاً هو أن يسمع جواب السماء للنداء الذي وجهه إليها من حرم معصومة في هدأة الليل.

الآخرون إذ يتذكرون الغيب يسرفون في تبسيطه فيصير شيخاً طيباً عاجزاً أليفاً لا يقوى إلا على الفقراء والضعفاء، الله عندهم رب العجائز واليتامى، أو أنهم يهوّلونه فيجعلون منه سلطاناً جباراً متغطرساً طاغياً لا يقارن به الطغاة والعتاة والجبابة، الله عندهم ربّ الأقوياء. وكل هذا لا يروق لعقيل، فالغيب في كل مكان وفي كل كائن ولكل مخلوق ومع كل انسان، الله الذي يعرفه يعتني بالصخور المهملة الوحيدة في أعالي الجبال، ويعتني بالنمس والحشرات الضعيفة البسيطة وبالأشجار العطشى في الصحارى والفيافي وبالمحار الساكن في أعماق البحار وبالسمك الصغير الدقيق الأعمى الراقد في قعر الأوقيانوسات وبالماء البسيط الذي يجري في كل مكان تكون فيه الحياة، فإذا انقطع جريانه تجود به السماء. الله يعتني بالمنسيين من الناس في الملاجئ والمشافي والسجون، الله محبة وحنان ووداد ووفاء وكرم وعطاء غير مردود، تماماً مثل الأمهات المحبات (ألم تره يخصهنّ بالجنة؟)، ولأنه واثق بوجوده، مطمئن لجوده فقد وفى نذره واسمى ابنته الرقيقة الناعمة (رضيّة)، وابنته بيضاء مثل ثلوج القمم وعيناها لازورديتان وفمها صغير كفستقة.

بعد شهرين، جاء بها وبأمها إلى مرقد سيدة الغرباء، غرباء ثلاثة يوحدهم الشباك المقدس في عناق إنساني سماوي يضمّ بضعاً من الأرض وبضعاً من السماء، والحبل الرابط بينهما قد استكان هادئاً كجسر من نور يصل الأرض بالسماء ليعبر عليه العاشقون.

حزيران 2002

*هذه قصة ثائر اسمه أبو حوراء المذخوري، أحد المشاركين في انتفاضة عام 1991 في العراق وقد روى لي التفاصيل وطلب أن أكتبها في قصة، فكتبتها له وحاولت أن أجعلها تشف عن كوامن نفسه.

قصة حبٍ هاربة من أرض أور*

كبر علاء في بيت مزدحم بالأبناء والبنات والعمات والجدات، وحتى حين كان يحاول أن يغير دشداشته ليرتدي ملابس الرياضة الإجبارية في المدرسة، كان عليه أن يدخل الحمام ويغلق الباب لتتاح له خلوة تغيير ملابسه. جرى ذلك حين كان في العاشرة، واليوم وهو في الثامنة عشرة، ما زال الوضع في بيت أهله كما كان.

تعلم حدادة وسمكرة السيارات في ورشة الأسطة صبحي المصري بداية الحي الصناعي في نهاية ثمانينيات القرن العشرين. كان المصريون قد باتوا جزءاً من النسيج الاجتماعي في بعض مناطق العراق، ولحسن حظ علاء أنّ حرب العراق وإيران انتهت حين بات عمره 17 عاماً، فقد كانت كوابيس الجندية لا تفاقه، وهو يرى جنائز ومجلس عزاء الشهداء كل يوم في كل مكان. حتى الحي الصناعي الوسخ الفوضوي المترب، كانت تقام فيه مجالس عزاء الشهداء.

حدادة السيارات تعني تعمير صدر السيارة وأنظمة التعليق فيه، وتعني أيضا الشاصي وما يرتبط به، وتعني أيضا سبرنكات وفنرات السيارات الصغيرة والشاحنات، وكيفية تعديلها أو تغييرها، وهو عمل شاق، يتطلب قوة بدنية كبيرة، علاوة على اتقان الفن الذي يشكّل الصنعة. ورغم أن حدادة السيارات لا علاقة لها بسمكرة السيارات، فقد تعلّم علاء رويداً رويداً في ساعات الاستراحة، أن يعمل في ورشة السمكرة الصغيرة الواقعة في مدخل كراج الأسطة صبحي، والتي كان يديرها نسيبه العراقي أنور.

اتقن علاء الصنعتين، وفي نفس الوقت، نما في قلبه عشق نهلة ابنة الأسطة صبحي غير المتزوجة، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها. وصارا يلتقيان مرة في الأسبوع على الأقل ويكفيهما زاد تلك المرة من العناق والقبل والعواطف الملتهبة أن يستمرا بالعيش أسبوعاً كاملاً. كانت لقاءاتهما تجري في بيت فائزة شقيقة نهلة المتزوجة من مصري يعمل بمدينة كركوك، ولا يزورها سوى اسبوع في الشهر كما هو حال العسكر في تلك السنوات الصعبة، وكان علاء يذهب محملاً بأكياس الفاكهة والخضر واللحوم والعصائر والكرزات في كل مرة يزور فيها بيت فائزة، حيث يقضيان هو وحبيبته عندها ساعات عشقهما اللاهبة.

تداعى كل ذلك حين غزا العراق الكويت، وضمّها صدام للعراق بعد أن جعلها المحافظة التاسعة عشر، وبات شعار "عاد الفرع إلى الأصل" إعلانا تجارياً يشرّعن عمليات النهب الواسعة التي أتت على كل ما في الإمارة النفطية الغنية وحولته إلى غنائم حرب في بيت الأصل! بالنسبة لعلاء، كان كل ذلك مخيفاً، لكنّ الأخطر منه أنه قد دُعي للخدمة العسكرية، والتحق إلى معسكر تدريب الدروع في تكريت، وكان صعباً عليه أن يحصل على أجرة السيارة التي تأخذه إلى المعسكر بسبب انهيار العملة، وما إن بدأ التحالف الدولي بقصف القوات العراقية في الكويت، وبقصف أهداف كبرى في المدن، حتى تاه البلد وتراخت قبضة

السلطة، وفرّ علاء من الخدمة، وعاد يعمل في الحي الصناعي بصعوبة بالغة، فالقصف والقحط سد باب الرزق، ولم يعد أحد يأتي إلى المنطقة الصناعية إلا في حال الضرورة القصوى. ومع اشتداد القصف والأزمة الاقتصادية، غادر الأسطة صبحي وعائلته العراق عائدين إلى بلدهم تاركين الورشة في عهدة علاء، وهي على كل حال باتت ورشة بلا عمل بسبب انقطاع التيار الكهربائي والماء المسال نهائياً علاوة على اختفاء الوقود والغاز، كما اختفت من السوق قناني الأسيتيلين والأوكسجين المستخدمة في اللحام وقطع الحديد وهي متطلبات تشغل الورشة.

فجر ذات يوم، تغيّر المشهد، فقد عاد العقيد الركن "أبو محمد" هارباً من الكويت إلى بيته في الناصرية، وبعد ليلة قضاها في البيت، قاد رجال المدينة فهاجموا مقرات الشرطة والأمن ومقرات حزب البعث في المدينة وسيطروا عليها وأخذوا السلاح من مشاجبها، هذا غير عشرات قطع السلاح التي جاء بها الجند الهاربون من جحيم المطلاع في الكويت. وانضمّ علاء وأخوه صفاء وأبوه وثلاثة من أعمامهم، وخمسة من بني عمه ومعهم أصهار العائلة إلى القوة التي يقودها العقيد الركن أبو محمد. وبنى الثوار تحصينات حول مداخل المدينة ومخارجها ومنافذها، وأسروا جنوداً هاربين من الكويت، ولم يعرفوا ما عساهم بهم فاعلون، فأهل الناصرية الثائرون أنفسهم كانوا بلا طعام، ولا وقود ولا عتاد، فكيف الحال وقد تجمع عندهم مئات الأسرى؟

أخيرا تقرر إطلاق سراح جميع الأسرى، وتخييرهم بين الانضمام إلى الثوار، وبين العودة إلى بيوتهم، واختاروا جميعاً تقريباً العودة إلى مدنهم لاسيما أن الأخبار المتسربة كانت تتحدث عن ثورة في جميع المدن، فأعلن أغلبهم أنهم ذاهبون الى مدنهم ليشاركوا في الثورة على دولة البعث وصدام.

لم تدم فرحة استقلال الناصرية طويلاً، فقد رفع التحالف الدولي يده عن دعم الثائرين لاسيما أن شعارهم بات "ماكو ولي إلا علي وانريد قائد جعفري"، وآخر ما كان يريده التحالف الدولي هو تأسيس دويلة شيعية في جنوب العراق على طريقة دويلة حزب نصر الله في جنوب لبنان، فأعلن بوش الأب أن هدفه ليس اسقاط النظام في العراق، بل تحرير الكويت، وأعلن أنّه سمح للنظام باستخدام طائرات الهليكوبتر بارتفاعات منخفضة، عندها هاجمت أرتال من الحرس الجمهوري المدينة، وفتحت على أهلها نيران المدفعية وطائرات الهليكوبتر، فهُزم الثوار وبدأت مفارز السلطة في اعتقال المشاركين لإرسالهم إلى معسكر الرضوانية أو إلى مفارز الإعدام الفوري في أطراف المدينة.

هرب علاء وكل أفراد عائلته متجهين شرقاً بعد أن قطعت فلول القوات المنسحبة من الكويت الطريق إلى الجنوب نحو الحدود السعودية. الحدود مع إيران كانت غابات من الموانع والاسلاك الشائكة وحقول الألغام، وكان على الراغبين بعبور الحدود إلى إيران الاستعانة بمن يعرف تلك الطرق، وهكذا تحتم عليهم التعامل مع عناصر المعارضة الناشطين في هور الصحين، وعبور الحدود معهم من جهة الهور بالزوارق والشخاتير والمشاحيف وصولاً إلى إيران بعد دفع مبالغ باهظة لهم. كان هؤلاء يضعون عصابات

خضراء على رؤوسهم، وقد خُطت عليها عبارات "يا مهدي أدركني" أو "لبيك يا حسين" أو "الله أكبر" أو "علياً ولي الله". في وجوههم سيماء القتل والقسوة، وكانوا لا يخفون ميولهم إلى العنف، بل يحذرون الوافدين الجدد من أن طريقهم هو طريق ذات الشوكة وليس معبراً مطرزاً بالورود والرياحين، ولم يكن أهل الناصرية بحاجة إلى من يرشدهم، لكن الطريق كان تحت رحمة ذوي العيون الزجاجية.

الحالمون بعراق أفضل تلقفتهم مخيمات اللجوء المذلّة الوسخة في إيران، فلم يجدوا سوى العشائر يلتحفون بنظامها، وهكذا باتت شوارع المخيمات مقسّمة بموجب الانتماء العشائري. وبين بيوت الحسينات التي شغلتها عائلة علاء، سكنت أسرة قادمة من البصرة، أسرة فيها أب وأم وبنتان وهذا نادر جداً في عشائر العراق، فالأسر تضجّ بالبنين والبنات وبأعداد قد تصل إلى عشرات أحياناً.

وفُتحت في المخيم ورشة لتصلح المكائن والسيارات، ومن عجب من أين تأتي السيارات في مخيم للاجئين؟! لكنّ الورشة كانت معدّة أصلاً لإدارة المخيم، وهي تابعة لإدارة شؤون الأجانب في المدينة الكبيرة المجاورة " اداره اي أمور كل اتباع خارجى"، وهكذا كانت سيارات شرطة ومركبات دوائر رسمية إيرانية تأتي للتعمير في هذه الورشة، ونشط فيها علاء وميثم الحداد وأبو أمير الميكانيكي، ثم التحق بهم شخص قصير من أهل البصرة أيضا واسمه مجيد، وكان كهربائي سيارات.

كبر علاء وكبرت خبرته في العمل، ونما في قلبه سراً حب متيم بإحدى بنتي الأسرة الغريبة الساكنة في محلة الحسينات. صارت مديحة حلم ليله ونهاره، حين يراها يكون العالم أكثر رفقاً، وتتحول أصوات مطارق الورشة الحديدية إلى ألحان أغاني حب. في نفس الوقت، تزوجت اثنتان من شقيقات علاء برجلين ميسورين يسكنان إحدى المدن المقدسة في إيران، فانتقلتا لبيتيهما، ثم اشتغل صفاء شقيق علاء في مكتب مهم لأحد أغنى مرجعيات الشيعة، وانتقل إلى نفس المدينة، فيما اشترى شقيقه الثاني حافلة صغيرة بدأ يشغلها على خط بين المخيم وبين المدينة القريبة، وبتحسن الأوضاع قررت أسرة علاء برمتها أن تنتقل الى المدينة لتشتري فيها بيتاً وتغادر المخيم المقيت، وهنا حلت لحظة حاسمة في حياتهم وفي حياة علاء الذي بلغ من العمر 19 عاماً، فهو يريد البقاء في المخيم، لأنّ شغله هناك، وقلبه معلّق بمديحة السمراء بنت البصرة الزاهية. وكان قبل هذا الجدل، قد انفصل عن أهله في بيت خاص به أعطاه له مدير المخيم، وهو من البيوت الأكبر قليلا ويحتوي على تسهيلات أفضل.

لحظة القرار أشعلت حرباً في البيت المهاجر، فأهل علاء يريدونه معهم، فهو ابنهم الأكبر وصنعته تؤهله لحياة أفضل في المدينة بعيداً عن مخيم اللاجئين وقبائله المتحاربة المتعصبة، كما أنهم معترضون بشدة على اقترانه بالبنت البصرية السمراء، فيما يرى علاء أن مهنته في الورشة تدر عليه دخلاً جيداً وتؤمّن له أكثر من بيت مجاني بخدماتها، وهذا يمكّنه أن يبدأ حياته مع الفتاة التي يحب في المخيم دون مشكلات. وانتهى الخلاف بقطيعة، فقد رحل أهله برمتهم إلى المدينة المقدسة، وبقي هو ليتزوج بمديحة في عرس أقامه له

أصدقاؤه في المخيم، جرى ذلك بعد أن أهدى له مدير المخيم البيت المجاور لبيته، وسمح له أن يفتحه على بيته، فصارا يسكنان في بيتين صغيرين، وهذا كافٍ لأسرة صغيرة.

كرّت مسبحة الزمن، وتغيرت الأحوال وعاد العراقيون إلى بلدهم بعد أن أسقط الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن نظام صدام حسين وأرسله إلى حبل المشنقة، فتغيّر العالم، وعاد علاء مع زوجته إلى وطنهما ليختارا العيش بعيداً عن عائلته، فسكنا قضاء بعيداً عن الناصرية، وصار لديهما 6 أبناء.

*هذه قصة أخرى من قصص رجال انتفاضة 1991 في العراق، وقد كتبتُها كما رواها لي بطل القصة علاء وزوجته مديحة (أسماء رمزية).

قنبر ومرضعاته

قنبر تلميذ مشاكس. التلامذة والتلميذات يشكون منه، فهو دائم الشجار، دائم الصياح، متهرب من واجباته المدرسية، ومتأخر دائماً عن دخول الصف، سواء كانت الحصة أول الدروس أو آخرها. غالباً يشكو المعلمون والمعلمات منه في اجتماع المعلمين الشهري والفصلي والسنوي. قنبر ما زال في الصف الثاني ابتدائي ولكنّ سلوكه ينبئ بكارثة.

أسوأ ما في برد الصباحات الشتائية القريرة التي تدهمني في الصف الثاني، كان منظر قنبر بقميصه الخاكي الصيفي الوسخ المهترئ، وبقايا حذاء تاريخي ينتعله ربما مذ وطأت قدماه الأرض، وهو حذاء لم يبق منه، سوى قصاصتي جلد سوداوين تعتعهما الزمن لتستقرا على شسعي نعل تدنيا متصاغرين حتى باتا بمستوى الأرض، وهكذا يخال الناظر إلى الحذاء أن قنبر ينتعل قطعتي جلد سوداوين بلا شسع نعل!

جبين قنبر مركب من فصين منتفخين في جبهته، يحجبان تجويفاً لحدقتي عينين لونهما رمادي كأنهما عينا عجوز تقادم عليه العمر. الحاجبان متفرقان في كثافة خصلات الشعر، ومجتمعان في المنتصف في عقدة غريبة، تجعل من قنبر "عاقد الحاجبين" لكنه دون "جبين لجين"، بل يبدو جبيناً من قصدير صدئ! أما اذناه فرفيعتان نافرتان مزرقتان، تتدلى شحمتاهما بشكل منفر لتصلا رقبته مثل قرطين من لحم!

لا يرتدي قنبر في عز الشتاء معطفاً، وبدا واضحاً للجميع أن أباه لا يملك ثمن المعطف، وهكذا أهدته المدرسة في احتفال عيد الفطر، معطفاً شتوياً غليظاً أنيقا، باللونين الأسود والأزرق، وقد ارتداه قنبر مرة واحدة ولم يعد يرتديه، وكلما سألناه عن المعطف يقول إنه نسى أن يرتديه، وفي بعض الصباحات تكون درجة الحرارة 13 تحت الصفر، ومع ذلك يفد قنبر إلى الدرس بقميصه الأشعث الخاكي بشكل يثير الرثاء. ولدى السؤال من أبيه عن مصير المعطف ولماذا لا يرتديه قنبر، أجاب الأب إنه لا يعرف شيئاً عنه، كما إن قنبر يملك 3 معاطف، ولا يعرف الأب لماذا لا يرتدي الولد أيّاً منها؟ فالأب يغادر البيت في الخامسة صباحاً إلى دكانه، والولد يستيقظ لوحده ويتناول لقمة الإفطار وحده ويرتدي ملابسه وحده ويجمع كتبه وحده ويأتي الى المدرسة التي تبعد عن بيته نحو كيلومترين وحده!

أصل الحكاية أن قنبر قتل أمه ساعة مولده. تلك ساعة سوداء على الأب المسكين الذي كان يعشق أم قنبر، وعلى الوليد المشوه. وكانت معاناة الأب في الليلة الأولى هو حليب الرضاعة، من أين لأب المفجوع بزوجته القتيلة في ريعان شبابها بحليب يرضعه قنبر؟ وجاءت النجدة من عمة قنبر وقد كانت مرضعة، فألقمته ثديها طيلة الليل لتشبع جوعه الوليد. لكن عمة قنبر رحلت قبل طلوع شمس الصباح إلى بيتها، فهي أم لثلاثة أطفال أصغرهم ما زالت رضيعة تحتاج الحليب.

بدأ قنبر ساعاته الأولى في الحياة بحرمان مطلق، بلا أم تحتضنه، وبلا حليب يسد جوعه وعشه، كان على الأب في قريته الوادعة بأعلى الجبال أن يحتار في حل يطفئ هذا الحرمان. وهكذا نصحته أمه العجوز أن يبتاع لطفله رضّاعة ومسحوق الحليب السويسري نيدو، ليؤمن له الغذاء على الأقل ثم يفكر في حل لحل مشكلة غياب الأم.

قنبر الصغير رفض بشدة مسحوق الحليب والرضاعة البلاستيكية، وهكذا، أجبر أبوه على البقاء إلى جانبه، ليترجى امرأة الجيران أن ترضعه لعله يسكت، وهكذا كان، فشبع قنبر ونام راضياً عن عالمه.

ومر الأسبوع الأول من عمر قنبر كالجحيم على أبيه، فالمشكلة هي أين يجد مُرضعة له في القرية الصغيرة؟ ثم اقترحت عليه أمه حلاً نسوياً نموذجياً، وهكذا أعلن الأب أحمد في مسجد القرية حاجة ابنه الرضيع يتيم الأم إلى حليب الأم لأنه يرفض مسحوق الحليب، واعداً بأن يمنح كل أم متبرعة برضعة، شيئاً من النقود. وعصر ذلك اليوم، جاءت إلى محل الكماليات الفقير الهزيل الذي يملكه ثلاث نسوة عارضات عليه كاسات من حليبهن، مقابل دراهم قليلة.

وفي اليوم التالي، تدفق الحليب مدراراً على الأب المفجوع في محله، واحتار أين يذهب به، فنصحته أمه أن يضعه في البراد، ووعدت هي أن تقدمه للرضيع بالرضاعة الزجاجية ما دام يرفض الرضاعة البلاستيكية.

وهكذا حلت أزمة قنبر الغذائية بالمال، فالمال فيه حل لأغلب مشكلات العالم. لكن مشكلات من نوع آخر باتت تظهر في حياة قنبر كلما نما وكبر. وحين بدأ يذهب إلى المدرسة، تضخمت المشكلات وتفاقمت، ففي كل يوم يخوض قنبر معركة، وتخلص المعركة إلى أنه قد تقاتل مع أخيه بالرضاعة! كل صبيان وبنات القرية هم أشقاء قنبر في الرضاعة، وهذا وضع لا شبيه له في العالم.

وكلما اختصم قنبر مع صبي في صفه، جاءت أم الصبي تعاتب أبا قنبر في بيته وتقول له إنّ قنبراً قد ضرب أخاه، وهل جزاء إحسانها بإرضاعه وتنشئته، أن يضرب شقيقه في الحليب؟

احتار قنبر واحتار أبوه، فالأب واحد، والأمهات بالعشرات، وربما كان سبب ذلك طقوس الدين التي تعتبر الرضاعة سبباً للأخوة. وفي كل معركة، بات الأب ملزماً بالاعتذار لأحدى أمهات قنبر، وكأنّ الرجل قد تزوج كل نساء القرية!

تفاقم الأمر حين كبر قنبر، فهو لا يعرف من العالم غير أهل قريته، وقد ترك المدرسة وانضم لأبيه في دكان الكماليات الشعبية الذي يديره بطرف الناحية، وبذا لم يزدد عالمه عن عالم أبيه المحدود بالقرية.

الأب رفض بشدة أن يتزوج امرأة أخرى بعد وفاة زوجته، فكانت هذه لعنة إضافية للبيت الذي بات بيتاً رجالياً بامتياز!

وحين آل قنبر إلى سن البلوغ وتجاوزه لسن الرجولة، أراد الأب أن يزوجه لتعود الأنثى الى البيت الذي خلا من نفسها سنين طوال، فبدأت محنة من نوع آخر، إذ أنّ قنبراً عاشق!

العشق بذاته ليس جريمة، لكن عشق قنبر، ككل شيء في حياته التائهة بات مشكلة! فالبنت التي عشقها واسمها سحر خرساء صماء، وهي عيوب خلقية فيها قد لا يراها البعض عيوباً، وهذا جميل.

عرف قنبر سحراً، وهي تتنقل كل يوم بين بيتها في أقصى القرية فوق قمة صخرية قليلة الارتفاع وبين مطحنة القرية، حيث تنقل على عربة هرمة أكياس الحنطة، لتعود بها دقيقاً أسمرَ تعبق رائحته، فيما يكسو جمالها الصامت بياض الدقيق فتبدو كفتاة المهرج الهاربة من مهرجان أو من حلبة سيرك!

سحر المغلفة بالطحين، أيقونة جمال صامت، عشقها قنبر رغم شكلها المضحك، فهي ترتدي سروالاً رجالياً عتيقاً مرتقاً أسود، وقميصاً عسكرياً بكتافيات صلبة عتيقا حائل اللون، والدقيق يغمرها من رأسها حتى حذائها المصنوع من الكاوتشوك الأسود الرخيص، حذاء القرويات. رغم كل هذا عشقها قنبر، وبات يساعدها في إيصال حمولة الدقيق إلى بيتها على بردعة فوق ظهر حمار يكتريه خصيصاً لهذا الغرض، ويغادر دكان أبيه حتى يصل بالحمار والحمل وصاحبته إلى بيتها.

ثم تكلم إلى أبيه وباح له برغبته في الزواج من سحر، وتعجب الأب من تعلق ابنه بفتاة خرساء تكد ليل نهار، لكنّه في النهاية أنساق لرغبة قنبر، وقرر أن يرسل بعض النساء للحديث مع أمها، وهكذا ذهبت ثلاث من مرضعات قنبر لخطبة البنت، وهن بمثابة أمهات هذا الرجل العجيب!

في بيت سحر، تفجرت مفاجأة غير منتظرة بوجه الخاطبات، فأمّ سحر التي يريد أن يخطبها قنبر لتكون زوجة له، قد أرضعته، وبات على هذا الأساس شقيق ابنتها ولا تحل له، ولا يجوز زواجه منها!؟

حين ابلغوه بهذا، تهدم الحلم الجميل، وتحول قنبر من شاب يغمره الفرح ويضحك لأتفه الأسباب، إلى رجل هرم حزين، لا يجد ما يداوي به حزنه سوى التبغ ومزيد من الدخان يحرق به رئته بعد أن ضاع الأمل.

ذات يوم، كنت ماراً بدكان أحمد، لأجد تلميذي المشاكس القديم قنبر جالساً في برد الشتاء بباب الدكانة وهو ينفث بحرقة دخان سجائره، ويتطلع مهموماً صوب مطحنة القرية. وخطر لي أن أسلم عليه، فتوقفت أحاوره، ونهض الشاب الذي كان مرحاً من مقعده، وصار يتحدث إليّ وهو يتجنب النظر في وجهي، وتلك عادة أغلب من كانوا تلامذتي، حرصاً منهم على إبداء الاحترام لمعلمهم القديم. وانتهزت فرصة تواضعه الظاهر لأسأله عن سبب حزنه، وانغماسه في التدخين الضار بالصحة، فتنهد متحسراً وشرح لي ما جرى، وكيف تحولت من كان يحلم بالزواج منها إلى أخت له بالرضاعة!

أثار حزنه عندي مشاعر التعاطف، فعدت أؤكد له أن الإرضاع من ذات الأم لا يجعل الرجل والمرأة اشقاء إلا بشروط معينة، وعلى حد علمي فإنّ الفقهاء يحددون عدد الرضعات الموجبة للشبع ب 15 رضعة، يكون بعدها الأثنان أشقاء، فهل تحقق هذا العدد من رضعات أم سحر لك؟

نظر قنبر إليّ ببلاهة مشوبة بالأمل وقال: من أين لي أن أعرف جواب هذا السؤال؟

قلت له مهدئاً: أرسل النسوة الثلاث ليسألن أم الحبيبة الصامتة عن عدد الرضعات التي منحتها لك، هذا مهم جداً على حد معرفتي!

وفارقته مؤكداً عليه أن يوافيني بالأخبار سِراعاً.

بعد أسبوع مررت عامداً بدكان أحمد للكماليات لأعرف ما آل إليه حال قنبر ومشروع زواجه، فرأيته جالساً أمام المحل وهو يدخن ساهماً، واقتربت منه بالسؤال عما آل إليه حال خطوبته فقال والحيرة تغرق آماله: تقول الأم إنها لم ترضعني سوى مرتين أو ثلاث لا أكثر لأنها لم تكن تدر ما يكفي من حليب لابنتها سحر آنذاك، لكن الخاطبات يقلن، إنّ رضعة واحدة تجعل الولد والبنت شقيقين، ولست أدري كيف أحل هذه المشكلة!؟

ابتسمت له وأخذت من يده لفافة التبغ، ودعستها تحت حذائي قائلاً: قنبر يا ولدي، لا عليك بكلام النسوة، أذهب إلى الشيخ حسنين وهو الذي ينظم عقود الزواج، وارو له ما جرى، واستمع إلى ما يقول!

نظر قنبر بعين دامعة إلى لفافته التي سحقتها، ثم نظر إليّ بعين أترعها الرجاء وسألني ملتمساً: انا أخجل أن أفعل ذلك وحدي أستاذ، تعال أنت معي إلى الشيخ محسن لتسأله أنت عني؟ من فضلك، لن أنسى لك هذا ما حييت؟

ضحكت، وامسكت بقنبر من يده وأنا أقول: اسمه حسنين وليس محسن، ولا مانع عندي أن نذهب إليه معاً، انتظرني غداً الظهر وقت الصلاة أمام باب المسجد، وسأكون هناك لنكلم الشيخ بعد الصلاة.

وكما توقعت، فقد أكد الشيخ حسنين كلامي، وقال إن الرضاعة يجب ألا تقل عن 5 وبعضهم يقول إنها 15 رضعة، ليتواءم الصبي والبنت فيكونا شقيقي رضاعة.

انفرجت أسارير قنبر المعقدة، وانبسطت تضاريس وجهه الغريبة لهذا التأكيد، وذهب راكضاً إلى أبيه ليبلغه بما جرى.

بعد أسابيع، احتفلت القرية بزفاف قنبر على سحر، وانتقلت الفتاة لتستقر في بيت قنبر، الملحق ببيت أبيه. وبدأ الاثنان حياة جديدة ستزيل عن قنبر المتعب لعنة المرضعات.

مخيم دزلي- إيران 2002

لا يدري ميثم كيف يحب!

ليس سهلاً أن ينام مع أنّ نهاره يبدأ من الثامنة وينتهي في السادسة مساء ولا يتسع لإنجاز كل أعماله المضنية، ليس سهلاً أن ينام مع أنه يطرق الحديد منذ الصباح حتى الغروب، وليس سهلاً أن ينام مع أن ساقيه لا تقويان على حمله من جراء الإرهاق، وحين يلامس جسده الفراش الممهد على الأرض العارية تنتاب أطرافه ورقبته ورأسه أوجاع مبرحة وتتلاشى عضلاته وأعصابه لشدة الألم ومع ذا وذا يأباه الكرى!

ليت النوم يشترى كما البيض والبطاطا وصواني الطعام الرخيصة فيبتاعه بلا عناء وينام بلا مشقّة. كيف السبيل لأن يتخلص الإنسان ممن يحبهم؟ إننا نكره ونحب بنفس المقدار، ولذا نسمى شعوباً عاطفية، نكره أعداءنا ومنافسينا وحسادنا ومن هم أفضل منّا، ونحب أنفسنا وأحبتنا وأبناءنا وأهلنا وأصدقاءنا بنفس المقدار، ولكن حين يجتمع الحب والمقت باتجاه شخص واحد يصبح الوضع لا يطاق.

كيف يحس المرء بالبرد والحر معاً في آن واحد، وكيف يتذوق الحلاوة والمرارة في لقمة واحدة، وكيف يحس الحزن والفرح في موقف واحد؟ لا تجتمع كل هذه الأضداد معاً قط، إلا أن حياة ميثم الشيخ عباس السعيد جمعت كل ذلك، بل توجزه أحياناً في هنيهة عابرة!

أبوه الذي عشقه وأكبر صلابته ورجاحة عقله وإخلاصه لقضيته، صار قرباناً لتعبدّه الموغل في المحبة وصلاته التي اعتاد أن يؤديها في حسينية السماوة! في العاشرة من عمر ميثم، طرق رجال الأمن باب بيتهم ليبلغوهم أن جثة الشيخ حمودي السعيد تنتظرهم في مركز الشرطة، فقد أعدم لخيانته الوطن وتحالفه مع الله وحزبه ضد السلطة الوطنية! وعليهم أن يستلموا الرفاة ولا يقيموا مجلس عزاء، ويالها من مفارقة؟

في تلك الليلة، بكى ميثم لفقده أبيه بطريقة لم يفهمها، وبكى لأشياء أخرى قريبة من هذا الهم، لكنّه لم يكن يفهمها. ذلك الحدث الفاجع أضحى منعطفاً دارت حوله حياة ميثم وحياة أمته وإخوانه وأخواته، فاجعته بوالده الشيخ كانت بداية لتحولات عصيبة لا حصر لها. أليس غريباً أن يُفرض على الإنسان موقف سياسي لم يختره ولم يشارك في صناعته؟ يشبه هذا إلى حد كبير الديانة التي يرثها الإنسان عن أبويه، والاسم الذي يناله دون أن يسأل عن رأيه، والمحلة التي يولد فيها، والأرض التي ينتسب اليها، فتصبح كل هذه همومه وينبغي له الدفاع عنها حتى الموت!؟

كل ليلة ينام ميثم بعد الواحدة وتخنقه وتؤرق منامه آلاف الكوابيس، وتجتاح سريره كالحريق، وحين يستيقظ لصلاة الصبح التي لم يحبها قط والتي لم يفهم لماذا يجب عليه كمسلم أن يؤديها، يغادر فراشه وفي فمه مرارة وجفاف يلف حتى حنجرته فلا يقوى على الكلام، أما قلبه فيبقى بسبب تلك اليقظة الكريهة عليلاً كأنه برتقالة فاسدة.

بعد طقوس صلاة الفجر/ الصبح، يعود لينام فلا ينام، ولا يجلس ولا يمشي، كل يومه يرتبك بسبب تلك البداية التي كان يسوقهم لها الشيخ حمودي السعيد بالعصا، كيف السبيل الآن لتغيير كل ذلك؟

ينام العالم وزوجه وأبناؤه الخمسة، وميثم لا ينام، أخوه هميم ينام قرير العين في لندن، وأخوه الأصغر كامل ينام قرير العين مع زوجته السويدية في ستوكهولم، واخته بتول تنام وابنتها في جنيف بهناء ودعة، كما تنام أمه هادئة ساكنة في قبرها إلى جوار أبيه بسلام ودعة، أما هو فلا ينام، رغم أن بيته قريب جداً من أعرق بيوت الله بنسخته الشيعية.

ميثم بحب أسرته، أبناؤه الخمسة وزوجته التي رافقته في رحلة المهجر الصعبة وفي سنوات العذاب التي لا نهاية لها، هو يحب أصدقاءه الذين لا يزورونه إلا لماماً (لضيق بيته وضيق ذات يده)، ويحب على وجه الخصوص أن ينصت للمنشاوي وهو يرتل القرآن كل غروب، إلا أن زعيق الصغار وشجارهم الذي لا ينتهي يدمر كل غروباته. ميثم يحب أن يكلم بتول أخته البعيدة التي تروي له في رسائلها قصصاً جميلة من جنيف، إلا أن أجور مكالمات الهاتف باهظة جداً ولا يستطيع أن يحدثها إلا لمدة 5 دقائق، مرة كل بضعة شهور.

ميثم يحب أن يراسل أخاه هميم ويتبادل معه الصور إلا أنّه لا يجيد الكتابة! ولا معنى أن يطلب من أحدهم أن يكتب له جواباً، إذ لا يليق أن يحب المرء أخاه بالاستنابة!

وهو يحب أن يسمع صوت أخيه كامل العذب عبر الهاتف، ويحب أن يناغي أبناءه ويكلم زوجته بلغتها العربية المضحكة، إلا أن كامل لا يملك هاتفاً وهذا لغز لا يعرف مفتاح حله. هو يحب أن يزور قبر أمه الحبيبة مساء كل خميس، إلا أن الفاصلة بينه وبين وادي السلام في النجف كالفاصلة بينه وبين القمر، بل القمر أقرب إذ يطل عليه أحيانا في الليالي غير الغائمة.

ميثم يحب اللحم المشوي مع البصل والخضار، إلا أنه يكتفي أن يتعشى كل ليلة بصلاً وخبزاً وخضاراً مقلية بالسمن، فاللحم غالي الثمن، ولا يكفي دخله لشراء لحم يكفي أفراد العائلة. ميثم يحب أن يحلّي بعد العشاء، أو أن يتناول مع أفراد أسرته وهم متحلقون حول التلفزيون فواكه الموسم، لكنّ دخله لا يؤمّن له شراء الحلوى والفاكهة إلا نادراً. هو يحب أن يرقب غروب الشمس في الأصائل، إلا أن العشو الملازم له منذ طفولته يحرمه من هذه اللذة البسيطة.

ويحب ميثم أن يلعب كرة القدم إلا أن حجمه الخارق للعادة يمنعه عن ذلك. هذا المقدار الهائل من الحب المكبوت المضني يؤرقه ليلاً حتى ولدت إيمان قبل أسبوع، لتضيف صخرة أخرى إلى جبل همومه. هذه الوليدة الرخصة البيضاء مثل مَنّ السماء بفمها المكور كزهر الياسمين في موسمه، ولدت عمياء لتضيف لعالمه ظلاماً جديدا. ميثم السعيد مازال صابراً على قضاء الله لا يعترض على إرادته ولا يرضى أن يتمرد على هذه القسمة الصعبة. ثلاثة من بنيه ولدوا نصف عميان بالوراثة لزواجه من بنت عمه، ولا يريد ميثم أن يمتنع عن الانجاب.

قال زوجته أم مهدي وهي لا تزال في فراش النفاس: خذ الأولاد إلى المزارع القريبة، أنظر إلى حجومهم، صاروا بغالاً، انهم لا يتحركون، يأكلون وينامون ويتشيطنون، خذهم ليتحركوا قليلاً، ودعني مع الرضيعة، دعني أنظر إلى خيبتي وسوء حظي! واجهشت بالبكاء.

يسيرون فتغوص أقدامهم في العشب البري، قافلة من البائسين يقودها ميثم السعيد (أتكون سخرية القدر قد اختارت له هذا اللقب؟). يمسك بأصابع مهدي ومحمود وهما يرتطمان بساقه في سيرهما، والآخران يتراكضان هنا وهناك، فاطمة تجمع الزهر، وحسين يطارد طيور القطا والسنونو الفزعة التي تغادر اعشاشها المخبأة تخت صخور الأرض الخضراء على حافة الجدول. يصل الموكب المتداعي إلى أيكة من الشجر البري، الأشجار البرية أصلب عوداً وميثم السعيد قد أتلف الهم أيامه وأحالت الأيام ألوان فرحه إلى سواد مطلق شاحب لا زال يقاوم ويشتد.

في العمل، في السوق، في المسجد يبارك له الناس مولودته الجديدة ولا يرحمون عذابه، بل يتساءلون بإلحاح سمج: هل البنت بصيرة أم مبصرة؟ وفي كل سؤال ينفتح جرح يأبى أن يندمل، في كل سؤال يتحول ما يحبه ميثم إلى كراهية.

بات يمقت نفسه، يمقت جسده المترهل العملاق، يمقت أصابعه التي تشبه مدكّات اسطوانية قبيحة، يمقت صلعته التي اجتاحت رأسه ولمّا يصل الأربعين من عمره بعد، يمقت عينيه الذاويتين وهم تضعفان ويتناقص بصرهما كل يوم، يمقت عويناته الغليظة التي يبدل عدساتها كل عام بأخرى أكثر سمكاً حتى أن أنفه الكبير الغليظ لم يعد يقوى على حملها! هو يمقت قدميه اللتين لا يوجد حذاء يحتويهما سوى جزمة العسكر بشعة المنظر، يمقت أمه التي أورثته كل هذا الهم وفارقته لتدعه يواجه وحده هذا العذاب غير المتناهي (يشيخ المرء فجأة حين تموت أمه). وبات يمقت أباه بشدة لأنّه اختار السياسة ميداناً لعمله، فبات عدواً للحكومة، أما كان يستطيع أن يكتفي بالصلاة في بيتهم الصغير، فيحمي أسرته من كل هذا العذاب والتشرد؟

ميثم السعيد يمقت أبناءه لأنه يتعذب لرؤياهم يتعثرون في مشيهم ويتلمسون الجدران متكئين عليها وهم صبية، ماذا عن غدهم إذا حين ينطفئ نور بصرهم؟ ويمقتهم لأنهم يمنعونه عن سماع تلاوة المنشاوي، ماذا لو كانوا أكثر هدوء؟

هو يمقت زوجته التي ما انفكت تبكي وتندب حظها، وكأنها لم تكن ابنة عمه، وتقاسمه هذا الميراث السيء؟

ويمقت بيته الذي أمسى مأوى للعجزة الحزاني. ويمقت أصدقاءه لأنه يشفقون عليه باستمرار، ويمقت أخته التي رحلت بعيداً وما عاد يستطيع أن يحدثها، ويمقت أخاه هميم الذي رحل دون أن يعلمه الكتابة، ويمقت كامل الذي يرفض أن يضع هاتفاً في بيته.

لكن ميثم الذي يطوف بالصباح أزقة المجمع السكني الذليل في هذا البلد، يلقي السلام على جيرانه بوجه لا تعوزه الطيبة ودماثة الخلق، وحين يجمع الناس مبالغ لإطعام الأرامل والمسنين يشارك ميثم بمبلغ معتبر، مع أن بيته أحوج لهذا المبلغ، وينام ليلته تلك وهو يجهل إن كان يحب أم يكره، ولا يدري ما عساه فاعل، أيكره أم يعشق، هل هو شرير أم طيب؟ ميثم لا يدري كيف سيصبح حال مملكة العميان التي يقودها حين يلفه العمى التام.

يتقرب من فراش ابنه البكر مهدي وهو يتحسس طريقه، عظيم الجسد، جميل الطلعة، عمره ثمانية أعوام إلا أن عقله ما زال في الثالثة، ينام لصقه ويسأله بسذاجة لا تناسب حجمه: لم لا تنام يا أبي؟

اذهب عني، ودعني أنام.

خذنا غداً للحقل مرة أخرى، صوت الماء في الجدول حلو ورائحة العشب طيبة يا أبي.

هذا ليس وقت حديث، غداً يوم آخر، الله كريم.

يحاول الصبي أن يتحدث فيضغط أبوه ساعده ويحثّه على الذهاب عنه.

في الصباح أفاقت أم مهدي لتجد بعلها قد غادر الدار دون أن يتناول افطاره، وحين حل الظهر انتظرته ليأتي ويشاركهم الطعام (إذ لم تعتد أن تتناول طعام الغذاء لوحدها).

لم يعد ميثم السعيد حتى الغداة، ولم يقل لأم مهدي أين قضى ليلته الصعبة المسهدة، فقد كلّم أخاه هميم بالهاتف وطلب منه ومن أخيه الأصغر كامل مساعدة تخرج به من بؤرة الهم الأعمى، فكانت له قصة أخرى مع الهم بعد سنة، ولكنها قصة من نوع آخر تماماً. قصة بنكهة عراقية لاذعة.

- بعد عام 2003 إثر التغيير الزلزالي في العراق، تولى شقيق ميثم الأكبر منصباً قريباً من إحدى الرئاسات الثلاث. ومع ذلك بقي ميثم غارقاً في الهم مع عائلته العمياء. وهذا سر عجيب لم أفهم له سبباً، لو التقيت ميثم اليوم لسألته عن هذا السر الغريب. هذه قصة حقيقية وقد تصرفت بالأسماء للمحافظة على خصوصية ذوي العلاقة.

مخيم إبراهيم أباد/ إيران - أيار 2002

لميس الجميلة زوجة الجنرال

لا تشبه لميس العراقيات، وكل ما فيها من حسن
ورقة وخلق رهيف يشي بأن أصلها ليس عراقياً، بل مشرقياً شمالياً موغلاً في تواريخ شعوب أوراسيا. فهي طويلة القامة رشيقة القوام نحيلة الخصر، جسدها يكاد يخلو من التكورات المحببة لدى شعوب المنطقة. بيضاء البشرة لدرجة أن زرقة عروق ساعديها تشفّ أحياناً للرائي. عيناها عسليتان بصفرة تسللت إليهما من كهارب روسيا، ورموشهما طوال ملتفة حول الجفون، أما المقلتان فطويلتان مجرورتان كأنهما عيون جنيات البحر. فمها هو ذاك الذي وصفه الشعراء بأنه "مرسوم كالعنقود"، أما ضحكتها فربيع لا ينتهي.

رقيقة مثل زهرة، ونما فيها عبر سنوات الدرس حسّ فني مرهف، فدرست الفن وصادقت الفرشاة واللون، فتراكمت في غرفتها الصغيرة لوحات تحمل من اللون أكثر ما تحمل من لمسات القلم.

ولأنّها بالغة الرقة، فإنها أكثر عرضة للخدش بمرور نسمة، وهذا هاجس أمها وأبيها المقيم، رغم أنها كانت الوسطى بين بنيهم، لكنّ خشيتهم عليها تفوق خشيتهم على أختها الكبرى وأخيها الأصغر.

وكأنّ الأقدار تسوق لها مصيراً يناسب رقتها، فساقتها لتعمل في عالم تصميم الأقمشة بمكان يضجّ بالرشيقات الجميلات، فهو مركز لعروض الأزياء، وفيه تختلط الشعوب وتختلط الأهواء والميول، ويوحّد الجميع عنصر الجمال النادر. وهكذا كانت تمر بهدوء كل صباح في رواق الطابق الأول، لتصادفها العارضات الجميلات، وبعضهن ما كن يتقنّ حتى العربية رغم أنهنّ عراقيات!

وعرفت عن كثب هذا العالم الجميل الرشيق الملوّن، فالجميلات الرشيقات الرهيفات مجبرات على الالتزام بحمية قاسية للحفاظ على رشاقتهن، ومجبرات على التمرين في المركز الرياضي الخاص بالدار كل يوم، ومجبرات على السباحة لمدة ساعة في الحوض الداخلي للدار كل يوم، وهن ممنوعات من الحمل والولادة حتى بلوغ سن التقاعد! وهذا بحد ذاته كان شرطاً يتحدى طبيعة الأنثى لدى المرأة، فرفضن كثيرات مثلهن عروض العمل في الدار الأنيقة.

لميس كانت من بين أجملهن، لكنّ أهلها رفضوا بشدة أن تعمل معهن، فبقيت تعمل في قسم تصميم الأقمشة الذي كان يغذي السوق في تلك المرحلة بأنسجة ملونة مزيّنة بنقوش وخطوط، تنتجها لميس ورفيقاتها في القسم. وهذا البعد القريب عن عالم الجميلات طالما أثار في نفسها مشاعر الغيرة والغبطة تجاه عالمهن الأنيق. لكن، وبعد بضع سنوات، تعزز لدى لميس نفسها الأدراك بأن الدخول في عالم العارضات، يحمّلها خسائر كبرى، كان في طليعتها حرمانها من فرصة زيجة لائقة. وحين تقدم إليها ضابط في الحرس الجمهوري من النخبة القريبة لصدام حسين، ترددت في القبول لأنه اشترط عليها أن تترك عملها الجميل

الملوّن، لكنّ أهلها وأصدقاء الأسرة ما برحوا يحثونها على قبول عرضه، حتى قبلته، فتغير مصيرها وابتعدت عن عالم الجميلات الحالم الغريب لتدخل إلى عالم التدريس الثانوي وعالم زوجات العسكر في زمن القادسية، أطول حروب القرن العشرين.

انتهت حرب السنوات الثمان، فخاضت لميس وزوجها منعطفاً جديداً، حيث سكنا في بيت أنيق باذخ مطل على دجلة في أغلى مناطق العاصمة، وكل ما في البيت فاخر ثمين عصري، كما امتلك زوجها سيارتين مطهمتين، خصص لها واحدة تتنقل بها من وإلى مدرستها الجديدة في العاصمة وإلى بيت أهلها وإلى مصالحها الأخرى، فيما بقيت الثانية أغلب الوقت واقفة في باحة البيت لا يستعملها المقدم الأنيق لأنّ سيارات المعسكرات كانت دائما في خدمته، وكلها حديثة أنيقة.

ومع غزو الكويت، اهتزت حياتها بشدة، إذ كان زوجها ضمن القطعات التي غزت الكويت، ثم أباد طيران قوات التحالف الدولي وحدته، لكنّه نجا بأعجوبة وعاد إليها ليعيشا معاً سنوات الحصار الصعبة، التي لم تكن عليهما سنوات صعبة، بل أقل رفاهية.

تسعُ سنوات مرت على تلك الزيجة، لكنّ أحد أهم أركان الأسرة بقي غائباً، إذ لم ترزق لميس بطفل يتوّج اسم العائلة ليكون امتداداً لهما. وحاولت مع كل وسائل وامكانات الطب الحديثة، إلا أنّ عيباً مجهولاً ما برح يحيل دون اكتمال سعادتها، وبقيت قلقة مؤرقة قابلة لقدرها التعيس.

منتصف التسعينات، تكشفت لها مصيبة كانت خافية عنها لبضع سنوات، فزوجها الكولونيل قد تزوج سراً من امرأة أخرى وقد انجبت له ولداً وبنتاً، وهي تسكن في بيت مستقل قريب على بيت أهله في مدينة صغيرة نائية غرب العراق. المصيبة المدمرة انكشفت حين انفصلت الزوجة الجديدة عن الكولونيل وباتت تطالب بالطلاق، فاتصلت بلميس شخصياً والتقتها وروت لها كل القصة. وكانت تلك ضربة قاصمة لعالم لميس المرتب الباذخ الجميل، فهي ليس الوحيدة في حياة الكولونيل، والأقسى من ذلك أنّ الزوجة الجديدة تتفوق عليها بثمرتين، هما امتداد الأسرة الذي طالما بحث عنه زوجها.

تلك العاصفة، أطاحت بعلاقتها بزوجها بشدة، فانفصلت عنه، وعادت إلى بيت أهلها، واستمرت القطيعة عاماً كاملاً حتى حصلت الزوجة الثانية على الطلاق من زوجها وتركت له الولد والبنت، فعاد الكولونيل يعرض على لميس عرضاً سخياً آخر، اذ بات بوسعهما أن يعودا لبعضهما لو قبلت لميس أن تكون أمّاً للصغيرين. وهكذا كان، فبعد بضع أشهر عادا ليعيشا في بيت جديد أنيق، ومعهما هذه المرة طفلان جميلان يناديانها بماما لميس!

حملت هذا اللقب بفخر، وغمرت الطفلين بحنانها وعشقها فنسيا أنّ لهما أماً، ولم يعرفا في العالم سوى ماما لميس، لاسيما أنّ الأب بحكم وظيفته كان يغيب عن البيت فترات طويلة.

وبات الكولونيل جنرالاً، وصارت لميس زوجة الجنرال المدللة، ودخلت معه عالم الأقوياء فخورة بجمالها الخارق وبطفلين جميلين مدللين يعلنان انتصارها المطلق في ميدان الأنوثة، انتصار حاسم رغم نكهة المرارة التي تلازمه.

وعرفت عن كثب زوجات الكبار، فخالطتهن وأمست تربطها بهن مصالح وزيارات وصداقات، ولم يعد من الصعب عليها أن تعيش تلكم السنوات العجاف التي عاشها العراقيون. ثم اشترى لها الجنرال بيتاً ليكون هدية عيد زواجهما السابع عشر، كان بيتاً كبيراً حديثاً، آثرت أن تُسكن فيه مستأجرا، كي يدرّ عليها دخلاً ثابتاً كل شهر بعد أن استقالت من وظيفة التدريس وتفرغت لرعاية الأطفال.

ثم جاء زلزال 2003، فانقلبت الأوضاع في أرض الرافدين، وصار زوجها طريداً يبحث عنه الأمريكان واجهزة أمن السلطة الجديدة، حتى اعتقلوه وزجوا به في سجن مرعب.

عادت لميس ومعها ابنتها وابنها ليعيشوا في بيت أهلها، فيما أمضى الجنرال 3 سنوات عجاف في السجن، خرج بعدها ناحلاً وقد اهتز عالمه الذي اعتاد عليه، وفقد إلى الأبد القوة الكاسحة التي كانت في يده، ومعها فقد حضوره الاجتماعي، اذ بات يتخفى عن الأعين خشية فوهات الكاتم التي باتت تستهدف جنرالات الحقبة السابقة. وهرب أخيرا إلى إمارة خليجية غنية، ليعيش هناك حياة جديدة، وما إن استقر حتى التحقت به لميس وابنيها لتبدأ العائلة الصغرة حياة جديدة.

استعاد الجنرال حظوته لدى سلطات الإمارة، ووصلته أموال من بيع أملاكه في العراق، كما خصص له راتب تقاعدي كبير يصله من بلده كل ثلاثة أشهر، فتحسّن وضعه واشترى شقة أنيقة تطل على مياه الخليج، فيما انخرط ابنه وابنته في مدارس الخليج، وعادت لميس لتعمل براتبٍ محترم مدرسة لمادة التربية الفنية في إحدى مدارس البنات في الإمارة.

الصفحة الجديدة في حياة لميس أعادتها إلى عالم القوة بالقرب من عالم الأميرات والشيخات الخليجيات المنعمات بحياة البترودولار الباذخة.

لميس الجميلة من اوراسيا تنعم اليوم بحياة هانئة وبات ابنها وابنتها نجوماً في مجتمع إمارة النفط المترفة.

بغداد ربيع 2018

مع ثريا أقرب إلى الله

لم تكن قرية بمعنى الكلمة، بل بيوت وأكواخ ومبانٍ متناثرة بين القمم الصخرية والمرتفعات والتلال التي تكسوها الخضرة ويرصعها الزهر بألف لون. وفي غفلة من الزمن، كان عليّ أن أعلّم الصبيان والبنات اللغة الإنكليزية في مدرسة تبعد 5 كيلومترات مسير جبلي عما بات بيتي.

لحسن حظي أن مسيري اليومي من البيت إلى المدرسة ذهاب إياب يساحل جدولاً يسيل بلا انقطاع من القمم المثلجة على مدار العام. المدرسة بناية شيدت في منتصف سبعينات القرن العشرين، لكنها مازالت نظيفة متماسكة لجودة بنائها، وخير ما فيه سقفها القرميدي الذي مرت عليه عقود تحت الثلج والمطر ولا زال يتألق حين تشرق الشمس بلون خام الحديد الأحمر ليسرّ مرآه الناظرين ويطرب حواس الورد والعشب الراقص في المروج.

أما بيتي، فقصته لا تشبه قصص البيوت، فقبل عملي في المدرسة العتيدة، عملت مسؤولاً عن الحانوت في مصنع حكومي لإنتاج الآجر، وهو عمل موسمي لمدة 6 أشهر، ينقطع مع سقوط الثلج، وسلمني مدير إدارة المصنع، مفاتيح المخزن الكبير ومعها مفاتيح المشتمل السكني الصغير. وبعد نهاية موسم الانتاج، أغلق المصنع وحانوته، لكن مدير الإدارة كريم الطبع أتاح لي أن أحتفظ بمفاتيح المشتمل حتى الموسم المقبل، ثم حصلت على عمل في المدرسة الحكومية، فأتاح لي قائمقام المنطقة أن أبقى في مسكني بالمصنع المملوك للدولة ما شئت مجاناً، ما دمت أعمل في مدرسة حكومية نائية لا يريدها أحد سوى سكان القرى والنواحي القريبة.

الغيم هنا لا يطرز صفحة السماء ككل غيوم العالم، بل يتسلل نازلاً إلى المروج ليصبح ضباباً شفيفاً يمسح على ثنايا وقمم الجبال والهضاب برفق كل يوم صبح مساء.

ضحى ذات يوم ربيعي بعد نوروز ذاك العام، رأيت صبياً بقميص أخضر يركض بين العشب الراقص على سمفونية الريح وهي لا تهدأ. لم يكن يركض بل يراقص العشب من بعيد وكأنه يطاول موجاته الصاعدة الهابطة محاولاً ألا يلمس الأرض بل يبقى يحوم فوق حافاتها كخيال مزار غريب. وكأنما أدرك الصبي هاجس المزار الغريب الذي راودني وأنا أراه مسافراً عبر مرقص الريح، فانعطف إلى مزار حاجي عباس، حيث يُدفن موتى سكان البيوت والأكواخ التي تأبى أن تصبح قرية، وتأبى أن تستقل بالنأي عن بعضها، ثم توقف أمام مقبرة المزار التي تحيط به من كل صوب بلا نظام ولا حسابات معقدة. ومن بعيد رأيته يقف عند شاهدة قبرة بيضاء تلمع في شمس الضحى، ثم ركع قربها ووضع إصبعه على حافة القبر وهو يتلو صلاة أو دعاء.

وحيثما كنت جالساً اتشمس أمام بناية المدرسة التي مازالت مقفلة بسبب عطلة نوروز، لاح لي الصبي ناهضاً من ركوعه العزائي على حافة القبر الأبعد في مقبرة مزار حاجي عباس

وصار يعدو باتجاه المدرسة متقافزاً فوق صخور المنحنى. واقترب من مجلسي، ثم تنبّه إليّ حيث أجلس ووقف على بعد بضع عشرة خطوة يرقبني مثل عصفور خائف. أومأت له بيدي أن يقدم، فتقدم حتى باتت مسافة التخاطب القروي الصادح كافية بيننا، وصرخ يسألني ماذا أفعل أمام باب المدرسة المعطلة؟

فقلت له وأنا أظلل عيني لأراه بوضوح، إني معلم اللغة الإنكليزية وجئت هنا لأتشمّس في هذا الصباح الربيعي الندي، ولا أدري لماذا سألني الصبي صارخاً، هل ذهب معلم الإنكليزية السابق لينام مع الله في حديقة مزار حاجي عباس؟

في نبرته بلاهة تفوق براءة سكان الجبال الأشداء، وفي سؤاله قلق صوفي لا يراود الأطفال في سنه. أجبته أن المعلم السابق أنتقل ليسكن في مدينة بعيدة بعد أن تزوج بامرأة من المدينة، وأني حللت محله منذ العام الماضي، ثم أردفته بسؤال لماذا لا يأتي هو إلى المدرسة؟

نظر إليّ وأجابني مفتخراً أن أمه قد سجلته مبكراً ليحضر الدروس بعد نوروز على أن يزور الصف الأول منذ بداية العام المقبل. ثم استدار على عقبيه، وعاد يسابق عشب المرج عدواً صاعداً على السفح البعيد للجبل الذي يقوم عليها المزار.

بعد نوروز عمّ الدفء فردوسنا المتواري بين الغيم والضباب، وفتحت المدرسة أبوابها يوم الثلاثاء الأول من نيسان، وجلست أنا والمدير ومعلم الحساب والسيدة فريدة معلمة كل شيء نتشمس أمام باب المرج المزهر اليانع العبق، لكن لم يلتحق التلاميذ لأنّ أغلبهم تنتهي عطلته غداً يوم الأربعاء الأول بعد نوروز، حسب تقاليدهم الموروثة من زمن تائه غير متفق عليه.

بقينا نتبادل الحديث، ونهرش أجسادنا المعبأة بسترات صوفية بسبب البرد المقيم، وبسبب شمس الربيع وهي تُساقط علينا حراً في هذا المشراق المعفى من هبوب الريح والمواجه للشمس بكل صفاقة! ولاحت في الأفق النازل من السفح الآخر للجبل الذي يستضيف مزار حاجي عباس امرأة بلباس لازوردي طويل، وفوقه جاكيته ريفية غليظة متعددة الألوان خير ما توصف به "أنها بلا لون"، ومعها يسير طفلٌ يرتدي تراكسوت رياضي سماوي اللون، وعلى ظهره حقيبة ملوّنة.

وصل الاثنان صوبنا، ودخلا حديقة المدرسة التي لا يحدها سياج أو جدار، حيتنا السيدة بوجه بشوش جميل ذي ملامح جبلية حادة رققتها أسالة وجنتين زينتا الوجه الممتلئ المستدير كزهرة عباد شمس ضاحكة، وقد تلفع رأسها بحجاب مزهّر وتحته عصابة سوداء تحجب محاولات الشعر المضنية للظهور علناً بحثاً عن نور الشمس أو بحثا عن عين رجل يريد تحسس مذاق الأنثى في شعرها الجبلي. وبعد سلامها حيّانا بخجل ابنها الذي كلمني يوم أمس أمام المدرسة. وأعلنت السيدة أنها جاءت بابنها نوح لتسجله كمستمع حتى نهاية العام، كما قيل لها، على أمل أن تسجله في الصف الأول العام المقبل، وسألها المدير عن عمره،

فأجابت إنه في الثامنة. كان هذا مألوفا في مدارس الأرياف، فغالباً لا يسجل الأهل بنيهم في المدرسة حال بلوغهم السادسة.

سارع المدير يرحب بها وبابنها، ورافقهم إلى الداخل ليقوم بنفسه بتسجيله في غرفتنا المشتركة الفسيحة، وهي تضم إدارة المدرسة وغرفة المعاون وغرفة الكاتب وسجلاته وغرفة المعلمين وتفاصيل إضافية أخرى. بعد هنيهة، خرج الجميع، وودعتنا السيدة ثريا وابنها ورحلا باتجاه الغيم.

تلك الليلة، مع غروب الشمس بقيت أرنو إلى حيث سافر نوح وأمه، ومع ارتفاع أذان المغرب من مسجد لا أراه، خلت أنّ نورا ينبعث مترنحاً من أفقهم الغارق بالغيم والضباب. فجر تلك الليلة، أيقظني طائر غرد يقف عند شباك بيتي، فنظرت نحو أفقهم، وخيل لي أن ضوءاً أخضر يتلجلج بين الضباب. بقيت أحدق في الغبش باتجاه سفرهم يوم أمس، حتى خلت أن الضوء ينبعث من المزار. سكبت ماء في إبريق الشاي، ووضعته فوق المسخن الكهربائي، ثم صنعت شاياً لنفسي وأفطرت جبناً وعسلاً ذهبياً وخبزاً من ريفنا الأخضر. وغسلت فمي بمحلول النعناع الذي ابتعته من العطار مساري، ثم ارتديت قميصاً وكنزة رقيقة وفوقها جاكيته زرقاء ورحلت إلى المدرسة في أول يوم بعد نوروز.

في باحة المدرسة أجتمع التلاميذ، بملابسهم زاهية الألوان، وقد كست وجوههم حمرة من هواء الجبال النقي والغيم الذي يلامس الشفاه وحليب الأمهات. أجريت وباقي الهيئة التدريسية التعداد الصباحي، ثم توزع التلامذة على الصفوف. ورغم أني رسمياً معلم الإنكليزية إلا أن المدير طلب مني أن أتولى الصف الأول هذا اليوم لأروي للتلاميذ بعضا من محفوظات خارج المنهج المدرسي لمناسبة نوروز والربيع.

قيام! قام التلاميذ احتراماً لدخولي، ولم يقم بضع منهم فهم لم يتعلموا القواعد المدرسية بعد، فأوعزت للصف بالجلوس، وطلبت من الجميع تعلم قاعدة القيام عند دخول المعلم، والجلوس حين يوعز لهم بذلك. ثم شرعت أتلو عليهم محفوظات من الذاكرة، بعشق الربيع والفرح به وبألوان نوروزه، والجميع يردد معي، حتى وصلنا منتصف المحفوظة فقرع باب الصف، ولاحت فيه ثريا ونوح، بنفس ملابس الأمس والحياء يرتسم على محياها وهي تعتذر عن وصولها المتأخر.

سمحتُ لنوح بالدخول وابلغته وأمه أنّ وقت شروع المدرسة هو الثامنة صباحاً، فهزّت ثريا رأسه موافقة، وأسرت قلبي غمازة أو شبه غمازة ترصع حنكها مثل نجمة وشم سومرية، كما علقت في أنفي نسمة زكية من ثوبها أو من شعرها المتخفي.

في ريف الجبل لا يستحم الناس مراراً بسبب البرد والثلوج، بل يفعلون ذلك مرة في الأسبوع في أحسن الأحوال وذلك يوم الخميس أو الجمعة. البعض يربط ذلك بغسول الجمعة، لكن أغلب الناس تربطه بفرض النظافة، وهم على كل حال لا يتعرقون مثل سكان الصحارى، ولذا لا تنتن أجسادهم، ولكن جسد ثريا يفوح بعطر الأنوثة حتى إذا لم اقترب منه بما يكفي لاستشمامه.

كل يوم، كان مجيء ثريا ونوح مناسبة لبهجتي، ولحظات وجد تشبه الترنم بقصيدة صوفية. في بيتي المستعار كان خيالها يرافقني، بيني وبينها مسافة عمر لا تقل عن ربع قرن إذ لم أسألها عن عمرها. صديقي مدير المدرسة قال لي غامزاً أنني عاشق، ونبهني إلى أنّ الكرديات قد يكنّ حبيبات مخلصات، لكنهن متمردات على الزوج والبيت وقيوده، وخير لي أن أظلّ أتعشق ثريا دون أن أعشقها عن كثب. لكنّ مزار حاجي عباس بات قبلة لقلبي كل مساء، والنور الأخضر القادم من طرفهم بات منارة أرنو إليها بلهفة لا تريم. ثريا أرملة، وهي لم تبلغ الثلاثين بعد، وأنا أعزب أقترب من الخمسين، ماذا يمنع أن أكون لابنها أباً وأنا معلمه الأول في مدرسة الحكومة؟

بعد أكثر من شهر، غاب نوح ولم تأت ثريا لثلاثة أيام متعاقبة، فخرجتُ ذات ظهيرة خميس لمزار حاجي عباس، ربما شوقاً لشميم ثريا ووقع خطوها. جلست في جوف المزار، وبيدي كتاب أدعية، تصفحته، فصادفني دعاء من مولانا، قرأت فطربت بشوق صوفي:

أنا جد قريب، قد أبدو بعيدا.
ممتزجاً معك تماماً، قد أبدو معزولاً.
لذا ففي الفضاء المفتوح أبدو متوارياً،

***

ليس العاشق مسلماً أو مسيحياً،
أو جزءاً من أي عقيدة.
دين العشق لا مذهب له
لتؤمن به أو لا تؤمن.

***

تعال، تعال، أيا من تكون،
هائماً، عابد نار، عاشق سفر.
هذه ليست قافلة اليأس.
لا يهم إن أخلفتَ نذرك
ألف مرة، استمر بالمجيء،
ومرة أخرى تعال.

***

أريد أن أكون حيث
تمشي قدمك الحافية،
لعلك قبل أن تخطو،
ستنظر إلى الأرض،
أرنو بشوق لتلك البركة.

***

مطر يسقط

فوق رجل واحد،
يتحول إلى بيت.
***
دوران ودوران طوال الليل
في بيت الصديق.
هكذا يجب أن يكون،
فالمعشوق في حاجة إلى
الكأس فارغةً فارغة.

قرأت ذلك مراراً ثم تلوته بصوت أعلى وأوقدت شمعة فوق الدكة المزينة بالحناء، والصومعة مازالت تعبق برائحة باقات الورد الذابلة، والغائب عن المشهد حليب الأنثى الذي سوف يعيدني طفلاً أرقص على أوتار الفرح دون سبب. وكان عليّ أن أملّح هذه القصيدة برصعة حنك ثريا، وهذا يستدعي أن أراها.

رحلت سراعاً صوب الغيم حيث بيت ثريا ونوح، وبقيت أمشي على السفح الأخضر البعيد من الجبل وكلّي ثقة أني سأصل بيتهم الذي لم أره ولا مرة، ولاح لي فجأة ضوء أخضر من بعيد، فبقيت أسير نحوه بين الصخور، وتحت قدمي كانت أزاهير الشقائق والنيلوفر والنرجس تنبجس عطراً والعشب يتعرق بلا حياء لعرقي وشوقي. جنيت باقة ورد في يدي، ولم تكن بجمال ورد الشانزلزيه، لكنّ روح الله كانت ترقد في ورودها وأغصان الآس الخضراء التي تتخللها.

دنوت من النور الأخضر، ومع ذلك لم أصل، وفجأة اختفى الضوء، ونظرت أمامي...لا شيء سوى جبل عملاق، وعلى سفحه القريب نيسم صغير يعانق جدولاً طرقته أقدام الناس مراراً فبات مساره أبيضَ مثل الطحين، سرت في النيسم فانعطف بي بشدة بعد منعرج تتوسطه سدرة عتيقة، تخطيتها فلاحَ الضوء الأخضر مرة أخرى وبدا قريباً جداً، سرت نحوه لا أحيد، حتى اقترب بمسافة لا تزيد عن خمسمائة خطوة، وبات واضحاً أنه ينبعث عن فانوس أو مصباح. مشيت قدماً حتى تأكدت أنّه فانوس لوكس وضع فوق جملون من قرميد عتيق بهتت حمرته فبات أقرب للبني يسقّف بيتاً مربع الشكل يصعد إليه سلم حجري من جانبيه بلا سياج، والبيت وما فيه يُطل من جهته الأخرى على واد سحيق. وقفت أمام باب البيت، وقلت "يا الله، السلام عليكم"!

فرد عليّ نباح كلب غاضب، بات يقترب مني قادماً من جهة الوادي، صحت بصوت أعلى "يا أهل هذا البيت، السلام عليكم!"، ورد نباح الكلب وهو يقترب مني بصوت أكثر ارتفاعاً، ثم ظهرت من جوف البيت ثريا وفي يدها "تفكه موزر" عتيقة، وما إن رأتني حتى وضعت البندقية جانباً، ورسمت على وجهها ابتسامة ود وهي تقول أهلا بالأستاذ أهلا وسهلاً بك في ربوعنا، ونهرت الكلب الأسود والأبيض الذي وصلني وهو مكشّر عن أنيابه، فتراجع خجولاً من سيدة البيت.

توقفت عند السلم مترددا في الدخول فنادتني، "اقبل أستاذ على الرحب والسعة" فارتقيت الدرجات الحجريات المتآكلة، ووصلتها وقدمت لها باقة الورد الطرية، وشفعتها بعبارة ودٍ مفسّرة لسبب مجيئي، "غاب نوح عن المدرسة 3 أيام، فاستبطأته وأقلقني غيابه، فبحثت عنه حتى وصلتكم على هدي فانوسكم الأخضر".

نظرت إليّ بامتنان وتساءلت باسمة: أيّ فانوس تعني؟

أشرت إلى قمة الجملون وقلت: هذا الفانوس اللوكس فوق أعلى الجملون.

ارتسمت على وجهها علامات السؤال، ونزلت من جانب الدرجات الأخرى، وابتعدت قليلاً عن البيت ورنت إلى أعلى الجملون ثم نظرت لي متسائلة: أين هو الفانوس الأخضر؟

نزلت السلم من جانبي، وابتعدت عن البيت ونظرت إلى أعلى الجملون وهالني أنه لا يوجد شيء!

درت حول البيت متعجلا وأنا أقول لها أن الفانوس ربما قد سقط وقد يسبب لهم حريقاً!

لكنها عادت تلاحقني وتؤكد لي أنهم لا يملكون فانوس لوكس أصلاً!

وعدت معها مذهولاً متعجباً من كل ما جرى، فظهر في هذا الوقت من جوف البيت ابنها نوح، وعليه علائم الشحوب، وسلّم علي وهو ينظر إلى باقة الورد في يد أمه، وسألني عمّ أبحث خلف بيتهم؟

فأجبته بحياء أني أبحث عن الفانوس الأخضر الذي قادني إلى بيتهم، نظر إليّ بفضول وقال "الفانوس الأخضر في مزار حجي عباس، وليس هنا!"

أسقط في يدي، فتداركت خيبتي وقلت لهما أني في النهاية وصلت بيتهما، وصار بوسعي أن أعرف سبب تغيب نوح عن الدروس؟

وقضيت بضع دقائق، وأنا أقرأ ملامح خيبة غير معلنة في وجه ثريا، هل كانت تنتظر مني أن أعلن سبباً آخر للحضور؟

وسارعت تقول إنّ نوحاً كان وما زال محموماً، وهي لا تعرف أن تذهب به إلى طبيب المدينة القريبة. انتابني جزع غريب، وسارعت بلا تروٍ أعلن استعدادي لمساعدتها في الذهاب بابنها إلى طبيب مستشفى المدينة القريبة، فتداركت تتساءل كيف وأنا لا املك سيارة؟ مرة أخرى اندفعت مثل مراهق غر، وتحركت مبتعداً عن بيتهم وأنا أطلب منها أن تستعد والفتى للذهاب ريثما أعود لهم بسيارة تقلنا. وسرت ابتعد عن بيتهم بلا هوادة حثيثاً إلى مركز القرية حيث القصّاب والعطار يفتحان دكانيهما فتتوافد العجلات لهما لتوصل حاجات القرية الصغيرة.

كان هناك تراكتور زراعي قرمزي اللون يسحب عربة فارغة، سائقه يوشك أن يتحرك، فسارعت أوقفه وطلبت منه أن يقلنا إلى مستشفى القضاء القريب، وطلب مبلغاً معقولاً،

فرجوته أن يرافقني الى الجبل لننقل طفلاً وأمه، سارع السائق يعلن أنّ الاجر لا يكفي ولابد أن أضاعفه، لاسيما أن الطريق قد يكون غير معبداً وعندها سيتوقف وعليّ أن آتي بالركاب لعنده. ورضيت فلا خيار آخر عندي، وسار الجرار طريقنا الوعر، صاعداً نازلاً، حتى وصلنا إلى منحنى السدرة، فتوقف معلنا أنّ ليس بوسعه مواصلة السير جنوب السدرة لوعورة الطريق وضيقه، وعليّ أن آتي بالركاب إليه في هذا المكان. رضيت غير مختارٍ، وترجلت أعدو لبيتهم، فوجدتهم قد تكدسوا كالليلك على باب البيت المكعب الغافي على حافة الوادي.

سرنا حثيثاً نحن الثلاثة صوب التراكتور، ثم اعتلت ثريا وابنها ظهر العربة، وصعدت أنا إلى جانب السائق، وبدأت رحلتنا. بعد نصف ساعة وصلنا مستشفى المدينة، وترجلنا من الجرار ثم دلفنا إلى المشفى، ووصلنا الطبيب، وحين فحصه، أكّد لنا اصابته بمرض اسمه "الجدري المائي" ويصيب الأطفال خاصة. وأكد لنا أن الإصابة والبقع التي انتشرت على صدر وظهر نوح ستختفي خلال عشرة أيام، لكن يلزمه الراحة، وعليه تناول شراب باراسيتامول الخافض للحرارة والمزيل للصداع، على أن تكثر له أمه من الشوربات والسوائل الحارة، وتمنعه عن الجلوس في نور الشمس، وعن الحركة لمدة اسبوعين. كما كتب له، حبوب انتي هستامين لعلاج الطفح الذي انتشر على جلده.

خرجنا من الطبيب واشتريت الأدوية، ومعها اشتريت برتقالاً وليمون حامض، وشاياً اسود وشاياً أحمر للمصابين بالحمى. ثم اكتريت لنا تك تك (سيارة بثلاث عجلات) وعدنا إلى بيتهم وقد حلّ الليل في ربعنا الهارب من الجنة.

صار لي ديدناً أن أزورهم كل يوم بعد المدرسة لأرى كيف تعافى نوح من مرضه، وكل يوم كنا نجلس معاً في مشراق الشمس على دكة البيت المكعب، وننظر إلى الوادي ونروي لبعضنا قصصاً أغلبها خرافي عن الحمام حين يطير ليلاً بحثاً عن حقول الحنطة، وعن الفئران البيض التي تجلب السعد إلى البيوت، وعن غزلان الرنة وكيف غادرت وادي حاجي عباس بحثاً عن مراعٍ لا تهددها الذئاب، ويتطاول الحديث حتى مغرب الشمس فاقطع رحلة العودة متعثراً متعجلاً قبل أن يحل الظلام فتصبح رحلتي أصعب.

عشقي لثريا بات حقيقة لا جدال فيها، وصرت متأكداً أني لا أريد الحياة بعيداً عنها حتى لو تيسرت لي وظيفة باهرة في المدينة القريبة أو في مدن أخرى نائية. وكنت أحسها تخترقني في كل لقاء لتعيش مع روحي وليس مع شهواتي. إنها حكاية صوفية هاربة من مزارات تشبه مزار حاجي عباس، لكنها أجمل في مرمرها النظيف وجدرانها البيض التي تلوّحها شمس الأبيض المتوسط التي لا تشرق في ربوعنا الشمالية الباردة هنا، ولم أكن قد عرفت تلك المزارات والأديرة عن كثب، لكني شاهدتها في أفلام تركية ويونانية وايطالية مسكّرة الطعم كأنها مربى الخوخ.

شفي نوح، وعاد سعيداً إلى المدرسة، لكنّ يومه الثاني انتهى بهجومه المتوحش عليّ في غرفة المعلمين، وهو يتهمني بأني بلا أخلاق ويحذرني من زيارة بيتهم، وحين سألته لماذا

يقول هذا وأنا الذي أنقذته من موت محقق، أجابني بين الدمع والغضب أنّ المدرسة برمتها أضحت تلوك سمعته وسمعة أمه! وصار يشتمني بكردية روسية مثقلة بالخاءات الصعبة المقعرة وهو ينتحب.

خرج نوح الصبي الرجل، وبقيت أتأمل حالي، هل أسقط أمام تحدي طفل قروي أمي في الثامنة؟!

مرة أخرى غاب نوح عن المدرسة، هذه المرة لم أذهب لبيتهم المكعب على حافة الوادي السحيق، بل انتظرت أعجازاً سماوياً يغير المعادلة. وجاء الإعجاز في غروب اليوم الرابع لغيابه عن المدرسة، حيث قرعت ثريا باب بيتي وبيدها قنديل أزرق فيه قبس نور أخضر من شعلة تنوس بلا سبب. هل كنتُ محموماً أغرق في أخيلتي هذه المرة أيضا؟ لا، إنها ثريا لوحدها تقرع باب بيتي ذات غروب جميل يزين سما الوادي فيه هلالٌ بنسيج سمكه خيطين.

وقفت على عتبة بيتي المتواري خلف كوّر مصنع الآجر لا تروم الدخول، لكنّ مساكن العمال العزاب، وقاعات الأسر العاملة في جانبي المصنع كانت تتطلع كلها بفضول إلى بيت المعلم الخمسيني، ووقوف الثريا بنورها الساطع على بابي سيشعل حروباً تتقاصر أمامها هجمات القوقاز على الكولاك وجبل قرداغ.

توسلت لها أن تدخل لئلا يكون حضورها هذا الغروب أهم واقعة شهدتها قبائل الكرد القادمين من خلف غيوم وادي حاجي عباس للعمل في مصنع الآجر الحكومي.

دلفت ومعها قنديلها الأخضر، فشعّ نور مقدّس في بيتي الغارق بكتب بلغات لا تفقهها ثريا وبصورٍ لم تر مثلها وبأشعار تتسلق الجدران بلا حياء بحثاً عن المؤنث المتواري خلف كل شيطان.

حاولت أن أستضيفها، لكن كان في عينها قلق لم أفهمه منعني برفق، ثم وضعت قنديلها على الأرض وطلبت مني أن أسدل الستائر، وأجريت أمرها بسرعة، فبات بيتي مزاراً أخضر تشرق فيه ثريا كأحلى السماوات. نضت حجابها بهدوء، فبان شعرها متماوجاً كسندس طوقه بذيل حصان شريط أصفر لامع. لم أصدق نفسي، فركعت على ركبتي اتأمل في محراب هذا الحسن، ونهضت من مجلسها وسارت إلى غرفة نومي، ونادتني. بعد ساعات من الحريق، غادرتني ثريا وهي تبكي، وقالت في وداعها:

لو شئتَ أن تتزوجني فإنّ نوحاً لن يرضى، وقد يفجّر بنا مشكلة قد تتشظّى إلى ما لا نعرف عقباه، ولا أريد مشاكل، فأنا أرملة مستوحدة لم أتجاوز الثلاثين والطامعون بكنوزي الفقيرة الخبيئة كثر، لتبق إذن أنتَ في بيتك، وسأبقى في بيتي يحميني الرجل الصغير نوح، لكني سأزور معبدك هذا مرة كل أسبوع لأبذل صلواتي في محراب المعلم.

وخرجت ثريا وثوبها يطير مثل سارٍ تراجع عنه جسده الهندي، فأنطفأ قنديل معبدي الأخضر، لأنام ليلة عيدي الأول في وادي حاجي عباس، ودفء حميم لم أعهده أنا الغريب الوحيد التائه، يغمر بيتي وفراشي وأطرافي.

بون 2020 – عام كورونا

نذور بنت الجلبي في دير مار متي

بين حربين سافرت سما وزوجها الذي تعشقه لحد الجنون إلى بيت في مصيف أنشكي على سفوح جبل متين. لم يكن الصيف الحقيقي قد حل في ربوع العراق، إذ لا يزال الربيع يجرجر آخر أسابيعه مهزوماً أمام شمس تسخن كل يوم ليهجم فجأة صيف العراق الكافر على الرافدينيين بلا رحمة.

وفي انشكي اكتشفت سما وزوجها "كوخ الناسك" على سفح منحدر في الطريق إلى كهف أنشكي، وهو كوخ صغير جدرانه حجرية وقد تقادمت عليه الحروب أو ما يشبهها من كوارث، فاحترقت جدرانه، وأعيد تبييضها بالجص فباتت ملساء مرقّعة بالحجارة، أما سقفه فقد شيد من جذوع أشجار الجوز القوية وراكموا فوقها حطباً كثيراً من مختلف الأنواع. وفي نافذة مدورة في جدار الكوخ يشاهد المرء شمعدانات صغيرة شكتّ فيها شموع متباينات الأحجام، أحترق بعضها وما زال البعض الآخر ينتظر من يحرقه. يطلّ ظهر الكوخ على وادٍ غير عميق تفصله عنه جنينة صغيرة فيها بضع أشجار نارنج ومساحة معشبة بالريحان والكرفس والنعناع. في هذا الكوخ يسكن ناسك مسيحي يقارب عمره الخمسين، يهجر بيته في الشتاء ويذهب إلى بيوت أقربائه في القرى المسيحية، والتقاه الزوجان أول مرة عائداً من الوادي، وعلى ظهره حزمة حطب. ورحب بهما الناسك، ودعاهما إلى كوخه لقدح شاي.

باتت زيارة كوخ الناسك جزءًا من طقوسهما اليومية في هذا المكان القصي، واعتادا أن يجلبا معهما هدية صغيرة للناسك، وحتى إذا لم يجداه في كوخه، يتركان الهدية له على نافذة الكوخ. الهدايا لم تكن تتعدى علبة شاي، أو كيس رز بكيلوغرامين، أو كيس طحين بكيلوغرامين، أو قطع صابون الغار منتجة في البيوت يشترونها من أسواق دهوك في جولاتهما الليلية بالسيارة في تلك البقاع.

وكلما غادرا كوخه يذهبان مباشرة إلى صومعة مار كوركيس القريبة منه وهي غرفة بطارمة شيدت من الحجر الجبلي، وفي واجهتها باب معدني أقيم على جانبيه تمثالان للسيدة مريم العذراء وهي تحمل يسوع الصغير وتضمه إلى صدرها، فيما يتوسط المدخل معقوداً فوق باب معدني سميك قوس عليه نقوش سريانية. داخل الصومعة، مذبح كنسي مبني بالرخام الأبيض والرمادي، ويتصدره تمثال السيد المسيح. هنا اعتادت سما أن تجثو أمام التمثال وتدعو من السيد المسيح والروح القدس والسيدة مريم العذراء أن يرزقونها بولد يجعل من بيتها الصغير مع زوجها عائلة حقيقية. سما لم تكن مسيحية، لكنّ هاجساً في داخلها كان يقرّبها إلى رموز المسيحية فتتشفع بها علّها ترزق بثمرة حب جارف أثمر زيجة لم تكتمل بولد أو صبية منذ 6 سنوات مررن عجافاً وسط مآسي الحرب العراقية الإيرانية. علاقة حب تهددها دائما رصاصات وشظايا تصيب زوجها في جبهات القتال، فيعود ليقضي معها بضع أسابيع، يتعافى فيها ليعود إلى ميدان الخطر المرعب.

في ذلك الفردوس المتواري بين الجبال تقودهما طقوس جولاتهما اليومية بعد زيارة الصومعة إلى كهف انشكي على سفوح جبال متين بين مصيفي سولاف وسرسنك شرقاً باتجاه الحدود التركية نائياً نحو 40 كيلومترا عن مدينة دهوك.

الكهف (ويسمى بالكردية شكفته) مدخله ضيق، لكنّ جوفه ينفتح على منصتين نحتتا في الطين الذي تراكم عليه حجر جبل متين. جوف الكهف بارد وتتعرق من جدرانه المياه لتتقاطر في مسير خطته في مجارٍ تخرج الماء من الكهف ليسيل إلى سفوح الجبل المنحدرة فيتوزع على قرى اندثرت بحروب الأنفال ولم يبق منها سوى ركام بيوت هدمتها الحادلات والشوفلات.

لهذا الكهف قصص مكتومة، رواها لهما الناسك في خلوة آمنة بعد أن تأكد أنهما ليسا من عيون السلطة على سكان المنطقة، وذات غروب أخرج لهما من صندوق عتيق تحت سريره مخطوطة باللغة السريانية، وبدأ يشرح لهما بإسهاب محتويات المخطوطة المكتوبة على ورق سميك يشبه جلد الغزال.

وكشف أنّه قد عرف من المخطوطة ومن روايات النساك والرهبان والكهنة في القرى المتاخمة للكهف أنه قد تكامل على مدى 10 قرون، وكان في بدئه معبداً للزرادشتية الهاربين من سيوف المسلمين وحرابهم قبل نحو ألف عام، ثم حاصرهم الكرد المسلمون، ففروا إلى لالش وجبل سنجار، وغيّروا ديانتهم إلى أخرى باتت تعرف بالأيزيدية.

وفي غفلة من زمن مجهول تحول الكهف إلى كنيسة للمسيحيين الكاثوليك، الكنيسة باتت تعرف بمار كوركيس نسبة الى القديس كوركيس (حسب رواية الناسك). الكنيسة وعلى مدى قرنين صارت أهم معلم ديني لسكان القرى المسيحية المحيطة بالمكان. هذه السفوح الوعرة النائية هي أماكن المسيحيين الآشوريين ثم الكلدانيين الأولى في المنطقة، ويقدر عمر بعضها بألفي سنة، حيث أنها تختلط برحلات السيد المسيح وقساوسة الشام والناصرة.

وقال الناسك إن سرسنك الواقعة على سفوح جبل كارا هي قرية آشورية ويلقب أهلها بالنساطرة وكنيستهم هي كنيسة المشرق وباقي القرى كلدانية كاثوليكية والفرق مذهبي بين الكنائس هنا. ثم مضى يشرح جغرافية المكان فقال إنّ سفوح جبل متين التي تنتشر فيها القرى المسيحية هي السفوح الغربية، فيما تطل سفوح متين الشرقية على منطقة برواري بالا، وهناك شريط بعمق نحو 30 كم يتصل بالحدود التركية تطرقه سنابك بغال المهربين والبيشمركه هرباً من الأتراك مرة ومن العرب أحياناً حسب تقلب الأحول السياسية.

جلس متربثاً وهو يستجمع ذاكرة المكان ثم أشار إلى أعلى قمة في جبل متين، وقال تلك التي في القمة هي قرية كله شيخو وفيها مقبرة يهودية، لكنّ كل ذلك دمر في معارك الأنفال ونقلوا أهلها إلى مجمعات شاريا وعربت ومناطق أخرى. أما على سفوح جبل متين الشرقية من جهة الحدود التركية قبل كاني ماسي وبالقرب من منطقة هاكاري عبوراً إلى قرية اشيثا الآشورية في داخل الأراضي التركية فتوجد آخر القرى القريبة من الحدود التركية وهما

قريتا هلوا وسردشته، وبعد عبور الزاب تصل إلى قرية آطوش الأشورية، وصولاً إلى قرية زيوا عبوراً إلى جوله ميرك.

عموماً كل هذه القرى والمدن على السفح الغربي لجبل متين تقع في حوض صبنا وقطنتها قبائل الكرد المزوريون والدوسكيون وأفخاذ أخرى صغيرة، وقبائل الكرد فيها مسلمون ومسيحيون.

مذهولة بروايته التي يتخللها الضباب وتعبق برائحة تاريخ سحيق سألته سما عن مرجعية تلك الكنائس والقرى لاسيما أن عموم سكان هذه المناطق هم من الكرد، فأجاب منتفضاً: أغلب سكان سفوح متين الغربية هم من المسيحيين لكنهم مسيحيون كرد، وبينهم آشوريون وكلدانيون ونساطرة ومرجعيتهم أبرشية العمادية التي كانت تسمى سابقاً بالكلدانية "قلا" واليوم تسمى العماديّة وأضيفت إليها أبرشية زاخو، وتشمل القرى المسيحية هنا قرية همزيك وكنيستها مارت شموني.

وقرية تِنْ أو ثْنا وفيها دير مار اوراهام (ابراهيم) التائب ويقع على سفوح جبل متين الغربية. وقرية بيناثا بقايا كنيسة انتقال مريم العذراء.

وقرية انشكي التي تقع في حوض صبنا على السفح الغربي لجبل متينا وفيها دير مار كوركيس، وكنيسة مارت شموني.

وقرية داودية الواقعة غربي مطار بامرني وتحيط بها قرى مثل تنا وشرب وكلي وخلبيشي وفيها كنيسة باسم مار يوحنا، وفيها أنقاض دير مجهول يدعى دق ريشيه وبقربها أنقاض دير يدعى مار داود. وقرية بادرش الواقعة في حدود الكنيسة الحالية (مار كوركيس). وقد اختارها السيد الرئيس (صدام حسين) ليشيد فيها قصره فوق القمة التي ترونها من هنأ واسماه قصر أنشكي، والتفت باتجاه قمة منيرة مشيراً إلى البناء الكبير فوقها.

قرية أرادن سفلى ويقال إن اسمها مشتق من كلمة (ارعا دَعْدِنْ) أي "أرض عدن" وهي من أقدم القرى الموجودة في منطقة وادي صبنا. وفيها كنيسة مارت شموني وكنيسة سلطانة مهدوخت وهي المزار الزرادشتي الوحيد الذي لم يتم هدمه. وتوجد أيضا شمالها قرية أرادن عليا ويسكنها المسلمون، وتاريخ انشائها متأخر يرجع إلى نحو 200 سنة.

وقرية كوماني والتي تسمى ايضاً أوكاما، وقد ورد اسمها في رقيم مسماري محفوظ في مكتبة جامعة الموصل كما كانت إحدى بوابات نينوى تسمى أوكاما وكان فيها دير اسمه مار قرياقوس ومار مريم حسبما ورد في مخطوطة كتبها الأركذياقون المسمى نيسان من قرية دركني. وفي مدخل القرية آثار دير اسمه مار ابرام ويذكره دليل الآثار العراقية باسم دير مار ابرون.

توقف الناسك عن الحديث، ونظر إلى سما وزوجها وفي عينيه قلق واضح وقال: هل تضايقكما هذه التفاصيل؟ إنه تاريخ أهلنا الذي ضاع بين الغزاة؟

بادرت سما تسأله وفي عينيها شبح دموع: من أنت أيها الناسك المتوحد؟ أنت تروي تاريخ لم اقرأ مثله في كتب المدارس، هل لي أن أعرف اسمك على الأقل؟

تطلع في وجهها كأنه يود اختبار إخلاصها باحثاً عن دلائل أخرى تبعد الشبهة عن هذين الغريبين بفضولهما المحبب، ثم أجاب بعد لحظات صمت: اسمي دانيال، وكنت قسّاً ثم هجرت الرهبنة، واعتكفت متنسّكاً لصق هذه الصومعة، ثم سألها بنوع من اللهفة: لماذا تريدين أن تعرفي التاريخ المسيحي لهذه الأصقاع النائية، هل أنتِ مسيحية؟

أجابت سما وهي تنظر عبره إلى جدران الصومعة الخارجية وأيقونة المسيح المعلقة فوق سريره: لست مسيحية، لكني أريد التشفع بالمسيح والسيدة العذراء، أريد شفاعتهما وسوف أنذر لهما أغلى ما بوسعي لو تحقق مرادي.

وما هو مرادكِ؟

قالت وقد وصل الدمع حافة عينيها الصغيرتين: أنا لا أحبل، أريد أن تنقذني السيدة العذراء والمسيح المخلص، وترزقني ببنت وسأسميها مريم، ولو رزقتني بولد فسوف اسميه عيسى.

قال دانيال: سأروي لكما بعض ما جرى في هذه البقاع، ثم أرشدكما إلى حيث تستجاب النذور، ثم واصل القراءة والترجمة من وثيقته التاريخية السريانية:

مدينة مانكيش فيها كنيسة مار توما الرسول الذي طلب منه المسيح أن يجس يديه وجنبه وبجانبها قلعة (قلايه) تعرف باسم الراهب مار عبديشوع، وعن يمينها قلاية الراهب مار موشي.

ثم قرية تلّا وفيها العديد من المزارات والكنائس القديمة، جوار الكنيسة الحالية كانت هنالك كنيسة قديمة باسم انتقال مريم العذراء كما توجد مزارات لمارت شموني وكنيسة لمار أيليا وأخرى لمار ساورا. في تلّا ايضاً كهف باسم مار أوراها.

ونتجه إلى قرية بيبوزي التي يعود تاريخها إلى ما قبل القرن التاسع الميلادي. ثم قرية آزخ التي تحتفل سنوياً بعيد شفيعها مار كوركيس، وصولاً إلى قرية هرماشي التي تحتفل سنوياً بعيد القديسة تريزا. ثم نتجه إلى قرية رَمْتا التي سميت كنيستها باسم مار يوسف شفيع العمال وتحتفل بعيده يوم الأول من آيار.

ونصل إلى قرية شيوز البعيدة النائية على مرتفع من الجبل الابيض شمال مدينة سميل وترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي 620 متراً وفيها كنيسة على اسم مار كوركيس الشهيد وهو شفيع الخورنة.

قاطع القراءة زوج سما الأسمر الطويل وهو يتساءل عن جدوى معرفة كل أسماء القرى والكنائس في المنطقة، فرد عليه دانيال الناسك وعيناه معلقتان بغيب كنسي موغل في التقوى: أنتما في حاجة، ولكي تقضيا حاجتكما لابد أن تعرفا شيئاً عن الراعي وعن الرعية!

ما معنى الراعي والرعية؟

ردت سما على سؤال زوجها: الراعي هو المسيح، والرعية هم المسيحيون.

تبسّم الناسك دانيال فرحاً بجوابها، ثم وضع الوثيقة على الفراش ونهض من مجلسه على حافة سريره، وبدأ يعد لضيفيه شاياً، فيما أخرجت سما من حقيبتها، بضع شطائر من كباب الطاوة وشرائح الجبنة التي يعشقها زوجها، ودون استئذان نهضت إلى مطبخ الكوخ، في رازونة مطلية بالنورة وقد حال لونها إلى ترابي بتقادم السنين، وبحثت فوجدت صحناً من الفرفوري العتيق بشكل زورق وفي العراق يسمونه "بلم" غسلته بماء أسالته من أبريق نحاسي ثقيل الوزن عملاق الحجم يصب في مسيل ماء بزاوية المطبخ ينتهي بثقب بين الجدار وأرضية الكوخ، يخرج منها الى حافة الوادي خلف البيت، ومسحته بمنديل ورقي، ثم وضعت عليه الشطائر، وأوقدت لنفسها ولزوجها سيجارتين بعد أن استأذنت من الناسك.

عاد دانيال بأقداح الشاي غير المتشابهة ووضعها أمامهم على طاولة معدنية متناهية الصغر، وشرع الجميع يرشفون الشاي ويمضغون شطائرهم اللذيذة. وأبدى دانيال اعجابه بالطعام مبيناً أنه لم يذق مثله منذ سنوات طوال، فيما خيّل لزوج سما أنّ ذلك الغذاء أشهى وجبة تناولها في حياته العاصفة. وحين انتهوا من تناول الطعام وشرب الشاي قال دانيال مخاطباً زوج سما: خُلق الانسان من عَجَل، لو كنتَ تريثت دقيقة واحدة لكنت انهيت تلاوة المخطوطة، لكنّ لا يمكن تغيير الأقدار، فمشيئة الرب أن تسال، وينقطع الكلام، لنذهب الى الإدام والشراب ونعود بعدها إلى قصص الراعي والرعية. وها أنا أحدثكم عن آخر موائل المسيحية في هذا الحوض الخصيب وهي قرية مار ياقو (يعقوب) على الطريق المؤدي إلى زاخو، وقد تحدر إليها اسمها من دير الآباء الدومنيكان الموجود في حضن الجبل الأبيض، والذي اسمه دير مار يعقوب الرائي.

ران صمت يشوبه الحزن على الغرباء الثلاث، قطعه دانيال بعبارة خطيرة: كل هذا التاريخ والتمدن والتقوى قضت عليه عمليات الأنفال، فدُمرت أغلب القرى التي تحدثنا عنها من بين 31 قرية مسيحية سويت بالأرض.

https://youtu.be/b4IjiCnUrV4

ثم عاد دانيال يروي قصة شكفته انشكي مؤكداً أن الكهف قد تحول في زمن غامض إلى معبد لليهود، ويرجّح أهل تلك القرى، أنّ هذا الزمن يرقى إلى نحو عام 1820، حيث بدأ العثمانيون يطاردون اليهود والمسيحيين، فنزح يهود القرى اليهودية المتاخمة لجبل متين، إلى شكفته انشكي، واختبأوا فيها، وحين رحل الغزاة جعلوا من الكهف معبداً وبنوا لأنفسهم بيوتاً على السفح الغربي لجبل متين، وقد انشغلوا بإنتاج الأقمشة المزركشة التي يرتديها المسيحيون، وبإنتاج طاقياتهم الآشورية التي كانوا يبيعونها للمسيحيين ويعتمرونها هم أنفسهم بحيث تخفي الكيباه التي تغطي نُقر رؤوسهم، كما مارسوا الصياغة وصناعات أخرى صغيرة بينها صناعة الملاعق والخناجر والسكاكين.

سكت دانيال، وأخذ يتجرع بهدوء شايه داكن السواد شديد الحلاوة على الطريقة العراقية، ثم أخرج سواكاً وضعه في فمه فما لبث عطره أن عم المكان، فتساءلت سما بلهفة "ما هذا الغصن الذي يفوح بعطر القداح"؟

أجاب الناسك: إنه مسوّك تواصى به الأسلاف وعطره يزيّن رائحة الفم، هو من جذور شجرة اللوز الأرضرملي النادرة، والتي لم تعد تربو في ديارنا، فبات المهربون يجلبون المساوك من ديار بكر التركية مع ما يجلبون. يمكن أن أطلب لك واحداً منها، فلدى المهربين غالباً ذخيرة يبيعونها، لاسيما أن دراويش الصوفية، وحكماء الزرادشتية الأيزيدية والكاكائية المتخفّون يستعملونها لتنظيف أفواههم.

قالت سما بشوق: أريد واحداً، لكن هل هو متوفر فوراً أم يجب الانتظار حتى يجيئوا به من تركيا؟ لا وقت عندي لانتظار طويل، سنرحل من هنا خلال أيام؟

نظر دانيال إليها وهو يتمسوك فيترامى العطر في كل مكان وقال: هو متوفر غالباً، لكن ثمنه غالٍ بعض الشيء مقارنة بالسواك الذي يستخدمه المسلمون والمستخرج من جذور شجرة الأراك النادرة. عود المسوك اللوزي يكلف 5 إلى 7 دنانير (7 إلى 5 دولارات في ذلك الوقت). لو شئت، أعطني 5 دنانير وسأذهب لهم الليلة وآتيك به غداً.

مدت سما يدها في حقيبتها، وهي خُرج دمشقي حيك باليد من أصواف ملونة ثابتة الصبغة وناولته خمسة دنانير، ثم جلست تصغي له باهتمام وتتلذذ بعطر المسوك النادر.

وعاد دانيال يسرد تاريخ كهف أنشكي فذكر أن العثمانيين شرعوا بموجات ثانية من مذابح الأرمن والآشوريين، فتكاثرت الهجرات، وزحفت قبائل كردية مسلمة على أنشكي وما حولها فأعلنت بلا سبب واضح حرباً على اليهود ففروا من المنطقة متجهين غرباً إلى سوريا، فيما نزح كرد وآشوريون وأرمن من تركيا هاربين من بطش العثمانيين وقطنوا هذه المناطق.

في أزمنة متأخرة، وربما تتذكرونها، اتخذت الحركات الكردية الثائرة من الكهف وما حوله في ستينيات القرن العشرين مقراً للقيادة ثم حولوه في معارك سبعينيات القرن العشرين الى مستشفى خاص بجرحى الثوار وانتهى المطاف به أخيرا إلى كهف مهجور.

سكت دانيال، فسارعت سما توقد لفافة تبغ أخرى، وتسأله: أين يمكنني أن أبذل نذري؟

نظر إليها بإمعان صامتاً ثم قال بعربيته التي تنتابها لكنة مسيحية معروفة: الرب موجود في كل مكان، والراعي يأتيك حيثما كنتِ، لكنّ دير مار متي شمال شرق نينوى هو المكان الأفضل لمثل هذه النذور. دعيني أقرأ لك ما ذكره أسلافنا عن هذا الدير العتيق، وشرع يقرأ بالعربية:

ياقوت الحموي زار نينوى على عهد بدر الدين لؤلؤة أمير الموصل، ثم زار دير مار متي وكتب فيه: دير متي بشرقي الموصل على جبل شامخ يقال له جبل متى، من استشرفه نظر إلى رستاق نينوى والمرج، وهو حسن البناء وأكثر بيوته منقورة في الصخر، وفيه نحو

مائة راهب لا يأكلون الطعام إلا جميعاً في بيت الشتاء أو بيت الصيف، وهما منقوران في صخرة كل بيت منهما يسع جميع الرهبان، وفي كل بيت عشرون مائدة منقورة من الصخر، وفي ظهر كل واحدة منهن قبالة برفوف وباب يغلق عليها، وفي كل قبالة آلة المائدة التي تقابلها من غضارة وطوفرية وسكرجة لا تختلط آلة هذه بآلة هذه، ولرأس ديرهم مائدة لطيفة على دكان لطيف في صدر البيت يجلس عليها وحدة وجميعها حجر ملصق بالأرض، وهذا عجيب أن يكون بيت واحد يسع مائة رجل وهو وموائده حجر واحد، وإذا جلس رجل في صحن هذا الدير نظر إلى مدينة الموصل، وبينهما سبعة فراسخ، ووجد على حائط دهليزه مكتوباً:

يا دير متى سقتْ إطلاُلكَ الديمُ ... وانهلَ فيكَ علىُسكانِكَ الرهمُ

فما شَفىِغلتي ماء على ظمأ .... كما شفىَحرَّ قلبيَماؤكَ الشبمُ

سكت هنيهة ثم قال، تسافران من هنا إلى بعشيقة، وفي بعشيقة تسألان فيرشدكم أي مستطرق إلى طريق الدير.

في اليوم التالي، جاء دانيال لسما بمسوك، ومع المسوك سلمها دانيال هدية من عنده هي بيت المسوك، وهي علبة نحاسية رفيعة بطول 10 سنتمترات ولها غطاء محكم، العلبة وغطاؤها تشبهان علب السيكار الكوبي الثمينة لكنها مجردة عن الكتابات والألوان ومصنوعة بجهد اليد المجردة دون مكائن، فهي بدائية الشكل كأنها علبة تبغ تستخدمها الجدات من العصر العصملي. وضعت سما الكنز العطري في خرجها، فدبّ عطره في جسدها وجسد زوجها وفي ملابسهما وفي داخل سيارتهما، أما حين كانت تتمسوك به، فإن عطره يبقى في فيها لبضع ساعات، وكأنه رائحة القداح.

غادرت سما وزوجها حوض صبنا وجبال متينا وكارا متجهين إلى سهل نينوى. وهي تحلم بأن تصل إلى الدير الشهير، وأثناء الطريق ما برحت تحدث زوجها عن أملها الكبير في أن نذورها في هذا المكان المقدس ستؤتي أكلها.

وصلا مدينة بعشيقة فسألا سائق حافلة صغيرة عن الطريق إلى دير متي، فقال لهما اتبعاني فأنا صاعد للدير، وباتا يسيران خلف حافلته الصغيرة، وسارا عبر حقول الحنطة ليقتربا بسيارتهما الجديدة من الحوض الفسيح لجبل مقلوب المعروف باللغة السريانية بجبل (ألفاف). وبدا الدير كأنه قلعة شامخة تتربع على إحدى المرتفعات في سفح الجبل، وتسلقا بسيارتهما مقتفيان مسار الحافلة الحمراء الصغيرة على الطريق المعبد حديثاً، اثنان وثلاثون استدارة وصلت بهما إلى الدير فترجلا عند مدخله واجتازا الطارمة الكبيرة ثم ارتقيا السلالم ليصلا البناء المحاط بأسوار شاهقة الارتفاع، كأنه حصن، واقترب منهما راهب صغير يسألهما بلغة العارف" هل لديكما نذر؟"

كان السؤال مفتاح بهجة لسما، لكنّ زوجها اعتبره عربون تجارة من نوع ما، ولم يشعر بالارتياح، لكنه جاء إلى هنا إكراماً للمرأة التي يعشقها بلا حدود. ابتسمت سما وقالت "نعم

لدينا نذر" فأشار لهما الراهب الصغير أن يتبعاه، ثم أوصلهما إلى كبير القساوسة الذي يدير المكان، وطلع عليهما القس بلباسه الأسود المهيب وقبعته المزرّدة بقطع الفضة صلباناً ونجوماً ورموز أخرى. ثم سألهما إن كانا مسلمين فأشارا بالإيجاب، وصار يوجههما إلى كيفية الغسل قبل دخول صومعة القديس متي، ثم قادهما عبر دهاليز واطئة ما برحت تضيق وتضيق، ولحظت سما أن إسمنت الأرض وحجرها قد صقلته مئات ألوف الأقدام التي مرت عليه ساعية إلى المقدّس المتواري في ظلمة الحجر.

https://youtu.be/ARTsmrlhnjM

انتهى الدهليز إلى غرفة حجرية معتمة يتسرب إليها النور من طاقة حجرية بعيدة، في زاوية الصومعة الدائرية يوجد صليب وضع في رازونه سوداء، وتحت الصليب على الأرض دُق وتد معدني قصير، وارتبطت بنهاية الوتد سلسلة قصيرة جداً يتدلى منها طوق معدني بقوسين. كان على صاحب النذر أن يجثو ساجداً على ركبتيه، ثم يضع الطوق في رقبته، ويطلب نذره، وهكذا سجدت سما، ووضعت الطوق في رقبتها وبقيت تدعو وتبتهل الى مار متي، احتوتها تماماً رائحة الرطوبة التي تعمّ المكان، وبعد نحو خمس دقائق قامت لتخلي السبيل لزوجها الذي وضع الطوق في ركبته ساجداً في حرم مار متي إرضاء لرغبة أحب النساء إلى قلبه.

خرج العاشقان من جوف الصومعة إلى فضاء جلس فيه كبير القساوسة، فجلسا عنده، وقدمت سما تبرعاً مالياً سخياً للدير، ووعدت بمبلغ كبير حين توافي نذرها لو تحقق. وشرع الأب إلياس يروي تاريخ هذا الدير، مرجعاً إياه إلى أكثر من 16 قرناً، حيث بناه الملك الآشوري سنحاريب ملك نينوى (عاصمة الدولة الآشورية) على ارتفاع 2400 متراً عن سطح البحر في عام 381 ميلادي. ثم قطع الأب إلياس حديثه، واقترب برأسه من سما وهو يقول: لو كان في نفس زوجك شك في قدسية وقدرة مار متي، فاسمعي مني هذه الحكاية، فقد زارنا منذ سنوات طويلة المرحوم عدنان خير الله الذي توفي قبل بضعة اسابيع (وزير الدفاع العراقي الذي قتل في تحطم طائرة مروحية في 5 أيار/ مايو 1989) ومعه زوجته السيدة هيفاء ابنة الرئيس أحمد حسن البكر ولم يكن عدنان قد صار وزيراً بعد، بل كان ضابطاً برتبة صغيرة، وقد مضى على زواجهما سنتان دون أن يرزقا بطفل، وهكذا فعل وزوجته نفس الذي فعلتماه الآن، فرزق في نفس العام بولده الأول فأسماه علي، ثم وبعد سنوات طويلة زارنا وهو بمنصب وزير الدفاع، وأمر بتعبيد الطريق إلى الدير، نفس الطريق الذي سلكتماه الآن.

بعد عامين من نذرها في دير مار متي، فقدت سما زوجها بعد أن أُجبر الجيش العراقي عام 1991 على الانسحاب من الكويت التي غزاها منتصف العام الذي سبق. ثم قيض لسما واختها وزوجها زيارة دير القديس متي في عام 1994، فالتقت بقس غير الذي التقته قبل 5 أعوام، وروت له ما كان، وسألته كيف السبيل إلى عودة زوجها، فوجهها أن تنذر لمار متي نذراً تفي به في حال عودته. انحنت سما ساجدة في صومعة مار متي، ووضعت الطوق في رقبتها مرة أخرى، وابتهلت أن يعود زوجها لتفي بنذرها وخرجت.

ما حبلت سما ولم يعد زوجها ولم تفِ بنذرها قط.

الموصل – صيف 2019

هو والصغيرة فاطمة

يفيق على صوت يقرع الباب الحديدي، فيزيح الدثار الصوفي الثقيل الذي يلف جسده وينهض على عجل يستطلع الطارق. أمام الباب تقف فاطمة الصغيرة بثوب أحمر قانٍ وضفيرتين صغيرتين وعينين واسعتين سوداوين تحكيا قصص الجنوب الغريبة، تقول بصوت لم يتقن التحدث بعد:

-عيدك مبارك عمو...

يفجأه أن العيد قد حل في ربوع الجليد مرة أخرى، ويتلعثم وهو يخبئ يده اليمنى خلف ظهره.

يجيبها متلعثماً: عيدكِ مبارك عمو...كل عام وأنتِ بخير

تمتد يد فاطمة بأربعة أرغفة خبز حنطة يعبق برائحة التنور وحطبه، وقد لفت ببقايا جريدة وتقول: أبي يسلم عليك ويخبرك أن توافيه البيت بعد فطور الصباح.

بيسراه يأخذ الخبز، وهو يعرف أن الطفل يتعلم هنا في سن مبكرة أن اليد اليسرى لا يستحب استخدامها، ثم يقول مبتسماً: ممنون بويه، أوصلي سلامي له، سأوافيه بعد الفطور حتماً.

يرد الباب المعدني، ويدلف إلى الداخل فيتذكر بخجل له طعم الغصة أن الطفل حين يبارك بالعيد يطلب عيديته بأدب، يعضّ على شفته ويلوم نفسه على غفلته، يضع الخبز على صندوق خشبي صغير يختبئ بحياء في زاوية الغرفة ويستعمله كمائدة طعام، ثم يضع أبريق الشاي الرخيص المتفحم على موقد الغاز ذي العين الواحدة، ليفتح ريقه بخبز حنطة وشاي أسود.

يغادر الدار لتضحك بوجهه شمس دافئة، ينظر إلى الأفق الشمالي، ركام الثلوج ما برح يكلل القمم، ينتابه البرد بمحض رؤية الثلج. هذا البصري القادم من حرارة ضفاف الأنهار، هذا البصري الذي أدمن التفيؤ بالنخل اتقاء لشمسِ الهواجر في قيظ البصرة اللاهب، ورغم السنوات العشر التي قضاها في هذي الديار المثلجة لم يعتد البرد وما زال يشتاق لطعم العراق المالح وهو يسيل من وجهه إلى شفتيه كجزءٍ يومي من حياته في البصرة، وما زال يشتاق كالمجنون إلى رائحة الغبار الذي يلف النياسم الترابية الضيقة التي تجري بين البساتين مثل مسالك أحجية مستعصية.

يقطع المسافة الترابية التي حوّلها الصبية إلى ساحة لكرة القدم، تتقافز كرة مهترئة بين أقدامهم، صراخهم يقطع صمت المكان، للعيد طعم آخر في هذي الديار، يخترق الفضاء السماوي البارد سرب سنونو يبشر بربيعٍ مبكرٍ، يخجل من يده فيضعها في جيبه وهو يفكر في لفافة تبغ رديئة تلحّن قصيدة حزنه الطويل.

يدلف السوق فتصطاده الواجهات المزدحمة بالبضائع، تأسره الحقيبة الرجالية الجلدية السوداء المعروضة بأناقة بالغة في واجهة المحل الواقع على ناصية زقاق بيته، ويحلم باقتنائها، ولكنه يبدو حلماً صعب المنال، فميزانيته لا تتيح له شراءها مالم يضع نفسه في ضائقة لمدة شهرين.

يسير قليلاً، مبتعداً عن محل الجلود، فيتلقاه محل الألبسة، وقد وضع على دمية مانيكان طقم ملابس ما فتئ يحلم به، سروال أنيق بلون صحراوي، وقميص بمربعات يغلب عليها اللونان البرتقالي والأسود، وفوق القميص ألبسوا الدمية سترة الصحفيين بلون أقرب إلى الكاكي المخضّر، وفي قدميها حذاء كتاني أنيق بني اللون. هذا الطاقم الجميل حلمه، ولكن أسعار المعروضات تُبقي الحلم في مرتبة الأماني، ولا تحيله إلى حقيقة مع بزوغ شمس النقود أول الشهر!

يجرجر نفسه عنوة عن الواجهة الزجاجية الساحرة، ويُحكم دسّ يده الشوهاء في جيب معطفه الملوّن بحس خجول ترعرع في نفسه ليجد له مظهراً في حركاته الغريزية المتكررة ضمن محاولاته اليائسة لإخفائها عن عيون الآخرين الفضولية. ها قد نسي مرة أخرى أن يهيأ سلفاً قيمة علبة السكائر، فيقف أمام دكان الحاج زيارة، ويبتاع منه علبة سكائره الحمراء المفضلة، ويعده أن يسدد قيمتها لاحقاً لأنه نسي أن يصطحب حافظة نقوده معه.

يغادر السوق فيتجه صوب بيت أبي فاطمة، هذا الصديق المعذّب بالوطن الذبيح، هذا الجبل المحمّل بالهموم وبالوطن النازل في أدق تفاصيل ذرات غبراه، يقرع الباب فتفتحه فاطمة بعينيها الدعجاوين المحملتين بالدهشة وبالأسئلة، ويبادرها متسائلاً:

-ها عمو، هل أباك في البيت؟

تنظر إليه ببرود الأطفال الذي يتجاهل أحزان ومشكلات الكبار، تبحلق في هندامه، وتقول بتحدٍ ظاهر: عيدك مبارك عمو...اليوم عيدّ!

يصعقه إصرارها على أن تأخذ عيديتها منه فلا يملك إلا أن يقول لها: عيدكِ مبارك عمو...

تتعثر الكلمات العرجاء على شفتيه، كما تتعثر يده المضمومة بعنفٍ على نفسها في جيب قمصلته السميكة، كيف تفهم طفلة في الخامسة أنه لا يريدها أن ترى يده المبتورة الأصابع؟ كيف تفهم هذه السوسنة التي تتفتح كبرعم يواجه نور الشمس ذات صباح أنّ البصري المهاجر قد سحقت أصابع يده ماكينة صماء أصابته بعاهة مستديمة تقعده عن كل عمل، كيف تفهم فاطمة الفرحانة بالعيد أن حصولها على العيدية يجبره أن يستخدم كلتا يديه لاستخراج حافظة نقوده من جيبه ليقدم لها بكل الحرج والحياء والتلعثم الممزوج بمشقات النقص والخجل قطعة نقود صغيرة؟ كيف تفهم أنه يتضاءل أمامها وأمام نفسه حتى ينجز تلك المهمة اليسيرة الصعبة؟

يتجاهل كل عذابه، ويركز في عينيها قائلاً: نادي أباك يا فاطمة!

تمد يدها إليه بوجه باسم تلفه الدهشة وتقول: سأناديه...ولكن عيدك مبارك!

أنى لها أن تنصرف عنه؟ يتردد هنيهة وهو يحاور نفس فيما عساه فاعل، ثم يمد يده اليسرى السليمة إلى جيب المعطف محاولاً أن يستخرج المحفظة بيد واحدة عبثاً، فقد علقت في جيب المعطف، يحاول دون جدوى، نار تلظّى في وجهه ورقبته، الحرج يجتاحه مثل حريق الحساسية، ويلزمه أن يهرش جبينه وشعره وصدره، بل وكل أنحاء جسده.

يدير ظهره لها، وينصرف عائداً من حيث جاء والريح الشمالية الباردة الهابة من القمم المثلجات تنفخ في معطفه ليصبح شراع زورق هرمٍ غادره الصياد سانتياغو بعد أن التهمت القروش سمكته العملاقة الباهرة، تظل فاطمة ترنو إليه وهو يسير مترنحاً بعيداً عن بيتهم، دون أن تفهم لماذا قرر فجأة أن يغادر عتبة البيت مع أنه جاء أصلاً للقاء أبيها؟

في درب العودة، تتفاقم خيبته، فيضيق بنفسه وبالساعة التي جاءت به إلى هذا المهجر، ويلعن الساعة التي ولد فيها عراقياً محكوما بعذاب التاريخ وغدر السلطات الغاشمة. يضيف لقائمة خيباته وهزائمه، فاطمة التي لم تعرف لماذا لم يعطها عيديتها، ولماذا غادر عتبة دارهم قبل أن تنادي أباها، إنها هزيمة مهاجر معلول أمام صبية في الخامسة.

قم/ إيران أيار 2002

كاترينا صبيحة عيد الميلاد

غادرت بيتي لجولة صباحية على الأقدام في اليوم الأول من عيد الميلاد. للعام الثاني على التوالي، يزورنا "فاياختن " بلا ثلوج. البرد معقول لهذا الفصل من العام، والمطر في غير أوانه يغير معادلات المناخ.

ما إن توسطتُ الرصيف أمام بيتي، حتى وجدت الجارة الألمانية كاترينا تسير أمامي وهي تقود كلبين، أحمدهما أبيض مبقع بالسواد صغير الحجم، والثاني بني اللون متوسط الحجم. تعيش كاترين من مجالسة الكلاب، ووهي وظيفة تسمى بالألمانية "هونده ستر" وتقضي بمجالسة كلاب الناس واستضافتها لفترة غياب أصحابها، وتتقاضى عن الساعة الواحدة 9 يورو.

من هذه المبالغ، توفر كاترين مصاريف يومها. لا أعرف عنها الكثير، سوى أنّها سيدة يفوق عمرها ستة عقود وتسكن في بيت صغير مضحك الواجهة تفصله بضعة بيوت عن العمارة التي أسكن فيها. المؤكد أنّها فقيرة مرحلياً وليست معدمة، لأنّ سعر البيت الذي تسكنه، والذي تملكه، يصل اليوم إلى أكثر من نصف مليون يورو، لكن هذا لا يعني أنّها ثرية قط، فقد تكون متقاعدة، ودخلها محدود جداً، لذا تضطر للعمل جليسة للكلاب.

تسير كاترينا بموكبها العجيب أمامي بخطى ثابتة، مثل عسكري ألماني يمضي لأداء مهمة خطيرة، إنها ميزة الألمان الكبرى، فكل عمل مهم عندهم، ويتعاطون مع من ينفذه بكل جدية بغض النظر عن المكانة الاجتماعية "برستيج" التي ينالها من جرائه.

كالعادة، شعرها أبيض قصير حليق بطريقة رجالية، وترتدي ملابس غريبة عجيبة لا تنتمي بأي حال إلى عصرنا، فهي تلبس معطفاً أبيض خريفياً، وتحته ترتدي فستاناً صوفياً بلون نيلي، مزهّر بنجوم بيض، مثل فساتين البنات الصغيرات. وتنتعل حذاء كتان صغير أسود، وتحته جورب منزل أسود مزهّر بأشكال حمراء. ولأول مرة، تعلّق على كتفها حقيبة نسوية رصاصية اللون أنيقة نسبياً. وأقول لأول مرة لأنّي لم أر كاترينا قط قبل هذا اليوم وهي تحمل حقيبة نسوية.

قررت أن اسبقها في السير، وألقي عليها تهنئة عيد الميلاد، فسارعت الخطى، حتى اجتزتها بصعوبة لأنها مسرعة دائماً، وما إن سرت بحذائها حتى بادرتها التهنئة بالألمانية "فروه فاياختن" مشفوعة بابتسامة، التفتت نحوي وفي عينيها فراغ مخيف، ولم تقل شيئاً، فأعدت عليها السلام التهنئة تحسّباً من أنها لم تكن قد سمعتني في المرة الأولى، وأصررت على الابتسام، فردت وهي ذاهلة فجأة: "عيد بريخو وشناية كاهي نوثو"!

استغرقني الأمر بضع ثوانٍ حتى أدرك انّها أجابتني بالسريانية بالقول: "عيد ميلاد مبارك عليكم " مشفوعة بدعاء لا أعرف معناه، وقد تعلمتُ بضع جمل من السريانية في طفولتي

المبكرة من مصاحبة أطفال جيراننا المسيحيين في الكرادة في ستينات القرن الماضي...هل هي سريانية، آشورية؟؟ مفاجأة صاعقة...وسارعت اسألها بالألمانية إن كانت عراقية، فنظرت في وجهي ذاهلة، ثم قالت بألمانية تخلو من أي لكنة: "أنا كاترينا، مسيحية من تلكيف في العراق. هل أنتَ عراقي؟"

ابتسمتُ، وتوقفت عن المسير بعد أن توقفت هي وأجبتها: نعم أنا ألماني من أصل عراقي، من بغداد. هل تتكلمين العربية؟

اجابتني بعربية عرجاء ونفس النظرة التائهة تعتقل عينيها: "شوية، عربي لا يتكلم، شوية" ورفعت صوتها وهي تقول بالسريانية "بكو عال إثره"، فلفتني الحيرة، لأني لم أفهم ما قالته، وسألتها بالألمانية ماذا تقول، فأجابت بالألمانية "بكينا كثيراً على الوطن"!

لفتني الحيرة حول شأن هذه المرأة، كاترينا جليسة الكلاب مسيحية عراقية، ماذا جاء بها هنا، وكيف صارت إلى هذا الحال؟ وحاولت أن أكسر حاجز الذهول الذي يكسو وجهها وأفعالها، فسألتها بالألمانية أن نتصور سيلفي معاً مبتسمين لمناسبة عيد الميلاد، لم تبتسم ولم تجب، لكنها نادت برأسها علامة الموافقة، فوقفت بلمح البصر إلى جانبها، وشغلت كاميرا الموبايل وطلبت لها أن تبتسم، فابتسمت في دوامة ذهولها وعيناها زجاجتان فارغتان بلا معنى. تصورت معها، وهنأتها بالعيد مرة أخرى، ومضيت لشأني، فالواضح أن كاترينا، ساهمة عما حولها. وانتبهت إلى أنّها تتكلم خلف ظهري، فحاولت أن أفقه ما تقول، فكان خليطاً من كلمات ألمانية وسريانية، يجعل فهم ما تقوله مستحيلاً، ثم استرسلت وهي تتحدث عن الكلب اللعين الذي بال على سجادة بيتها، ثم صارت تشتم لا على التعيين!

اتممت جولتي تحت مطر صغير اجبرني مع البرد على العودة إلى البيت بعد نصف ساعة من مغادرتي له، فسارعت أرن بهاتفي على صديقي حسنين، وهو من أقدم العراقيين المهاجرين إلى ألمانيا، وأرسلت له صورتي السيلفي مع كاترينا، ورويت له ما جرى طالباً منه أي إيضاح ممكن. فطلب مني بعض الوقت، على أن يعود لي بالجواب عن اسئلتي.

تلك الليلة، عرفت نتف من قصة كاترينا جليسة الكلاب، وهذا ما وصلني:

*عام 1980 اعتقلت كاترين ي. وهي طالبة في كلية الاقتصاد بجامعة السليمانية وكانت من كوادر اتحاد الطلبة الشيوعي. وقد بقيت في سجن ناحية عربد حتى عام 1984، حيث أفرج عنها، ووضعت تحت المراقبة في منطقتها بقضاء تلكيف. في عام 1986 التحقت بمسلحي البيشمركة، وقاتلت في مفرزة إدريس بارزاني، ثم فرت عبر إيران إلى تركيا، ثم إلى ألمانيا الديمقراطية في عام 1987.

*مع سقوط الجدار، وعودة الوحدة الألمانية، سكنت كاترين في برلين، ثم اختفت وانقطعت أخبارها.

*ظهرت في مدينة كولونيا، بولاية شمال الراين فيستفاليا في عام 2000 وقد تزوجت من أحد عناصر اليسار الألماني وانتمت للحزب.

وبات بإمكاني ان أكمل رسم الصورة، حيث لا تتوفر مصادر ومعلومات:

سكنت كاترين مع زوجها في بيت يملكه. توفي الزوج في مرحلة غير معروفة، فورثت كاترين عنه البيت، وربما آل إليها جزء من راتبه التقاعدي، فباتت تعيش منه، وتدبر الباقي من مجالسة الكلاب.

مع تقدم العمر، أصيبت بمرض الزهايمر، وباتت بحاجة إلى علاج.

المانيا /عيد الميلاد- 2020 عام كورونا

دماء على مسدس طارق*

فجأة وجدت نفسي في خضم طوفان من الذكريات الدامعة الحزينة، قصص بللها عرق الخوف، ورعب الهروب، وغبار الحرمان في لحظات المواجهة الصلفة مع الموت الداعشي الغادر المعتدي.

أيزيديات استرقهن الدواعش يروين للجمع تفاصيل مخزية عن "سبايا" الخلافة الإسلامية. قصص تعيد رسم ذاكرة الجموع عن فجر الإسلام الذي جاء به أعراب الجزيرة على ظهور الخيل إلى العراق قبل 14 قرناً. أثرياء وتجار ورجال أعمال يروون كيف أجبرهم التنظيم الإسلامي الظلامي على تمويله من خلال فرض أتاوات عليهم، قضاة ومحامون يروون قصص انتهاكات حقوقية لا تنتهي.

أشد قسوة من كل ذلك، جاءت مساعي الجمع لحل معضلة أطفال الدولة الإسلامية، مئاتٌ بل آلاف من الأطفال مجهولي الآباء، لا يملكون أي أوراق ثبوتية، وترفض كل دول العالم منحهم وأمهاتهم حق اللجوء، كما ترفض الدول التي تدّعي الأمهات الانتساب اليها استقبالهم باعتبارهم قنابل موقوتة. قضية سياسية بحتة، تختلط فيها الدماء بشهوات ومباذل القتلة وهم يتناسلون مع مجاهدات النكاح سيئات الصيت القادمات من أنحاء العالم.

كنت واحداً من ذلك الجمع وفيه، ناشطون مدنيون، صحافيون، اعلاميون، مستثمرون، مقاولون ورجال أعمال، عناصر أمن، عناصر من مختلف أجهزة مخابرات عبر العالم، ساسة من الخط الثاني والثالث ومعهم شخصيات اجتماعية ودينية اجتمعوا في أربيل عاصمة إقليم كردستان ليتدارسوا قضية إعادة تأهيل مدينة الموصل والمدن المرتبطة بها، إنّه مصير أكثر من 4 ملايين انسان دمرت حياتهم دولة الخلافة الإسلامية التي احتلت غرب العراق، والجميع يفكرون هنا في كيفية اصلاح النفوس والضمائر والعقول التي خرّبها الإرهابيون.

يوم الفعالية الرابع والأخير تقرر أن يقضيه الرجال في الموصل، ليقضوا بعده ليلة يرصدون من خلالها عن كثب ما خلفته حقبة دولة الخلافة الإسلامية من قروح في النفوس وخراب في المدينة. كان مقرراً أن يذهب المشاركون الرجال فحسب ليبيتوا ليلة في بيوت القرية السياحية في الغابات، ويلتقوا بأهل الموصل وجهاً لوجه.

في الليلة الثالثة، أقام مقاولون ورجال أعمال ومستثمرون دعوات عشاء باذخة للمجتمعين، كنوع من حفلات الوداع الساعية إلى حشد الأصوات لصالح منحهم عقود العمل الكبرى التي يجري الحديث عنها، وكان عدد من المتحدثين قد تكلموا عن خطة تأهيل بميزانية قدرها 4 مليارات دولار، تعهدت بتقديمها عدة دول غربية ونفطية عربية.

واستضافتني وليمة على إحدى تلك الموائد الباذخة، وقد أولمها المقاول ريكان الخالدي، وهو يجلس منتفخاً مثل طاووس أنيق، تفوح أعطافه بعطور باذخة، وتلمع بدلته الرمادية كأنها صنعت من نسيج المنيوم مكتوم اللون. بقي ريكان يتكلم بنبرة متعالية عن إعادة اللحمة

الاجتماعية للنسيج الموصلي الذي مزقه الدواعش، وأطال الحديث عن ضرورة إعادة الأمن ونظام التعليم والمنظومة الاقتصادية والمالية للعمل. ثم تحدث بالأرقام عن جهود فردية بذلها لتوفير الأمن للنازحين وتمهيد الطريق لعودتهم لمناطقهم.

بعد حديثه، تشعّب الحوار بين الجالسين على المائدة الباذخة مثل عنكبوت يتدلى بحبال شياطينه الغائبة على جدران الوهم، وتحلق كل اثنين أو ثلاثة أشخاص يتشاركون في مناقشة قضية ما، فيما انشغل ريكان بالحديث مع بعض الجالسين قريباً منه، وبعد أكثر من ساعة، تقدم صديقي سامر وزوجته جنان وهما ناشطان مدنيان مقيمان في النرويج، من المقاول الخالدي، واستأذنا الجالسين بقربه، أن يأخذا مكانهما لمحاورة المقاول بشأن توحيد جهدهما مع جهده الواسع لإعادة تطبيع الحياة في الموصل وأطراف محافظة نينوى.

جلس الزوجان، ويالللعجب انهمك الثلاثة في حوار مكتوم، لم يتناه لسمعي أي طرف منه. همس لا يشبه همس العاشقين، بل يقترب كثيراً من همس الجواسيس!

في عيون جنان اهتمام موغل في الغموض، هل تنتظر معجزة من المقاول الخالدي، أم أن اهتمامها ينبع من مصدر آخر، لعله قادم من برد النرويج ليتصل بحرّ أهل العراق!؟

الحقائق المطروحة تختلط بكثير من الرؤى السياسية، وتظهر فيها هنا وهناك ملامح التأثير الإقليمي على ديموغرافية العقل والوعي في هذه المنطقة. المفارقة أن كردستان التي شهدت أكبر الابادات في تاريخ المنطقة، تستضيف اليوم جهوداً دولية لإزالة آثار ذلك الخراب.

تحدث ناشطون ومتابعون في ورشات عمل ومؤتمرات وجلسات شارحين ما يمكن عمله نظرياً لإعادة الحياة للموصل. ومن عجائب العراق الجديد، أن فعاليات المجتمع المدني ومنظماته وما يتصل بالديمقراطية، تنأى بنفسها عن "كؤوس الراح مؤنس الأرواح" بكل أشكالها، بل هم لا يجرؤن أن يقدموا ماء الشعير الخالي من الكحول على موائد فعالياتهم، كما يفعل الإيرانيون وهم يتعايشون مع قوانين دولة ولاية الفقيه الاسلامية، وهذا التحريم العراقي نابع من خوف العراقيين المتصل من "أهل الله" وصرعاتهم العجيبة، سيدية كانت أم كيدية!

وهكذا بعد أن تطاول جلوس الناس إلى مائدة المقاول ريكان الخالدي، وأتخمت بطونهم اللحوم والمكسرات والمقبلات المبذولة والفواكه الملونة العطرة بلا حساب على الطاولة العامرة، وملّوا من العصائر وأقداح الشاي وفناجين القهوة، وقرفوا من التورتات والمعجنات الدسمة الأخرى، بدأوا يتفرقون عائدين إلى غرفهم بحثا عن تسالٍ تملأ غروب وليل ذاك اليوم الخريفي الجميل.

وتنادى الأصدقاء يدعون بعضهم لجلسات سمر في غرف الفندق الأنيق، فضمتني غرفة د. بديع إلى الصديق سامر والصديق عادل، وتحلقنا نحن الأربعة حول قنينة "دمبل" كأنها دمعة كرستال كبيرة ترقرقت فيها خيوط الكحول المحمر اللون غالي الثمن شديد الأثر، وتراصفت إلى جانبها قنينة "أولد بار" التي يسميها أهل العراق "أبو لحية" وهي قصيرة

عتيقة الشكل نادرة المذاق، فيما تزاحمت الطاولة الواطئة الصغيرة بأنواع المكسرات والمخللات والمقبلات لتخفيف مذاق الكحول الأصهب الأنيق.

وكالعادة، سال حديث الذكريات رغم أنوفنا وساد المشهد، وبين فينة وأخرى، يقطعه أحدنا بحديث عن أعماله، وعن بناء البيوت، وعن أماكن قضاء العطل وذكرياتها. كان سامر يعب الكحول بشهية ملفتة للنظر، وهو ما يعني أن السكر سيدركه مبكراً، لكنه بقي حتى ساعة متأخرة صاحياً لم تطرحه الصهباء، ونحو الساعة الحادية عشرة ليلاً، غادرنا الصديق عادل إلى غرفته وهو يذكّرنا أنّ سفراً مبكراً ينتظرنا في الغداة، فبقينا أنا وبديع وسامر نتداول حديثاً عن صداقتنا التي تمتد إلى نحو نصف قرن.

سارع سامر يملأ الكؤوس وهو يقول: سأطلعكم الليلة على سر مخيف، هل نقرع الأنخاب أولاً، أم ابدأ في كشف المستور؟

قلت: كالعادة يا صديقي، اشرع في الحديث وسينتخب كل شخص رشفته المفضلة في اللحظة المناسبة.

قال سامر: ما سأقوله لكم هنا، خطير جداً، وأطالبكم قبل البوح به بوعد قاطع ألا يتسرب عنكما أي شيء حول هذا السر، مهما كان الظرف! وحين أقول مهما كان الظرف فأنا أعنى ذلك حرفياً، أرجو أن تعداني انكما لن تبوحا بشيء حتى لو سألتكما سلطات الأمن!!

ضحك د. بديع وهو يقول: يا صديقي عليك أن تغادر هاجس تحقيقات الأمن الدموية، هذا زمن آخر، ونحن قد تغيرنا، لم يعد لنا موقف رافض معارض مسلح للسلطة في العراق، إذ لا أحد يدعي احتكار السلطة كما كان الأمر في زمن القائد الضرورة، فمقتدى الصدر سلطة، وهادي العامري سلطة، ونوري المالكي سلطة، وعمار الحكيم سلطة، والسيستاني سلطة، والحلبوسي سلطة، والنجيفيون سلطة، والبارزانيون سلطة، والطالبانيون سلطة، والعشائر سلطة، هذا التوزيع للسلطة يضمن ألا يلتف العراقيون مرة أخرى "كالسور حول عمود البيت" سيء الصيت! هات ما عندك، وثق أن صمتنا سيبقى بلا حدود.

سارعت أؤكد ما قاله د. بديع، متضاحكاً وأنا أطالب سامر أن ينسى سجون النظام وكفاح البيشمركة والأنصار في جبال كردستان، ويستمتع بما تبقى من عمرنا الذي بددته المنافي والهجرات، ثم قلت له: ومع ذلك إذا كنت تجد سرك خطيراً، فلا تبح به، خير من يكتم السر حامله!

ضحك سامر، وبانت نواجذه المعدنية وهي تقوّم فكه الأسفل الذي انكسر في معتقلات الأمن في ثمانينات القرن الماضي، ثم قال بلهجة تخنقها عبرة مكتومة: يجب أن أشارك القريبين مني هذا السر، لقد كتمته أربعين سنة، ولابد أن أكشف عن شيء منه، وأنتما الأقرب إلى نفسي لذا انصتا لي بوعد قاطع أن يبقى ما أقوله لكما في الصدور. استنشق بعمق، وقال بنبرة حزن خطير: المقاول ريكان الخالدي، هو ضابط الأمن الذي عذبني في مديرية أمن كركوك، ونقلني إلى سجن كاني بنكه ليصار إلى نقلي الى مديرية الأمن العامة في بغداد،

لكن قيام انتفاضة عام 1991 حررني من مسيرة العذاب. هذا الكلب هو الذي تحدث اليوم بفياشة عن إعادة الأمن والحياة إلى الموصل ومدن سهل نينوى، وهو الذي أطعمنا على مائدته الباذخة. لقد تعمدت أن اتقرّب منه ومعي جنان، للتأكد من ملامحه...هو بعينه.

ساد صمت بمدى مسيرة الحزن والعذاب المتطاول وهو يريم على كثير من أبناء بلاد الرافدين، كان العذاب يروي غالباً حكاية تعيسة، لكنه يتحول أحيانا إلى فنارات جراح تقاطر غيمها لأصفى مكوناته فبات يُكسّر الروح مثل ألواح الزجاج. يبدو التناغم واضحاً، بين القسوة والعذاب، لكن الحزن وعاء يحتوي مشاعر مختلطة، ويصعب أن تصنفها.

همس بديع متحدثاً بحزن عصفت به قسوة المفاجأة، وكأنه يخشى نفسه قال متسائلاً: صديقي سامر، هل أنت متأكد بعد هذا العمر المعتّق الذي رسمت مساره الهجرات؟

بقي سامر يحدق فينا وفي الفضاء الخالي حتى اكتسى ما بيننا بفيض ألم، وانتابه ارتجاف دفين مثل هنيهة تجمدت بين ضوء البرق وعصف الرعد، ثم قال بصوت يقترب من الفحيح: المصيبة أني متأكد مائة بالمئة، وهذا يحتم عليّ أن أفعل شيئاً حيال هذا الكشف المخيف!

أخلفت كلماته وراءها صمتاً ثلجياً شاسعاً، سارعت لأدفئه بلغة تعود بنا من سماء الرعب إلى أرض الوقائع: هل لك أن تروي لنا ما جرى منه، وكيف عادت القصة إلى ذاكرتك؟ أدرك أن ذلك مؤلم ومذلّ وتعيس، لكنّي أريد أن اشاركك حزن اللحظات، فاقتسم معك العذاب واللوعة.

رشف سامر جرعة من كأسه، واحتبس حرقة الكحول وهي تلسع جوفه، وتلهب تجاويف مخه فقال: اعتاد ذلك الكلب، وقد كان الجميع يخاطبونه بكنيته "أبو عبير"، أن يقرّب وجهه مني وهو يضربني أو يطفئ سجائره في ساعدي أو ركبتي، هل رأيتم آثار تلك السكائر القاسيات؟ وكشف عن ساعده لتظهر ندب سمراء انتشرت على ساعديه مثل آثار الجدري. ثم أسبل ذراعي قميصه على ساعديه، وعاد يروي لحظات الوجع: كان يقول لي: "قريباً أنيك اختك يا ابن العاهرة، لو كان عندك غيرة على عرضك لتحدثت، لكنك شيوعي سافل بلا غيرة، لذا سأبقى أطرق رأسك بالقندرة، حتى تقول كل ما عندك، أعرف أنك تخفي أسماء من قاتلوا معك في عملية البرق الساطع"، ويتبع ذلك بسيل من اللكمات والصفعات والركلات تنهال عليّ وانا أجلس على كرسي مثبّت في الأرض، فيما شُبك ساعدي بحبل عبر حلقة معدنية مثبتة على طاولة حديدة ثبتت أمام الكرسي. هذه الغرفة أعدت خصيصاً لعمليات أبي عبير وحفلاته الدموية.

وذات ليلة، كان أبو عبير سيء المزاج، وقد احتوت وجهه مساحة غضب قد يكون وريث خيبته في مكان ما، فربما اكتشف أن زوجته البيضاء الجميلة اليافعة يضاجعها آمرو أفواج الدفاع الوطني الكرد الأثرياء، ويغدقون عليها الذهب الجواهر، كما كان يهمس السجناء فيما بينهم في زنازين الرعب، وربما حرّك هذا الكشف المخزي في داخله أوتار الذل، فاندفع يجلدني ويضربني، ثم وفي لحظة غامضة، استل مسدسه من نوع طارق من غلافه الجلدي،

ووضع فوهته على صدغي، ثم على جبيني، وهو يقول: هل تعتقد أنّ حياتك مهمة هنا؟ أنت مجهول، أنتَ أقل من كلب تائه، السلطة تعتبرك عدواً للثورة والقيادة، ولو متَّ أثناء التعذيب فلن يسائلني أحد عنك، ستُدفن في الوادي المظلم مع أزبال المديرية. وقرّب يده التي تحمل المسدس من وجهي الدامي وهو يفحّ بصوت تلوّن بالحنق والقسوة: اليوم ستكون الحفلة النهائية معك، يجب أن تقول من هي التي كانت مساعدة خلية ناهدة الرماح، وهي عنصر الارتباط مع خليتكم. ليلة عملية البرق الساطع، من هي التي كانت مساعدة ناهدة الرمّاح؟؟

لم أجب بكلمة، لأني لم أكن أعرف ما هي عملية البرق الساطع، وليس لي علم بنشاط خلية ناهدة الرماح، فالذي أعرفه أن الفنانة ناهدة الرماح أصيبت بالعمى على خشبة المسرح، وأرسلها أحمد حسن البكر إلى لندن للعلاج، ثم غادرت العراق مطلع ثمانينات القرن العشرين، فكيف تقاتل في كردستان العراق وتقود خلية أنصار؟؟ لكن الكلب أبو عبير كان مصرّاً على أن ناهدة الرماح تقود عمليات في مناطق كفري ومرتفعات جبال حمرين، وسط رعبي وعرقي ودموعي ودمي، لطمني أبو عبير بقوة بماسورة المسدس، وشعرت فجأة أنّ وجهي قد انتزع من رقبتي، ثم غبت عن الوعي، لا أدرى كم من الوقت بقيت غائباً عن الوعي، لكن حين أفقت وجدت نفسي في زنزانة مشتركة مع أربعة اشخاص، وهم يتولون العناية بي، وقد ربطوا فكي المهشم بجوارب عتيق إلى رأسي كي يلتئم، فيما بقيت اسناني المهشمة تنزف من فمي المتراخي. وهكذا قضيت الأسابيع التالية صامتاً لا أتكلم، وهذا جعل أبو عبير يحقق معي عن طريق الكتابة، حيث يُفكّ وثاق يدي، وتوضع ورقة وقلم أمامي لأكتب إجاباتي عن اسئلته الخارقة الخانقة!

لم أعد أقوى على الأكل، فقد تكسّرت اسناني كلها تقريباً في جانب فمي الأيسر، واقتصرت تغذيتي على السوائل، وهي الماء وبلالة الشاي التي باتوا يجلبونها لي بدلاً عن الطعام، فصرت أغمس الصمون ببلالة الشاي الوسخة وألتقمه، شهور طويلة بقيت على هذا الحال، حتى سفّروني إلى سجن كاني بنكه، ولم أفهم لماذا نقلوني إلى هذا السجن، لكني سعدت بالخلاص من قبضة أبو عبير.

تلك اللحظات التي كان يعذبني فيها، كان يقرّب وجهه الكريه من وجهي حتى كنت أدرك أحيانا من أنفاسه ماذا أكلَ، فمرة تفوح منه رائحة الخيار، ومرة رائحة مخلل، ومرة رائحة الرقي، واللحمة حاضرت في أنفاسه دائما. ولشدة القرب رصدت آثر حبة بغداد مسمرّة على يمين شفته السفلى، ورصدت ندبة من جرح صغير فوق منتصف حاجبه الأيسر. واليوم ونحن نجلس على مائدته الباذخة، تعمدت التقرّب منه ومعي زوجتي لأرى عن كثب الأثرين الذين حفظتهما في وجهه الكريه.

وشهق سامر بالبكاء، وتناول كأسه محاولاً أن يطفئ حزنه برشفة من كحول أسكتلندي فاخر، لكنه بكى "وشبا دمعه لهيباً": إنه ابن القحبة نفسه، اليوم بات مقاولاً ثرياً يريد أن يعيد الحياة إلى الموصل وأهلها! أي قسمة ضيزى هذه، أنا ضاع عمري في المنافي، فلا أرض لي في العراق ولا راتب ولا حق، ولا أي شيء، والسفلة القتلة يتنعمون حتى اليوم بكل شيء! وتعالى نحيبه ففرض علينا صمتاً مشلولاً بكوارث تلكم اللحظات الداميات.

صوت نحيب سامر، يمزقني، فأبكي بدوري وقد ضاع اتصالي بالزمان والمكان، وبقيت معلقا في عفونة تلك السجون المظلمات، تذكرت لوعتي مع سجان لم يكن يتقن العربية ولم أكن اتقن لغته، وتذكرت زنزانات الصمت، التي يغادرها المرء وقد تيبّست حباله الصوتية. الحنجرة جهاز يتوقف عن العمل إن لم تستخدمه، هكذا تعلمت من زنزانات الصمت الموحشات في تسعينات القرن العشرين. ولمحت الدمع يسيل على وجه بديع، فهو الآخر كان سجيناً في أمن السليمانية لشهور طويلة، وبعدها قضى سنتين في سجن الناصرية، قبل هروبه من العراق منتصف ثمانيات القرن العشرين.

لا أعرف كم تطاولت لحظة البكاء الجماعي تلك، لكن بديع قطعها رافعاً كأسه وهو يرسم على وجهه بسمة تحدي قائلاً: دعكم من كل هذا، يا عزيزي لقد عشنا بعيداً عن صدام وهموم الحصار وزنزانات البعث وطغيانه، في ربوع أوروبا، وبنينا مستقبلنا ومستقبل عائلاتنا في ربوع السلام، فلا يحزنك ما فعله هذا السافل، ولا تفكر به!

قطع سامر فجأة نحيبه، ونظر في وجع بديع بعمق وقال: "ما يبقى حمل مطروح!"، وهو تعبير عراقي يدل على أن الأحوال تتبدل دائماً. وقام من جلسته الكئيبة الباكية، تاركاً كأسه وقال وهو يرحل متجنباً النظر في وجوهنا: غداً ينتظرنا سفر مبكر لا أريد أن اتأخر عنه، تصبحون على خير.

نحو العاشرة من صباح اليوم التالي نقلت حافلتان أنيقتان الضيوف القادمين من خارج العراق إلى مدينة الموصل، فيما سافر باقي الضيوف بسياراتهم الخاصة. وحللنا في بيوت القرية السياحية بالغابات، ثم كانت لنا جولة في الجانب الأيمن الذي شهد دماراً واسعاً، وتناولنا طعام الغداء في إحدى قاعات جامعة الموصل، التي أحرق الدواعش مكتبتها الفاخرة ذات المليوني عنوان. ثم اجتمعنا بعدد من أساتذة الجامعة، ورووا لنا تجاربهم المرة في ظل الدولة الإسلامية.

شهدنا غروب ذلك اليوم ونحن في بيوت الغابة. الظلام يعمّ المدينة التي خرجت تواً من عسف الدولة الإسلامية برياتها السود، والتأم شمل عدد من الأصدقاء في بيتي، وشرعنا نروي لبعض مشاهداتنا وحواراتنا مع أهل الموصل بلوعة امتزجت بالدهشة، وندّت عن صديقنا سامر عبارة تشي بنكهة تشفي وهو يقول "لحسن الحظ نحن لم نعش في ظل الدولة الإسلاميةّ! ربما كانت هذه فضيلة وحيدة أورثنا إياها صدام حسين دون إرادته، فغربتنا بحد ذاتها أنقذتنا من حراب داعش وسيوفهم الغادرة".

قبل الثانية عشرة غادرنا سامر وبضع أصدقاء وودعونا وهم ذاهبون إلى بيوتهم استعداداً لرحلة العودة إلى أربيل في اليوم التالي، حيث أن أغلب الضيوف سيغادرون إلى بلدانهم عصر يوم غد.

بانتظار طائرتي إلى فرانكفورت، التقيت عدداً من المشاركين في الفعالية في مطار أربيل في عصر ذلك اليوم، كان الجميع يتهامسون وقد علت وجوههم ملامح قلقٍ بادٍ، وفهمت من الهمس أنّ المقاول ريكان الخالدي قد عُثر عليه مقتولاً في سريره بأحد بيوت القرية

السياحية، وأن أمن وشرطة الموصل قد انتبهوا لهذه الجريمة بعد أن غادر ضيوف الفعالية عائدين إلى أربيل، والمخاوف تنتاب الجميع أن يجري منعهم من السفر على خلفية التحقيق في مقتل المقاول الثري!

وهكذا بات كل منّا يحصي الدقائق بقلق شديد حتى يحين موعد إقلاع الطائرة التي ستقلّه إلى وطنه البديل! في الخامسة عصراً أقلعت طائرتنا إلى فرانكفورت، ولم يستقر بي الحال حتى غادرنا الأجواء العراقية، ويبدو أن هذا كان شعور صديقي آرام الجالس إلى جواري، اذ ما إن أمسينا نحلّق فوق الأراضي التركية، حتى دنا برأسه مني وهو يقول: سمعت أنّ المقاول ريكان الخالدي وجد مقتولاً وقد كُسر فكه وتناثرت أسنانه على السرير إثر ضربة بجسم ثقيل، وترجح الأقاويل أنها ضربة بمطرقة "تفليش" لا يقل وزنها عن 3 كيلوغرامات عثر عليها في حديقة البيت الذي كان يسكنه القتيل.

قلت هامساً: لا أجد هذا غريباً، ففي عالم رجال الأعمال والمقاولين تنافس خطير يصل إلى مستويات خطيرة، والقتل يندرج أحيانا ضمن خيارات التنافس.

أجاب آرام مبتسماً: أشاركك الرأي، وفي ظروف العراق الحالية، الطايح رايح! الحمد لله أن سفرنا لم يتأخر لأغراض التحقيق.

استقبلتني في مخرج مطار فرانكفورت المؤدي إلى محطة القطارات نفحة هواء خريفي باردة تعبق برائحة الديزل، وتنسمت رحيق الحرية وأنا استقل قطار IC الأبيض السريع الأنيق عائداً إلى مدينتي، وفي خاطري ينبض فرح مشوب بنكهة الدم لأنّ سامر استطاع حتماً أن يثأر لنفسه. لكن غصة خفية أطبقت على داخلي وأنا أسائل نفسي، متى سيتاح لي أن أثأر من ظلم سجاني؟!

بون / فبراير 2021

*هذه قصة من نسج الخيال، وكل شخوصها متخيلة، وأيّ تشابه في الأسماء أو السرد مع وقائع حقيقية سيكون مجرد مصادفة.

قصة حب بلا أسباب

لا سبب يدعوها لئلا تعجب بزميلها الجامعي، فهو وسيم بسمرته وشعره المسترسل على ياقات قمصانه الضيقة، أنيق المظهر رغم مشيته المتعجلة، وهو في الصف المنتهي فيما هي مازالت في عامها الأول في الكلية، وهذا الفارق بينهما يمكن أن يؤسس لمشروع حياة مشتركة. عامان في الخدمة العسكرية، فتصبح هي في الصف الرابع، وبعد سنة يتزوجان.

كان ينتظر دائماً لحظة مناسبة، دون أن يعرف شكل اللحظة التي ينتظرها، فكل لحظة يمكن أن تصبح مناسبة لو قرر أن يبدأ، لكنّ القرار بالنسبة له كان دائماً صعباً، وبعد ثلاثين عاماً سيرث ابنه منه هذا التردد المزعج، وسيرى فيه أخطاءه مكبّرة عشرات المرات. وكلما مرت في رواق الصفوف المنتهية، وهي تقرع الموزائيك العتيق بالسكاربيل المرتفع الذي نجح تماما في إخفاء قصر قامتها، سالت إليها روحه بلا ضفاف، وتنامى في تلك الروح شوق جارف لأن يضمها إليها كباقة من فاكهة تشبه الورد.

في صبيحة شباطية باردة، صادفها مرة أخرى وهي تخطو في الرواق، كان جرس الحصة الأولى قد قرع وشرع الطلبة يدخلون صفوفهم بسرعة قبل وصول الأساتذة، ولكنها لم تسرع، بل بادرته ببسمة من فمها الصغير مثل زهرة شقائق حمراء في أول ينعها القصير. سروالها الجامعي رمادي ضيق رشيق يحتوي ساقيها القصيرتين، فيما تهتز فوقه سترتها الزرقاء الأنيقة، وبينهما قميص يضيق بالنهدين المتمردين بشدة على سلطة أزرار القميص. رأى فيها كل ذلك في لمحة سريعة، فابتسم وسألها بسرعة " تعالي نهرب من الحصة إلى فطور صباحي في نادي الكلية الدافئ"! وحين ابتسمت، غادرا بسرعة رواق الجانب الغربي، ونزلا السلم بهدوء إلى ممر يسير بحذاء الحديقة مستوراً بأشجار النارنج والبرتقال ليؤمن لهما طريق الهروب إلى قصة أخرى لا تشبه قصص الآخرين.

تسود النادي رائحة حساء العدس وهم يقدمونه في صباحات الشتاء ليدفئ جوف الآكلين، كما تتصاعد أبخرة أباريق الشاي العملاقة لتغمر الصالة الخالية في ساعات الصبح الأولى. وجلسا إلى طاولة في ركن قصي، ظهرهما إلى الجدار، فيريان جمهور المكان بحرية. جاء لها بكوب من "كافيه أوليه" كما كان يروق له أن يسميه، رغم أنه ليس أكثر من شاي حليب يفتقر إلى القهوة! وجلسا يتبادلان كلمات بلا معنى وهما يصنعان مناسبة تليق بمشرع حب.

"الحب هو أن نبدأ معاً دون انتظار اللحظة التالية. اللحظة التالية هي زمن آخر، والحب هو الحاضر فحسب". كتب هذه الكلمات على الجلد الداخلي لغلاف كتابها الفرنسي الأزرق، فقرأتها وارتسمت على فمها الصغير الحلو ابتسامة قصيرة، فتناولت منه ليفاكسه الأصفر، وكتبت على صفحته الأخيرة "Je t'aime et je t'adore jusqu'à la mort ". ولم

يستطع قراءة العبارة الفرنسية، فسألها أن تترجم ما كتبته فقالت "أحبكَ وأعبدكَ حتى الموت".

لقد اختارت اللحظة، فأعلنت له بلا تردد مشاعرها، أما هو فما زال حائراً لا يعرف أن يختار اللحظة.

نظر في عينيها الصغيرتين، وتذكر كلمات الأغنية "غرك عيونك بالكحل يا اسمر يابو عيون الشهل"، فرددها بصوت سمعته، وأتمّ الأغنية وهو يدندن. فابتسمت وقالت "عيوني ليست شهل، وليست جميلة بل صغيرة بالكاد اقرأ بها". ثم ابتسمت بهدوء وقالت "علينا ألا نبدأ بالأكاذيب".

إذن سأقول لك "صباح الخير، عيونك صغيرة وليست جميلة، ومع ذلك تعجبني؟"

نظرت إليه بضيق مستفز وقالت" ليس من الجميل أن تخاطب فتاة تجالسها أول مرة بهذا الأسلوب"!

ولكنكِ قلتِ تواً: عيوني ليست شهل، وليست جميلة بل صغيرة بالكاد أقرأ بها و...علينا ألا نبدأ بالأكاذيب"؟ أنا تجاوبت مع عبارتك!

بدا عليها الضيق وقالت وهي تنظر في وجهه: عموماً كان يمكن أن تختار عبارة أجمل من تلك!

ابتسم بهدوء وهي يقول: عيناك جميلتان وهما غارقتان في الكحل وتأسران قلبي في هذا الصباح الشتوي البارد.

تألقت على ضفة شفتيها بسمة باهرة، وعاد الانشراح إلى محياها الأسمر الصغير فقالت: نعم، هكذا نبدأ بحوار ناجح، رغم أنكَ قد حرمتني من محاضرة هامة، مدام رحمة الله سيغضبها غيابي!

لا أظن ذلك...الحضور والغياب يقرره الطالب في الجامعة، وقبل سنتين لم يكن يسجل الأستاذ الحضور والغياب في الصف على اعتبار أنّ الطلبة بالغين. في أول محاضرة ألقاها علينا أستاذ اللغة قبل 3 أعوام قال: أنتم الآن لم تعودوا ولد وبنات، بل رجال ونساء، وحين نخاطبكم بالإنكليزية نقول لكم: Ladies and Gentlemen.

وهكذا تشكّلت عوالم قصتهما، لقاءات مسروقة من ساعات الدرس، وجلسات مفعمة بالشعر والأدب وأفلام السينما، تضمهما إلى جمع كبير من الزملاء. لم يكن هو من النوع الذي يود أن ينعزل بحبيبته عن الآخرين ليبقى يهمس في أذنها كلمات حب حميمة كما كان يفعل أغلب العاشقين، بل كان يرى أن العلاقة لا تعيش إلا بين الآخرين، فيما كانت هي منقادة له، وترافقه في تلكم اللقاءات بلا روية. كان وجود الآخرين والأخريات يتيح له أن يناور بالعلاقة، وهذه مساحة ما برح متمسكاً بها لأسباب لم يستطع فهمها بعمق، وكشفت الأيام أنّه هامش للهروب من جدية العلاقة والانتقال إلى امرأة أخرى.

وكان بوده أن تبدأ هي بمغادرة حدود العلاقة، بل كان في بعض الأحيان يوحي لها بهذا الهجر، ففي هذا عزاء يتيح له سبيل الخيانة. الأخريات لسن أجمل منها، لكنّ شيئاً غامضاً في داخله كان يدفعه إلى أحضانهن. إلا أنها بقيت ترفض خيار الهجر من جانبها، وتمسكت به رغم عربدته وعبثه الجنوني.

وحين اشتدت الحرب اللبنانية، كان يقرأ لها قصائد محمود درويش عن تل الزعتر ويشجعها ان يهربا إلى حرب لبنان، ليقاتلا الانفصاليين! هو لم يكن يعرف بالضبط أطراف وأسباب الحرب في هذا البلد، أما هي فكانت لا تفقه شيئاً من كل ذلك، بل ترى نفسها تسير معه إلى آخر العالم دون تردد.

انتهى العام الدراسي، وهو حائر أين يتجه. القرار بالنسبة له بقي صعباً جداً، هي موجودة بقلبها الذي ينطره بشوق وبحبها الذي يأتمنه ويليق به، وهو متغيّب متذرع بلا أسباب، متخم بخيانات بلا معنى.

وسافر في الصيف إلى أوروبا الشرقية، على خارطة رحلته الطلابية الاقتصادية كانت إسطنبول، صوفيا، بوخارست، ثم بودابست. حين جال بكل تلكم المدن البعيدة الكئيبة لم ير الحزن في وجوه الناس، بل تصور عوالم مشرقة يفتقدها في بلده النفطي الحار الجاف حائر الانتماء، فالعراق لا ينتمي للشرق الأوسط، ولا ينتمي للخليج، ولا يشبه بلدان العرب ولا يشبه جواره التركي والإيراني...إنه وطن غريب ورجاله حائرون، ونساؤه اعتدن العيش مع سفر الأحباب وغدر الرجال وهجر القلوب العاشقة.

محطات القطارات أكملت صورة حزنه المبهم، ففي المحطات حزن لا تفسير له، ولكنه حزن الفراق الجميل، وفرح اللقاء غير المكتمل. بعد كلّ تلاقٍ يبقى هاجس المسافرين تدانٍ جديد...على الأقل هكذا كان يرى ظله في محطات القطارات التي تبدو مهجورة بعد أن تغادرها القطارات. في المطارات لا تُروى قصص الحب الحزينة، ولا في كراجات سفر الحافلات والسيارات، فهناك يصبح للسفر مذاق حب أليف، حب عائلي ترسم تفاصيله بيوت متخمة بالأطفال والآباء والأمهات، وحدها محطات القطار توحي بقصص الحب غير المكتملة.

وبعد أعوام، ستقف حبيبته الصغيرة على رصيف المحطة العالمية لتودعه وهو يذهب كل شهر إلى جبهات الحرب في الجنوب، قطار البصرة يسرقه منها، وهما لا يملكان سوى قصة حبهما التي ثقّبتها الأيام، واتعبتها رحلات الهجر ومنازل الفراق.

الحب لا يتطلب أسباباً، وهما كتبا تفاصيل حكاية عشق بلا أسباب، وقد آلت بهما إلى منزل دافئ ما برحت الطفولة غائبة عنه، وهذا أتاح للآخرين البحث عن أسباب تنهي تلك الحكاية. وبعد سبعة أعوام، فرضت السياسة حرباً جديدة أجبرته على الهجرة، فتطاول الفراق القسري حتى انتهى بفراق أبدي.

حدود حكاية الحب بقيت غائمة، ولم تكتمل في نفسه الصورة. هي لم تعرف سبباً لقلقه وتردده، وهو لم يعرف نفسه حتى بعد أن ابتعد عن قصة حبهما نصف قرن...خمسون عاماً تخللتها هجرات قاسيات، فلم يبق من قصة الحب سوى قطع الأثاث والكتب والصور تسلي بها وحدتها القاحلة.

***

عوالم آدم الغريبة المدهشة!

في العاشرة من عمره، رسم آدم لوحة بألوان الباستيل، ظهرت فيها صورة أمّه وهي تهديه علبة أصباغ مائية وفرشاة وقلم قائلة: هكذا ترسم لي شيئاً جميلاً يريح النفس! بجانب الأم رسم بيتاً بابه مشرعة في مهب الريح، وفوقه مدخنة رصاصية اللون تتصاعد منها حلقات دخان المدفأة والطبخ اللذيذ. ثم رسم نفسه واخته الأصغر منه وشقيقهما الأصغر. وأمام البيت رسم ثلاث أشجار نمت منتظمة في صف واحد لتتدرج أطوالها بموجب أطوالهم. وحين سألته أمه لمَ لم يرسم صورة أبيه وسط هذا الحشد المنزلي، أجابها إنّه سمين ولا يجد له مكاناً في الصورة، رغم أن أباه هو من علمه الرسم.

تلكم الأشجار التي رسمها كانت قد زرعتها خالته في مساحة الرصيف غير المبلط أمام البيت، والذي حوله أغلب السكان إلى حديقة خارج الواجهة الأمامية للبيت، وزرعوا فيها شتلات ورد الدفلى الوردية والبيضاء المرة السامة. خلف صف الدفلى، شتلت خالته شجيرات ثلاث وسمتها بأسمائهم. الكبيرة شجرة صنوبر خصصت له وأسمتها عنبر، والوسطى شجرة سدر خصصت لأخته وأسمتها هالة، والصغيرة شجرة صفصاف باكية واسمها أموّنة وهي نصيب شقيقه الذي يصغره بسبعة أعوام.

خلال تلكم الأعوام، عرف آدم لينا، وهي أرمنية في عمره، ناحلة البدن بنهدين تكعّبا تواً تنحت تكوّرهما بلوزتها البيضاء ذات الرقبة الملتصقة بجسدها والتي كانت موضة العصر، وأسفل البلوزة كانت ترتدي غالباً تنورة ذات كسرات حمراء وصفراء قصيرة تكشف عن فخذيها وركبتيها، أو سروال جينز ملتصق بجسدها. شعرها أسود لامع ينساب كالحرير على كتفيها، ووجهها جميل ناحل بعينين نجلاوين مغرقتين في السواد. لكن تلك المعرفة جاءت بعد عذاب وحرمانٍ مضنٍ. فحين بلغ الحادية عشرة بدأ ينمو في داخله شوق غريب لملامسة البنات، إلا أنّ الوصول إلى أيّ منهن كان صعباً، فالصغيرات لا يفقهن ما يروم ويرفضن اللعب معه لأنهن تربين على الفصل بين الفتيان والصبيان، أما الأكبر سناً فيسخرن منه ويتعبرنه فتاً غراً غير بالغ لا يفقه شيئاً. وهكذا كان عليه أن يتناسى ذلك الشوق، بل التوق الغامض لتلمس البنات، وينشغل عنه بمكتشفات جديدة تدهشه كل يوم. ولم يعد يخرج مع أمه وأبيه وأشقائه، فقد كبر عن هذا العالم وبات يخرج وحده. لكنه بقي منطوياً على نفسه.

في المدرسة كان التلامذة يرون فيه غرابة غامضة تنفرهم عنه، وهذا ما جعله يعكف على عالم الكتب، فاكتشف سلسلة علمية ملونة عن عالم المعرفة متروكة في غرفة المجلات الملحقة بغرفة جده في واجهة الجزء القديم من البيت، ومن بين كتبها "دليلك إلى عالم الحشرات"، "دليلك إلى عالم المتحجرات"، "دليلك إلى عالم النجوم والكواكب"، "دليلك إلى عالم الصخور"، "دليلك إلى عالم الأنهار والبحار والمحيطات"، وقائمة الدليل تمتد

وتتواصل حتى يعجز آدم عن متابعتها. وباتت السلسلة كل عالمه حيث لا يحتاج إلى رفيق أو صديق، بل يتعامل مع حقائق علمية يحاول أن يجمعها في نمط خاص، وهكذا حوّل المرصد في أعلى غصون ست الحسن إلى مكتب يخزن فيه المعلومات التي يجمعها عن هذا العالم.

خلف بيتهم القريب من دجلة، جنينة منسية فيها شجرتان: "أم الخير" وهي زيتونة زرعها خاله خلف باب غرفة طباختنا الإيرانية الكهلة "نه نه إسماعيل" الحديدي الأزرق المفضي للجنينية. حسب أقوال الكبار، كانت ثمارها زيتوناً برحياً، والزيتون يكنّى بأسماء التمر في بغداد. فيما تتوسط التوته العملاقة "ست الحسن" الجنينة وهي تغذي بيتهم وبيوت من حولهم بأشهى ثمرات التكي الأبيض الغليظة المترعة بماء التوت اللذيذ، وقد نمت وحدها دون أن يغرسها أحد وقضت على كل ما سواها من الحشائش والأشجار، فاقتصرت الجنينة الخلفية على تلكم الشجرتين. وحين وعى آدم تفاصيل الحياة حوله، كان قطر جذع الشجرة قد بلغ طوقه ذراعي رجلين مدتا حول جذعها الذي بدت تغزوه حشرات الأرضة البيضاء الكريهة. ولا يتذكر آدم، من منح الشجرتين اسميهما، لكنه فطن على العالم وجناهما العطر اللذيذ يتدفق على أهل بيته وأحبتهم.

جنى أم الخير من الزيتون الأسود كان يتساقط فوق سقف مطبخ جيرانهم الحجازيين المعزول عن مساحة بيتهم العملاق في جنينة خلفية تتاخم حدود جنينتهم. ودأب آدم على جمع جنى الزيتون من فوق سطح الجيران، وهو يتحدث لمن يكون منهم في الجنينة، وغالباً هنّ نسوة ذلك البيت. كانت أقرب سكان البيت إليه عمراً ابنتهم ميادة التي كان يلعب معها قبل سنوات، ويحسب دائماً أنها تكبره بعامين، ولكنه لا يعرف كيف يسألها عن ذلك، وهما يتراكضان دائماً كالمجانين حول بيت أهلها الشبيه بقلعة رمادية كبيرة قليلة النوافذ.

أما جنى التوت اللذيذ فكان يتساقط كثير منه على أرض الجنينة الخلفية القاحلة المجدبة، لكنه طالما خشي أن يلمه من تلك المنطقة، ففيها أفعى بيضاء وعربيد أسود مرقط بالصفار، وعقارب وعناكب لا حصر لها. لذا كان يجني التوت من سقف بيتهم، حيث تسيل مساحة وافرة من غصون الشجرة في ناحية من سطحهم المترامي المساحة، عبر سياجه المنخفض الملاصق لها. كما كان باقي الجني يتساقط فوق سطح غرفة خالته سامية المنفردة في مساحة السطح، ولكنه لم يكن يتسلق كل يوم لسقف تلك الغرفة لأسباب يجهلها، بل كان يفضّل تسلق التوته العملاقة من جدار السطح المنخفض، حتى يصل قمتها الشاهقة التي يرى من فوقها شاطئ دجلة وكورنيش أبي نؤاس، بل ويرى ضفاف القصر الجمهوري عبر النهر، على ضفة كرادة مريم المقابلة لكرادتهم الشرقية.

حزمة من غصون ست الحسن، تتدلى فوق بيت جيرانهم التركي عصمت السراج وزوجته القصيرة السريعة أم منال. أكثر ما يلفت نظره في سكان ذلك البيت هو ابنهما الطيار الأنيق الوسيم الأشقر نشأت، وبنتيهما نزيرة وأسماء العاملتين في السفارات، فيما تعمل أيسر الأكبر منهن في وزارة الخارجية حيث تأتيها كل يوم سيارة دودج شاسعة الحجم أنيقة صفراء بلوحة كتب عليها (72 خارجية) لتأخذها من البيت صباحاً وتعيدها إليه عصراً عند

انتهاء الدوام. بينما اعتاد آدم أن يلعب مع ممت ابن بنتهم الكبيرة منال، حين يزور بيت أجداده في عطل نهاية الأسبوع وفي الأعياد، وكانت لهما مغامرات موحلة مثيرة للشفقة والضحك في الطواف حول البيتين العملاقين.

باقي غصون ست الحسن المثقلة بالثمار تتدلى في جنينة بيت المستأجرين المسيحيين الملاصق لظهر بيتهم، وما كان يعرف شيئاً عن سكان هذا البيت لأنهم مستأجرون يتغيرون مراراً، فالبيت عبارة عن غرف مؤجرة لعوائل تلكيف المسيحية المهاجرة إلى بغداد، لكنّ العلامة الفارقة لذلك البيت الكبير هو إهمال ساكنيه الشديد لجنينتهم الكبيرة، بشكل بات ارتفاع العشب والحلفاء فيها يصل إلى خصر رجل. فيما كانت نساؤهم يضعن جرار الجبن والمخلل الكبيرة الخضراء المسمرة في طارمة البيت الخلفية، ويجلسن على الأرض وهن يقرّضن ثمار البامياء والشلغم والشوندر والفاصولياء الخضراء الشهية ويقشرن ثمار البصل والبطاطا والباذنجان والشجر لإعداد وجبات الغذاء، ويلقين بعظام اللحمة إلى قطط الجيران التي تحتشد حولهن وبينها قطتنا الانيقة السمينة لاميا. وكم تلصص آدم عليهن من نافذة غرفة خالته الكبيرة المطلة على الجنينة الخلفية وقد افترشن أرض الطارمة فاتحات سيقانهن فتبين لبسانهن بشكل فاضح حتى أنّه يميز ألوانها رغم بعد المسافة عنهن.

قرر آدم أن يبني مرصداً فوق شجرة التكي العملاقة، وهكذا بدأ ينقل إلى قمتها ألواح خشب جمعها من بقايا قفص الدجاج الكبير الذي كان خاله قد بناه تحت شجرة الزيتون، وتركه حين تزوج وغادر البيت، فلم يعد هناك دجاج وصار القفص مزبلة. واحتاج آدم إلى بضع ألواح أخرى لإكمال المرصد فصار يجمعها من سوق الخضرة العامر في ارخيته، وكان البقالون يعترضون أحياناً، ولكنهم في الغالب يتنازلون في النهاية عن صندوق طماطم أو صندوق تفاح لبناني عطر، فينقلها على دراجته الهوائية إلى البيت ليكمل بها بناء مشروعه.

اكتمل تشييد المرصد، لكنّ اهتمام آدم به بدأ ينطفئ، إذ اكتشف أن بوسعه الجلوس مسترخياً فوق عقدة غصون في أعلى الشجرة، بل بوسعه أن يغفو هناك دون خطر، فالغصون غليظة متشابكة بشدة، وحين يجلس فوقها لا تنحني تحته، وهكذا فإنّ بوسعه الجلوس فوق ذلك العش الطبيعي ساعات ومراقبة الأفق بمختلف الاتجاهات. وهكذا أهمل المرصد، وبات يجلس على عقدة الغصون، ويراقب كل الآفاق بمنظار عسكري وجده في علية الأشياء العتيقة المجاورة لغرفة نومه المستطيلة المضحكة، ولاسيما أفق القصر الجمهوري عبر نهر دجلة. وكان يلفت نظره وجود بعض الأطفال وهم يلعبون في المساحة الرملية الملاصقة لخلفية القصر المطلة على النهر. وصار ناظوره العتيق يريه أولئك الأطفال ويكشف له أن بينهم بعض البنات، كما يكشف له ألوان ملابسهم، بل وحتى أشكال أحذيتهم، وأغلبها بوتينات رياضة بيضاء على جانبها ثلاثة خطوط زرق.

في أوج اهتماماته بعالم الحشرات والهياكل، لفتت نظره مملكتا نمل منفصلتان تحتلان أسفل الجدار العتيق في الممر الرفيع المحاذي للجدار الشاهق لغرفة الجد وغرفة الحمام والمغاسل الملحقة بها والتي تضم كنوزاً من الكتب والمجلات المعرفية التي يخوض فيها جولاته اليومية. الجدار يصل عرضه إلى نحو متر، وهو مبني باللبن الطيني المسلح بجذوع أشجار

القوغ والصفاف البيضاء المستقيمة اليابسة، وقد جرى اكساؤه من الخارج بالنورة والجص، ومن الداخل جرى تبييضه في مرحلة لاحقة بالجبس.

وجاء اكتشافه للمملكتين ضمن رحلات بحثه العلمية التي كان يشنها غالباً إبان مساحات الخدر الصيفي بعد ظهيرة كل يوم، حيث ينام الجميع، ولا يبقى سوى عالم الحشرات والحيوانات حوله. إحدى المملكتين كانت مملكة نمل عربي أسود صغير نشيط سريع الحركة، وتقع أسفل إطار الباب الحديدي الأبيض الذي ينتهي به الممر الرفيع، والأخرى كانت مملكة نمل فارسي أشهب اللون وتقع في زاوية غرفة الجد المطلة على جنينة الدار الأمامية، وهي زاوية ترتفع عن مستوى الشارع بثلاث درجات سلم، وهو ارتفاع كل البيت عن مستوى الشارع، ربما تحسباً لمياه الامطار أو فيضانات نهر دجلة القريب.

وخطر لآدم أن يختبر سكان المملكتين، فطلى كل نملة فارسية كبيرة تمر أمامه بزيت الطعام بفرشاة دقيقة ليرى رد الفعل من الطرف الآخر. لم يحدث شيء في البداية، فأدرك أن عليه بذل المزيد من الجهد ليطلي أغلب أو كل سكان مملكة النحل الفارسي بالزيت ويرى ما يحدث. وهكذا أنفق ثلاثة أيام، منحنياً على مسار النمل الفاسي القادم من جنوب البيت وهو يزّيت نملة نملة. في اليوم الرابع، اقترب منذ الصباح من مسرى النمل المتعاكس، وبدأ يرصد حالات تشمم النمل العربي للنمل الفارسي المدهون بالزيت. ثم بدأ المساران يتصادمان، وهذا لم يحدث من قبل قط، فالنمل الفارسي كان يسافر دائماً من الجنوب إلى الشمال لتصيد الرزق، فيما يسافر النمل العربي من الشمال إلى الجنوب لنفس الغرض وكلا الرتلين يتجنبان التصادم، أما اليوم فهما يتصادمان ويختصمان، وبدأ النمل الفارسي يقتل النمل العربي الصغير، ويحمل جثثه إلى مخابئ طعامه الشتوي الدفينة. في اليوم التالي حاول النمل العربي أن يشنّ هجمات معاكسة عبر مجاميع مكونة من نملتين أو ثلاث، تتفق في الهجوم على نملة فارسية شهباء، ونجحت بعض تلك المحاولات في القضاء على بعضها، ثم انهمك جزء آخر من مملكة النمل العربي بنقل جثث النمل الفارسي القتيل. أشعل آدم حرباً ضروساً بين المملكتين لمجرد أن يراقب ردود الفعل.

عالم آدم الوحيد ينقسم بين لينا الرقيقة الجميلة، وبين ممالك النمل وبقايا الحشرات، وتجمعت له في رحلات البحث حصيلة من المقتنيات، ظلت تتكاثر في علبٍ وقنانٍ، فاحتار أين يخفيها، حتى اهتدى إلى حمام قديم متروك بجانب نهاية الممر المترب الملاصق للجدار الشاهق للبيت العتيق، دأبت قطط بيتهم وبيوت الجيران على الولادة في غرفة تغيير ملابسه. وتجمعت في الحمام المظلم، علب وقنانٍ وأنصاف قنانٍ كان يكسرها بحيلة فنية تعلمها من مجلة ليحصل منها على أوعية زجاجية مختبرية، حيث كان يلفّ خيطاً على منتصف القنينة التي يروم قطعها، ثم يبلل الخيط بنفط الإضاءة، ثم يغمر أسفل القنينة بماء بارد ويوقد في الخيط النار، فتنفصل القنينة إلى نصفين قسّما بشكل منتظم، وحافات الكسر تبقى مستقيمة دقيقة دون نتوءات زجاجية جارحة. واعتاد أن يقفل أنصاف القناني والعلب بأغطية يبتكرها من الكرتون، أو من العاب معدنية أو بلاستيكية قديمة لم تعد تثير اهتمامه، فيستعين بها لإنتاج أغطية مفيدة.

المقتنيات المحفوظة في تلكم الأواني ضمت: بقايا دبابير، بقايا نحل، ذباب ميت، بعوض ميت، عناكب بأشكال وألوان مختلفة، هياكل جراد بأحجام وألوان مختلفة، صراصير حقل صفراء ميتة، فراشات بألوان زاهية، وهبته بعضها بنت عمته نسرين، أجزاء من عقارب ميتة سوداء وصفراء وبيضاء، بقايا مرادين حمراء، خنافس سوداء ميتة، أذناب حية أم سليمان، وأذناب سحالي الجدار "أبو بريص" بحجوم هائلة، ضفادع محنطة بألوان وحجوم مختلفة، بقايا نمل فارسي وعربي جمعها في أوان زجاجية بعد أن أبادها في تجاربه الحربية التي أجراها على مملكتيهما، بقايا عصافير، بقايا خبز عفن، عظام دجاج نافق، فكوك خراف مذبوحة كان يجلبها من القصابين في سوق الخضرة، 3 جلود لحيّة البيت "صالحة" التي اعتادت أن ترقد مستبردة في غرفته، وجلود أخرى لأفاعٍ مجهولة عثر عليها في رحلاته على شواطئ دجلة وفي أرجاء بيتهم العتيق وبيت جيرانهم الترك والحجازيين. كل المنطقة كانت تعج بالأفاعي والعقارب لقربها من النهر. وجوهرة المجموعة، جمجمة كلب وضعها في زجاجة مربعة لحفظ المخللات سرقها من مطبخ نه نه إسماعيل. الملفت للنظر أن بعض تلكم الحشرات والزواحف مضى عليها عام في الزجاجة ومع ذلك ما زالت سليمة الهيكل والشكل، وقد تعلم من هذا أنّ الحشرات يمكن تحنيطها دون صعوبة.

حاول آدم أن يقرّب صديقته إلى عالمه، فأخبرها عن مختبره ومرصده السري، وعن مملكتي النمل وتجاربه عليهما، ودعاها أن تزور بيته ليطلعها على تلك العجائب، لكنها نظرت إليه مستغربة وهي تقول: كيف تريدني أن أزور بيتكم؟ ماذا يقول الجيران والناس؟ هذا غير ممكن.

وبات لقاؤه بتلك الفتاة مشكلة حقيقية، فهو في العادة، يتابعها حين تخرج إلى السوق، ويسير إلى جانبها، ويكلمها خلسة، ولكنها تعتذر عن الخروج معه، أكثر من ذلك لم يكن يستطيع الخروج معها. وتفاقم شوقه ورغبته في خلوة تجمعهما بعيداً عن عيون الناس، حتى برقت في خاطره فكرة خال أنّها يتحقق له مراده. وهكذا قرر أن يتعلم سياقة سيارة أبيه خلسة. وبدأ يجلس في ظهاري عطلة صيفية خلف مقود السيارة، ويفعل ما يفعله أبوه حين يقود، فتعلم وظيفة المقود، وبدال السرع، والموقف القدمي، والموقف اليدوي، والكلج وهو مصيبة المصائب. كما تعلم استخدام كهربائيات السيارة. وبعد أسابيع من التعلم النظري ومراقبة أبيه وهو يقود السيارة، قرر آدم أن الوقت قد حان للقيام بتجربة عملية، وبقي يترقب فرصة للقيام بهذه المغامرة الخطيرة.

وفجأة سافر أبوه في رحلة عمل رسمية إلى بولونيا لمدة ثلاثة أسابيع، فوجد فرصته التي طالما بحث عنها. وفي ذات ظهيرة بغدادية ساخنة، سرق مفاتيح السيارة من حقيبة والدته، ودفع السيارة خارج الكراج مع ابن جيرانهم الذي يكبره بعام واحد، ثم جلس خلف المقود، فيما جلس الصبي الآخر إلى جانبه. كان كل جسده يرتجف رعباً من هول التجربة، ووجد صعوبة في تشغيل السيارة، وضع دواسة الكلج، وتنظيم رفع قدمه عنها بالتزامن مع الضغط على دواسة البنزين. انطفأت السيارة عدة مرات، وفشلت جهوده في تحريكها متراً واحداً. ثم جرب للمرة العاشرة، فتحركت السيارة مترنحة ثم استقامت في سيرها، وصار عليه أن

يلتفت إلى الخطوة التالية أذ ارتفع صوت محرك السيارة، وهكذا وضع بدال السرع على النمرة 3 ومرة أخرى عادت السيارة تترنح، فأعاد البدال إلى نمرة 2 واستقرت نسبياً لكن ما لبث ان عاد صوت المحرك مرتفعاً، وهكذا كان عليه أن يغير البدال مرة أخرى، لكن شارعهم المؤدي إلى أبي نؤاس انتهى، وبات عليه أن يتوقف قبل أن يستدير إلى الكورنيش، وتوقف وكانت تلك قصة أخرى اذ انطفأت السيارة مرة أخرى!

ومضى أكثر من أسبوع على هذا الوضع، وفي كل يوم تتكرر بعد الظهيرة قصة الدرس العملي مع صديقه الجديد. تحسن أداء آدم، لكن ما برحت السيارة تنطفئ عند شروعها بالحركة حين يكون البدال على نمرة واحد، اذ تقفز، ثم تخمد ساكتة عدة مرات، حتى ينجح في النهاية في ترويضها، أو تنجح هي في ترويضه لسرعة دوران محركها! إبان هذا الوقت، كان شوقه للخروج مع لينا بالسيارة يتقد مشتعلاً، وحين التقاها وهي ذاهبة إلى سوق الخضرة، سار إلى جانبها وعرض عليها أن يخرجا معاً بسيارة أبيه! فدهشت البنت، وصارت تسأله إن كان يتقن قيادة السيارة، وأكد لها مفتخراً قدرته على ذلك، ثم طلبت منه وقتاً لتخترع قصة تقنع أهلها بالسماح لها بالخروج بعض الوقت، وعاد يخبرها أن أباه عائد للبلد بعد خمسة أيام، ولابد أن يخرجا قبل عودته لأنّ آدم لن يستطيع "الخروج" بالسيارة حين يعود أبوه، لأنه يستخدمها للذهاب إلى دائرته!

بعد ثلاثة أيام اخبرته صديقته بورقة دستها بيده أثناء خروجها إلى السوق أنّ بوسعها الخروج معه يوم غد، ولمدة ساعتين تبدأن في الثانية بعد الظهر. وهكذا استنجد بصديقه العتيد قبل الثانية بدقائق، ودفعا السيارة بصمت خارج الكراج، ثم شغلها آدم، وترك صديقه وسافر إلى منية قلبه. ثم أوقف السيارة قبل أن يدرك بوابة العمارة التي تسكنها، وانتبه إلى أن العطار الذي يلاصق مدخل العمارة قد أغلق محله وذهب لقيلولة يقضيها في بيته القريب، وزاده هذا اطمئناناً. ثم ظهرت لينا من باب العمارة بتنورة سوداء قصيرة ميني جوب، وبلوزة قطنية بنفسجية ذات رقبة، وسارعت تصعد السيارة إلى جانبه، ثم تتوارى نازلة أسفل المقعد بحيث لا يراها أحد من خارج السيارة. وتحرك آدم، وهو يرتجف ملتمساً ألاّ تنطفي السيارة اللعينة في الشروع مثل كل مرة، وحدثت المعجزة وقفزت السيارة تتحرك ولم ينطفئ محركها. وسارع يتجه بها إلى طريق معسكر الرشيد قاصداً الوصول إلى سلمان باك حيث يمكن أن توفر لهما البساتين الواقعة خلف طاق كسرى خلوة هادئة. واستقرت لينا هادئة إلى جانبه وهي تضفي على سيارتهم الألمانية البيضاء الصغيرة حسناً وأناقة ساحقة.

كان يقود السيارة مزهواً بمنجزه الكبير، سيارة أنيقة حديثة يقودها بنفسه وإلى جانبه صديقة جميلة يافعة رائعة. هكذا حقق آدم أحلى أحلامه، ولم يعد يفكر في تلكم اللحظات بمملكتي النمل المتحاربتين، ولا بالمرصد المعلق فوق شجرة "ست الحسن"، ولا بوالدته النائمة قيلولة الظهيرة، ولا بأبيه المسافر إلى عالم بعيد آخر وبالملابس الجميلة الأنيقة والهدايا الثمينة التي سيجلبها له، ولا بجارهم اليافع الصديق الذي يساعده في مؤامرات السيارة المتعاقبة. كلما في مخيلته يدور حول اللحظة التي سيقف فيها بين نخيل المدائن، ويعانق لينا

ويغرقها بالقبلات بعيداً عن أعين الجميع، بل ربما مضى معها إلى أبعد من مجرد قبلات! مذياع السيارة يلقي عليهما برامج وأغاني إذاعة القوات المسلحة المختارة الجميلة، وزجاج نافذته يعبئ السيارة بهواء نقي يضفي على الرحلة بهجة سحرية طاغية.

وتراءى له مدخل معسكر الرشيد بمدفعيه القديمين، ثم تنبه إلى أن سيطرة (نقطة تفتيش) عسكرية جديدة قد اقيمت على الطريق بعد بضعة أمتر من المدفعين، وهي لم تكن موجودة حين مرّ من هذا المكان قبل أشهر بدراجته مع أصدقائه وهم مسافرون إلى طاق كسرى! غمره العرق واجتاحه رعب لا يوصف، وانتابت ساقيه رعشة مخيفة، فالطريق ذو ممر واحد، وليس بوسع السائق أن يستدير يميناً أو يساراً لوجود اسيجة بي آر سي خاصة بثكنات المعسكر. إنها مصيدة مخيفة، ولم يعد يتخيل الموقف بعد لحظات، فهو لا يحمل أي وثائق ثبوتية، ولا إجازة سوق، ولا حتى سنوية السيارة! والبنت التي معه لا تحمل هي الأخرى أي شيء يثبت هويتها. وما لبث أن وصل النقطة، وخفف من سرعته يروم الوقوف، فأشار له الانضباط الواقف بيده أن يواصل السير، وهزته المفاجأة فسارع يكبس دواسة البنزين لتقفز السيارة مندفعة إلى أمام وصوت المحرك يئن، فيما بلغ ارتجاف ساقيه مستوى لم يسبق له أن عاشه، حتى قالت له لينا: كفاك ارتجافاً، لقد عبرنا، لا تخف!

وسار بها تحفّ بهما أحلام الخلوة الجميلة المقبلة على ضفاف دجلة، وبعد بضعة كيلومترات، تباطأ السير، حتى صارت حركة السيارات زحفاً، ولم يفهم سبب الزحام، لكنّ الحركة البطيئة التهمت أغلب الساعتين المقررتين لخلوتهما الهنية، وبذا طغى القلق على وجه صديقته، وصارت تلح عليه أن يجد سبيلاً للعودة، قبل أن يدركهما الوقت، ويعود أبوها من عمله في الخامسة عصراً! ولكن كيف، إنّه طريق ذو ممر واحد ولا فتحات شوارع جانبية فيه، وبقيا يزحفان بالسيارة حتى وصلا إلى فتحة بين طريق الذهاب والطريق المحاذي له المخصص للإياب، فإذا مدرعة مسلحة تقطع الشارع الذاهب إلى سلمان باك، وجنود واقفون يرشدون السيارات إلى الاستدارة والعودة من حيث جاءت راجعة إلى العاصمة، واستدار و قد بدا على صديقته الارتياح، اذ يمكن أن يصلا قبل حلول الخامسة عصراً، وعادت البسمة البهية إلى وجه الفتاة، وباتت تقلّب بدال المحطات في الراديو بحثاً عن إذاعة بغداد، أما آدم فكان يشغله بشدة أن طريق العودة فيه أيضا نقطة سيطرة دخول العاصمة ، وهي محاذية للسيطرة التي عبّرتهم وقد رآها حين ابطأ السير باتجاه سلمان باك قبل قليل، ولكن في اتجاه العودة، وصارت كوابيس ما سيجري تبعث في جسده مشاعر مرعبة حتى لم يعد يتلذذ برحلتهما الجميلة!

عزاء آدم في تلكم اللحظات أنّ مسير السيارات لم يتباطأ، وهذا قد يعني أنّ الطريق سالكة والسيطرة لا توقف السير، وفعلاً لاحت لهما السيطرة، وفي وسط الشارع كان يقف انضباط بيده ما يشبه مضرب كرة المنضدة وعليه دائرة حمراء يحيط بها إطار أبيض، إلا أنه كان يومئ للسيارات بالإسراع وعدم التوقف فتجتاز أغلبها نقطة السيطرة بسرعة صاروخية غير معهودة في مثل هذا الحال، وكذا فعل آدم، فاجتاز السيطرة مسرعاً، وقلبه بخفق فرحاً لأنّ الأزمة توشك أن تنجلي.

عند مفرق كنيسة سيدة النجاة ذات الصليب المقوس الكبير، استدار قاصداً شارع الكرادة داخل، وحال أن وصله، طلبت لينا أن ينزلها خشية أن يراها أحد في السيارة معه، وهكذا توقف وأتاح لها الترجل وكانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة وأربعين دقيقة. وما إن غادرت جانب الشارع الذي انزلها فيه عابرة الى الجانب الآخر، حتى قرر أن يقلع بسرعة ليأخذ جولة بالسيارة تأخذه حتى ساحة الجندي المجهول احتفالاً بالمغامرة التاريخية. وأصيب بصدمة كبرى حين سارع إلى تغيير بدال السرعة إلى نمرة واحد، فقفزت السيارة مسرعة وهي تزأر إلى الخلف بدلاً أن تتجه إلى أمام، لقد وضع بدال السرع على وضع رجوع!! واذهلته الصدمة لثانيتين أو ثلاث، ثم سارع يضغط فرامل السيارة بقوة، فتوقفت السيارة على بعد سنتمترات قليلة من سيارة فورد غالاكسي سوداء كانت واقفة خلفه وبات سائقها يضغط منبهها بشدة للفت نظره!

صحح وضع بدال السرع ووضعه على نمرة 1، وهو يبتهل ألا تنطفي السيارة، وبالفعل لم تقفز السيارة، بل لم تتحرك قط!! ضغط على البنزين ورفع رجله عن الكلج، لكن لا شيء! وغيّر بسرعة بدال السرع إلى نمرة 2 وتحرك بسرعة، فأقلعت السيارة ببطيء وهي تتعثر بسبب انخفاض نمرة البدال، لكنها تحركت، وهكذا واصل سيره وأكمل جولته القصيرة حول ساحة الجندي المجهول وعاد إلى البيت وهاجس كارثة يجول في خاطره. لقد تجاوز الكارثة الكبرى التي كان يمكن أن تصيبه وصديقته الجميلة، لكنّ كارثة من نوع آخر ظهرت على السيارة، وستتوجه له أصابع الاتهام حال عودة أبيه من السفر!

أدخل السيارة إلى الكراج بصعوبة دون أن يحدث ضجة قد تنبه والدته في جوف البيت العميق. كان جده واقفاً في شباك غرفته ينظر إلى الحديقة حين أدخل السيارة، لكنّ الجد لا يهتم لهذه التفاصيل، ولن يسبب له مشكلة مع والدته. وانتهى ذلك اليوم دون مشكلات. في اليوم التالي عاد أبوه من سفره في ساعة متأخرة من الليل، وانشغل الجميع باستقباله، ومضت الليلة التالية أيضاً بسلام.

في ضحى اليوم التالي، حاول الأب اخراج السيارة من الكراج دون جدوى، بدّال السرع لا يعمل في كل الأوضاع!! حامت الشبهات حوله وحول تجاربه الغامضة، لكنّها شبهات بقيت في مستوى الظنون، ولم تصبح اتهامات جدية. وعبرت الأزمة بخسائر مالية باهظة دفعها أهله لتعمير السيارة!

بون - ربيع 2021

فهرست

اسم القصة	الصفحة
التوأم	4
الحاج مهدي يبحث عن أخيه	8
السيد يوسف في فرحة الإفريقيات	12
أنا وصالحة تحت أعلام الحرية	21
أبو مجيد بين حياتين	28
خيط الحب خيط الدم*	38
سجدة الصبح الطويلة	41
سميّة العذراء والكهنة	44
غناء سميرا الناصري على شاطئ دجلة	48
صباح شوكت عرار – قصة نجاح جائر	54
طريق شامل البغدادي إلى القمة	60
عالم فريد السراج وكائناته الجميلة	68
عثمان الكردي بن "أبي طالب"!	78
عقيل يختار الجسر*	82

قصة حبٍ هاربة من أرض أور* 85

قنبر ومرضعاته 89

لا يدري ميثم كيف يحب! 93

لميس الجميلة زوجة الجنرال 97

مع ثريا أقرب إلى الله 100

نذور بنت الجلبي في دير مار متي 109

هو والصغيرة فاطمة 118

كاترينا صبيحة عيد الميلاد 121

دماء على مسدس طارق* 124

قصة حب بلا أسباب 131

عوالم آدم الغريبة المدهشة! 135

خرائط العراقيين الغريبة

قصص

ملهم الملائكة

مكتبة ملهم